

الإسلام كبدائل

الطبعة الأولى

١٤١٨ - ١٩٩٧ م

جامعة جنوب الصحراء المتقدمة

دار الشروق

أستاذ محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سفيون مصرى - رابطة العدوى - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣٣ الباينوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٨١٧٢١٣ - ٣١٥٨٥٩
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الإسلام كبدائل

د. مُراد هو فمان
تعریف: عادل المعلم

دار الشروق

بَيْنِ يَدِي الْكِتَابِ

قال محدثي مستنكراً: ألا مازلت تجترؤ على الزعم بأن في الإسلام حلاً لمشاكلنا، برغم التخلف والجهل والفقر والضعف الذي يعيشه المسلمون، يجسدون بها الانحطاط؟

أجبت: الإسلام بريء من كل هذا براءة الديموقراطية من استبداد الحكومات التي تدعى أنها ديموقراطية ، وبراءة المسيحية من هتلر وموسوليني ، ومن زواج الشواد بالكنيسة ، ومن تخلف العصور الوسطى .

قال : ألا ترى كيف يقود الغرب العالم ويتحكم فيه بقوة وقدرة وسلطان؟ أليس عنده النموذج الذي يستحق التقليد؟

أجبت : كلمة غرب هذه واسعة جداً: فهناك دول غرب أوروبا ودول شهاها وجنوبها ، وأمريكا وحدها ، وبكل تلك الدول هناك الحكومة ، والإعلام ، وهناك المثقفون ، ثم صفة الصفوة من المفكرين ، ومن الناحية الأخرى العامة والبساطة ، وفي حالة أمريكا نضيف لكل ذلك هل تقصد الرجل الأبيض أم الأسود؟ اللاتيني أم الآسيوي أم الشرق أوسطي ، أم اليهودي . ولكن بطريقة التعميم - التي لا أفضلها وأجد فيها تبسيطًا مخلاً بالحقائق - رأيت فعلًا ماذا فعل الغرب في البوسنة والهرسك ، وقبل ذلك فلسطين ، وقبل ذلك ماذا فعل في كثير من دول آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط لمدة قرن أو أكثر ، ورأيت محكمة سيمسون مرتين ، مرة حصل على البراءة من المحلفين السود ، ومرة بالإدانة من المحلفين البيض لنفس التهمة .

قال : تفوق الغرب على العالم بسبب نظامه الديمقراطي الرأسحالي ، وبنى الجيوش القوية الحديثة ، وطبعي أن يمد نفوذه حيث يستطيع ليكسب أسواقاً جديدة .

أجبت: الحكمة ضالة المؤمن ، كما جاء في الحديث ، فعلينا أن نأخذ من الغرب كل إيجابياته الصالحة لنا ، وكذلك من الشرق والشمال والجنوب ، على ألا يكون في ذلك ما يخالف شرعنا .

قال : وهل ينفع أن تأخذ من أي نظام بعضه وتترك بعضه؟

أجبت : إذا كان أصحاب النظام أنفسهم يتقدونه ليطوروه ويقضوا على نقط ضعفه ،

ألا يحق لي أن أفعل مثلهم؟ أقرأ مثلاً الكتاب الذي نشره كلينتون قبيل حملته الانتخابية الأولى ضد بوش «رؤى لغير أمريكا» ضمنه برنامجه الانتخابي ، وكشف عيوب الحكومة - وقد نشرته مؤسسة الأهرام تحت رقم إيداع ٩٨٩٢ - ٩٢ - أقرأ فيه :

حصل واحد في المائة من الأميركيين على ٧٠٪ من إيرادات الدخل (صفحة ١٩) - إن قيم البلاد الفاسدة في الثمانينات لا يجب أن تضلّلنا ثانية (صفحة ٢٢) - واشنطن تحابي شركات التأمين والأدوية (صفحة ٣٣) - يجب أن نزع السلطة من البيروقراطية والمصالح الخاصة التي تهيمن على واشنطن (٣٧) - لم تكن السنوات الائتلاف عشرة الماضية سوى موسم صيد لجماعات الضغط ولتجار النفوذ الجائلين في واشنطن (٣٨) - تستهلك أمريكا التي لا يزيد سكانها على ٥٪ من سكان العالم ، ما يقرب من ٥٠٪ من المخدرات غير القانونية (٨٤) - في كل عام يلقى أكثر من ٢٠٠٠٠ أمريكي حتفهم بالمسدسات (**) (١١٧) - ظلل الجمهوريون في واشنطن اثنى عشر عاماً، احتلت الانتخابات عندهم المرتبة الأولى والشعب المرتبة الأخيرة (١٧٥) - إنني جئت من حيث يسود التطاحن العرقي ، لقد استغلواه [الحكومة] لتقسيم صفوفنا أعواما (٢٠٢) - منذ سنوات قليلة زرت أنا وهيلاري أحد الفصول الدراسية في لوس أنجلوس وتحدىنا إلى عشرة من تلاميذ الصف السادس الذين كان همهم الأول الذي يثير قلقهم هو اختيار إطلاق الرصاص عليهم أثناء الذهاب إلى المدرسة أو العودة إلى البيت ، وأهم الثاني الخوف من إكراههم في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على الانضمام إلى أحد العصابات ، أو التعرض للضرب ، أما همهم الأخير فهو إدمان آبائهم للمخدرات (٢٠٩) - لقد بدأ الملايين من الناس يفقدون إيمانهم بفكرة الديمقراطية ذاتها (***) ، بل وبات يهددهم خطر انيارهم معنوياً لأنهم يشعرون بأن حياتهم ربما لم يعد لها أي معنى (٢١٩ - آل جور) - أقول لكم بكلمات الإنجيل : لا تفقدوا الأمل . فإن هذه الأمة سوف تجدهم نفسها (٢٢٦ - آل جور) - كثيراً ما يأتيني شخص ما يقول : كل ماتقوله يابيل حسن ، ولكنك رجل سياسة ، فلماذا أثق بك؟ (٢٢٩) - إنه [بوش] لن يحيط القبضة الخانقة التي تسيطر بها المصالح الخاصة على انتخاباتنا وتسيطر بها مراكز الضغط على حكومتنا . ولكنني سوف أفعل (٢٣٥) .

قال : ما يخص الحكم والقانون في شرعنا قليل جداً ، وأضعف لهذا الاختلاف في فهمه ،

(*) في أمريكا حوالي مليون سجين ، وأكثر من ذلك تحت الرقابة ، ونسبة المساجين إلى السكان أعلى نسبة في العالم ، وتشاركها إسرائيل في المقدمة .

(**) في الانتخابات الأخيرة ، والسابقة لها ، ذهب للصناديق نصف المسجلين ، وفاز كلينتون بأصوات أقل من ٢٠٪ من تعداد الشعب الأمريكي .

وكل فريق يدعى أنه صاحب الفهم الأفضل والإسلام الأفضل، فبأى إسلام تأخذ؟ ثم ألا ترى في اغتيال ثلاثة من الخلفاء دليلاً على الفشل؟

قلت : من رحمة الله وحكمته أنه شرع لنا قواعد رئيسية أو كليلة قليلة كما تقول ، علينا ألا نخالفها ، وترك لنا مجالاً واسعاً فسيحاً لإعمال الفكر البشري في تفصيل القوانين والأنظمة التي تحقق أكبر قدر من المصلحة ، حسب مقتضيات كل عصر وكل بيئة . أما مسألة الخلاف في الفهم والتفكير، فأكثره في الفروع وليس الأصول ، وعلينا الأخذ في ذلك بآراء العلماء وأصحاب الاختصاص ، ومثل هذا الاختلاف - والذي يعتبره البعض تعددية وتنوعاً وثراء في الفكر - موجود في كل مجالات الفكر الإنساني ، فحتى في الغرب ، تختلف الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين دوله المختلفة ، وداخل نفس الدولة ، تختلف البرامج والأهداف والأفكار من حزب إلى حزب ، بل وداخل الحزب نفسه هناك الاختلافات ، وهناك التغيير والتطوير حسب العصور المختلفة ، ومع القيادة والمفكرين المختلفين . وساندت أمريكا ديمقراطية يلتسن عندما قصف البرلمان بالدبابات . وفي أكثر بلاد العالم هناك المحاكم الدستورية العليا التي تراجع دستورية القوانين ، وترسى القواعد الجديدة والقابلة للتغيير. بل كثيراً ما تختلف الدول في فهمها وتطبيقاتها للاتفاقيات والمعاهدات بينها .

أما اغتيال الخلفاء الثلاثة ، فلو أن أيّاً منهم اهتم بأمنه الشخصي – رغم الظروف التي نشأت فيها الخلافة – وأحاط نفسه بالحراسة البسيطة . وليس بنظم الحراسة المتعددة المعقدة الحديثة والتي ترهق ميزانيات الحكومات ، وترهق الشعوب – ما كان اغتيال . وليس الاغتيال بدليل على فشل الحكم أو انعدام كفاءته وشرعيته ، كما أنه ليست السلامة من الاغتيالات بدليل على عكس ذلك ، وخذ عندك مثلاً بسيطاً ، أشد حكام العالم استبداداً ودكتاتورية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية لم تحدث لهم حالة اغتيال واحدة خلال نصف قرن ، باستثناء شاؤشيسكو في رومانيا ، وعلى النقيض من ذلك ، تعرض حكام أمريكا وحكام ولاياتها وشخصياتها السياسية البارزة لعمليات اغتيال لم تتوقف منذ إبراهام لينكولن – الذي قتلوه حياً واعتدوا على قبره ميتاً – منها على سبيل المثال في عصرنا جون كينيدي ، ثم قاتل كينيدي ، ثم روبرت كينيدي ، ثم ريجان ثم الاعتداء على البيت الأبيض أيام كلينتون .

قال : وما قولك في كبت الرأى والفكر الذي تمتاز به أكثر الدول الإسلامية ، إن لم يكن كلها؟ مع قهر المعارضين وقمعهم؟

قلت : ليس للإسلام دخل بمسائل كبت الرأى والفكر ، فإذا كانت الآية تقول « لا إكراه في الدين » فهل يجرؤ مسلم على فرض رأيه وقهر الآخر وهو يعلم أن رب العالمين

لابريد إجبار أحد على دينه؟ وإذا كان القرآن يصف المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم » ثم يأمر الرسول « وشاورهم في الأمر » تلك الشورى التي فسرها على ابن أبي طالب بأنها مشاورة أهل الفكر واتباع رأيهم ، وإذا كانت كل كتب السيرة تحكى عن النبي صلى الله عليه وسلم كثرة استشارته لأصحابه ونزوله على رأيهم حتى في معمدة الحرب ، سواء كان ذلك في بدر أو أحد أو الخندق ، فهل يعلم مسلم بكل ذلك ، ثم يفرض رأيه ويصادر على الآخرين ؟

وما رأيك أنت في حرية الفكر والرأي في الغرب في حالات سليمان رشدي وتسليمة نسرين ، ثم جارودى الذى يحاكم الآن فى فرنسا لمناقشته رقم ٦ ملايين لضحايا النازى ، ومارلون براندو الممثل العالمى ، والذى انفجر باكيًا ، معترضاً للبيهود - أو مثلاً - بعد تجربة بالقول إن اليهود يسيطرؤن على هوليوود ولا تمهم مشاكل الآخرين . وهل قرأت كتاب « من يجرؤ على الكلام » لبول فندلى ؟

وسوف أهديك قريباً الترجمة العربية لكتاب الصحفى النرويجى أندرس ساندفيج ؛
Silenced & Defamed

قال : كل كلامك نظرى ، وليس فيه مايقنع على الواقع العملى .

أجبت : اقرأ لزجريدة هونكه الألمانية « الله ليس كذلك » ، واقرأ لويل ديوانت الأمريكية في « قصة الحضارة » ماكتبه تحت « عبرية الإسلام » وماكتبه عن الحضارة الإسلامية ، ثم اقرأ مايراه الدكتور مراد هوفمان في كتابه « الإسلام كبديل » ، وهو ألماني حاصل على الدكتوراه في القانون من أمريكا - أى جمع أفضل مافى الغرب - رؤيته المميزة ، وهو قد نشأ كاثوليكياً ، ثم قاده فكره وضميره للإسلام ، وهو خبير في شئون الغرب الثقافية والحضارية ، كما كان خبيراً نورياً في حلف الأطلنطي ، وكما أنه خبير سياسى محنك .

* * *

تلویه :

قد استفدت كثيراً من ترجمة الدكتور غريب محمد غريب للطبعة الأولى ، فحقّ على شكره والثناء عليه ، هو وناشر الطبعة الأولى ، مؤسسة بافاريا في ميونيخ . وألفت نظر القارئ أن ما بين الأقواس المستطيلة ، والهوامش السفلية ذات النجوم هي من عمل العرب .

عادل المعلم

تعریف

فاضت المكتبات بعد الأحداث المأساوية الكثيرة في العالم الإسلامي ، بالكتب عن الإسلام . ولكن يتبيّن من نظرة دقيقة ناقدة أن قلة قليلة من المؤلفين تهدف - أو تحاول - تناول الأساس الروحي للإسلام .

تحاصر القارئ كتب كثيرة تخيفه من الأصولية ، التعصب ، الحرب المقدسة ، سيف الإسلام ، فيخرج في النهاية بتعليقات واستنتاجات اجتماعية - سياسية سطحية .

من المستحيل فهم - ولو بقدر ضئيل - حماس وحركة المسلمين المعاصرین دون فهم معتقداتهم الروحية .

يتناول هذا الكتاب - ومؤلفه ألماني مسلم - المفاهيم الإسلامية الخلافية والمثيرة للجدل في عشرين فصلاً . إنه دعوة على أساس علمي ، مؤيدة بالتاريخ والحاضر ، ونقية حرة من التماس الأعذار .

عندما تنافس العالم الغربي والشيوعية على قيادة العالم ، كان يمكن اعتبار الإسلام نظاماً ثالثاً بينهما ، ولكنه اليوم البديل للنظام الغربي . يتوقع بعض المراقبين بعيدى النظر أن يصبح الإسلام الديانة السائدة في القرن القادم ، إن شاء الله . السبب في هذا يقترحه عنوان الكتاب ، فليس الإسلام بدليلاً من البدائل لنظام ما بعد التصنيع الغربي ، بل هو البديل .

الرباط - رمضان ١٩٩٣

مراد ويلفريد هو فمان

مقدمة

«الناس أعداء ماجهلوا». أحد الأقوال المأثورة عن على بن أبي طالب .

الجهل يولد الخوف والكراهية ، هذا ما يؤكده التاريخ والعلاقات بين الأفراد والأمم . ولا يمكن الاكتفاء بما يبيه المراسلون للصحف والتلفزيون كمصدر في حالة المسألة التي لا يعرف أحد عنها إلا القليل ، فهناك دائما خطر إبراز بعض الجوانب على حساب الأخرى ، حسب اهتمامات المراسل ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى رسم صورة زائفة ، قد تثير الحساسيات الفكرية .

يصدق هذا في موضوع الدين ، والإسلام مثل نموذجي لالتباس وسوء الفهم عند الغربيين الآن .

فكم كان يحلو لرسامي القرن التاسع عشر أن يصورو المسلمين - الذين أطلقوا عليهم خطأً للمحدين - كمحاربين متوجهين لا يتربكون سيفهم وأسلحتهم ، أو غارقين في شهواتهم الجنسية مع حريتهم ، فالليوم ترسم كلمة إسلام في الذهن صورة فقيه ملتح متعصب أو إرهابي عديم الرحمة . وكل ذلك مبني على فهم خاطئ ، في استطاعة من درس الثقافة الإسلامية أو عاش بين المسلمين أن يصححه .

اعتقد مسيحيو القرون الوسطى أن الإسلام ما هو إلا هرطقة وبدعة منشقة عن المسيحية ، وأساس ذلك أسطورة قديمة هي أن محمدا كان كاردينالا ثم ارتد ، وألحق بدينه الجديد الوثنية القديمة . ولذا صوروا له ثاثيل وأيقونات ذهبية ، بل قالوا الأشعار في ذلك . وما كل ذلك إلا تشويه بشع لديانة أساسها التوحيد، أكدت مرارا وتكرارا أن محمدا ما هو إلا بشر اختاره الله ليوحى إليه رسالته فيبلغها للعالمين .

حقق المجتمع الإسلامي نجاحات عديدة أثارت مخاوف الغربيين خشية من تفوق المسلمين السياسي والعسكري :

ففي أقصى الغرب ، عبر المسلمين - سنة ٧١١- مضيق جبل طارق ليؤسسوا حضارة

الأندلس الراهنة ، وفي الوقت نفسه امتدت إمبراطوريتهم شرقاً إلى ترانسوكسانيا ووسط آسيا ، ثم جنوبها ، إلى جنوب سهل الإنديوس [الهند وباكستان] .

أصبحت الأندلس جسراً بين أوروبا والعالم الإسلامي ، وتشهد حتى الآن - وفرة من الكلمات العربية في مجالات العلم والثقافة المختلفة على نفوذ الحضارة الإسلامية ، التي عاش تحت ظلها المسلمين والمسيحيون واليهود جنباً لجنب في انسجام وتوافق وعطاء متبادل ، لم نر له مثيلاً .

وفي إسبانيا جرت أول محاولة لترجمة القرآن إلى اللاتينية سنة ١١٤٣ م ، وظلت لعدة قرون مرجعًا للغرب ، حتى إنها طبعت في بازل عام ١٥٤٣ م بناءً على اقتراح مارتن لوثر . تعددت ترجمات القرآن ، وصاحبها دائمًا اعتذار ، فالقرآن الموحى به إلى محمد من ٦١٠ م إلى ٦٣٢ م في مكة والمدينة به صعوبات لا تُعد ولا تحصى أمام مترجميه . فالقرآن عند المسلم ، هو كلمة الله موحاة بلسان عربي مبين ، وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحي ، فمن ذا الذي يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأى لغة أخرى؟ لطف الكلمات العربية ودقتها ورفقتها وأنقامها يجعل من الصعوبة بمكان ترجمتها . لا تستطيع ترجمة أن تحافظ على روح وشكل النص العربي ، وهذا يقود لصعوبات في تفسير المعنى . ولا يسهل على القارئ غير العربي أن يجد طريقه بهذا لفهم القرآن ، بل هناك الخطر الوارد في عدم الإلمام بالسياق الكامل للنص ، وفصل أجزائه ، ثم تعسر الفهم ، أو الأسوأ من ذلك الفهم الخاطئ . ونادرًا ما يعي غير المسلم كيف طبع القرآن آداب المسلمين وفنونهم الثقافية من بلاغة وخط وزخرفة وترتيب ، سواء كانوا يتكلمون العربية أو الفارسية أو التركية أو الأوردو . ومن الإشارات العلمية في القرآن بحث المسلمين في علوم الفلك والطبيعة والطب وغيرها .

عند المسلم ، القرآن هو كلمة الله في صورة كتاب ، كما عند المسيحي ، المسيح هو كلمة الله في صورة بشر . ومحمد هو الرسول الذي بلغ كلمة الله للعالم ، ومثلاً أسى فهم القرآن لعدة قرون ، أسى تقدير محمد . يمثل محمد للمسلم الأسوأ الحسنة في كل أمور الدنيا والآخرة ، وهو الرسول والمعلم الذي لم ينسحب من الدنيا لحساب الآخرة . (*) فزواجه النساء لم يقبله الغربيون - وخاصة نساك

(*) قال محمد ﷺ إذا قامت القيمة وفي يد أحدكم فسلة فليزرعها إن استطاع .
وقال أحد تلاميذه المخلصين - عبد الله بن عمر - أعمل لدنياك لأنك تعيش أبداً وإن عمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

الكنيسة في العصور الوسطى (**)، - كذلك لم يقبلوا تأسيسه لدولة المدينة (**). بينما عند المسلمين ، جمع الدنيا بالأخرة هو برهان نجاح محمد في رسالته وقيادته المسلمين ، ومن هنا يثار الجدل اللانهائي حول طبيعة الدولة الإسلامية .

كما توالى منذ قرون تفسيرات وتأويلات القرآن بواسطه العلماء والمتصوفة ، يتوالى نسج الأساطير حول محمد . فالرجل الذى أكد مرارا وتكرارا أنه بشر ، أصبح عند بعض المتصوفة نورا مضيئا ، وأول خلق الله ، بل القصد الحقيقى من خلق الكون . بينما أصبح عند بعض العلماء المعاصرين مصلحا اجتماعيا مثاليا .

امتد الإسلام تاريخيا وجغرافيا ، صاحب ذلك اختلافات في فهم المسلمين ومارساتهم له ، فلن تدهش أحدا تلك الاختلافات في أربعة عشر قرنا ، وخلال بيئات وثقافات مختلفة على امتداد شاسع من المغرب والجزائر غرب إفريقيا إلى ماليزيا وإندونيسيا شرق آسيا ومن تركيا في الشمال إلى جنوب إفريقيا .

ومثل هذه الاختلافات موجودة في المسيحية ، من الأيقونات الملونة عند الأرثوذكس اليونانيين إلى كنيسة الله عند الكلفانيين ، ومن الكاثوليكية الإيرلندية إلى الكنيسة المشودية المتشددة .

ولكن تلك الألوان المختلفة للإسلام لا تتعدى الفروع ، فالالأصل والأساس الإيمانى واحد : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ليس له شركاء ، من الأزل إلى الأبد ، بل هو خالق الأزل والأبد . وأكبر خطيئة في الإسلام هي الإشراك بالله (***) والجزء الثاني من الأساس الإيمانى في الشهادة : محمد رسول الله . مما جاء به محمد هو من الله .

يجب أن نجعل تلك الحقائق البسيطة نصب أعيننا ، ولا ننسى أن الإسلام - والكلمة والدين يعنيان التسليم لله . يضع الله وكلمه مركزا لكل شئون الحياة .

(*) قبل أن تعرف الكنيسة بالشذوذ وتعقد زواج الشواذ ، ويعلن بعض آباء الكنيسة على العلن ممارساتهم له .

(**) يعتبر اليهود والمسيحيون الملتزمون داود الرجل الكامل والنبي الكامل في تاريخ البشرية . خاض داود حروبا كثيرة ، منها ما كان ضد أحد أبنائه ، بل جاء في العهد القديم أن ملك الفلسطينيين رفض تصرع داود أن يحارب في صفوفه ضد اليهود . سفر صموئيل الأول ، الأصحاح ٢٩ الآية الثامنة .
ولا خلاف أنه كان له من النساء أضعاف أضعاف ما كان لمحمد .

(***) « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (النساء : ٤٨ ، ١١٦) .

ينشأ كثير من سوء الفهم بسبب ميلنا إلى تقييم كل شيء من منظور قيمنا ومثالياتنا وموازيتنا في الغرب ، وفي أواخر القرن العشرين . بل هنا في الواقع المنشأ الحقيقي لسوء الفهم .

هل يمكن أن تعتبر مقاييس مجتمع ملحد - بدرجة كبيرة - مقاييس مطلقة ؟

لورأى جيل أجدادنا ما نفعل اليوم لصدمته أمور كثيرة ، تعتبرها نحن من أمور الحياة اليومية الطبيعية . فعلى سبيل المثال ، هل نذهب إلى الكنيسة مغطاة شعورنا كما كنا نفعل من قبل ؟ .

فتحطية الشعر تقليد قديم . اعتادت المجتمعات اليهودية القدية تغطية الشعر . وما زالت اليهودية الملزمة تغطي شعرها ، وما زال اليهودي الملزم طالبا أو أستاذًا يذهب لحضوراته في جامعة هارفارد وعلى رأسه الطاقية التقليدية . لماذا إذا لا نقبل أن تغطي التركيبة المسلمة شعرها ؟ (*) ومع ذلك ، فالإسلام يطلب من المرأة أن تغطي شعرها عند الصلاة أو قراءة القرآن فقط (**) والرجال والنساء متساوون في الحقوق والواجبات .

« الناس أعداء ما جهلو » ، فإذا تبعنا أصل الثقافات المغایرة لنا لا تصبح لنا الكثير . « الحرب المقدسة » هذا المصطلح إنما هو مسيحي النساء ، فشا أيام الحروب الصليبية . أما المصطلح الإسلامي ، الجهاد ، فهو يعني بذل أقصى الجهد في التقرب لله . قد يكون ذلك بجهاد النفس ضد الشهوات ، وقد يكون بالدفاع عن العقيدة أو محاولة نشرها .

يمكننا إعداد قائمة بالمبادئ والمفاهيم الإسلامية التي أسيء فهمها . ونشكر ألمانيا مسلما خبير القانون والفلسفة ، وقدم للقارئ رؤيته الخاصة .

تشبه رؤية دكتور هوفمان للمقاصد الرئيسية للإسلام السنى تعاليم « فضل الرحمن » العالم الباكستاني الراحل ، والذي أزعجه الدوائر المتشددة في باكستان .

(*) في حي يهودي بالقدس Meah Shearim ، لاقتة تطلب من السائحين احترام التقاليد اليهودية وتغطية الشعر والذراعين والساقين .

وكل رسومات مريم العدراء ، سواء كانت بواسطة فنانين شرقيين أو غربيين تظهرها محجبة ، وما زالت الراهبات المسيحيات حتى اليوم يغطين شعورهن .

وترى في الكنيست الإسرائيلي . والذي لم يخل من أعضاء من الأحزاب الدينية . من يطلق لحيته ويرتدى الطاقية أو القبعة التقليدية ، كذلك تجد أمثل هؤلاء في الحرس الخاص لرئيس الوزراء الإسرائيلي ، ويتنقل العالم ذلك بدون إثارة اعترافات ولا مشاكل .

(**) جاء في الحديث المرسل عن أبي داود : إذا بلغت المرأة المحيض فلا يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه .

ويشارك د . هو قمان الفيلسوف والشاعر الباكستاني الراحل محمد إقبال في دعوته لتجديد فهم الإسلام . ويؤكد أن القرآن إشعاع متجدد لا يخبو ولا يضعف ، يستخدمه البشر بما يشري حياتهم ويفجر طاقاتهم ويوجهها - بكل ما يملكون من موهب وملكات - نحو الخير المطلق .

يرفضن د . هو قمان جبرية الاستسلام ، ويبرىء الإسلام منها (**)

أما الصاق الإرهاب والأصولية بالإسلام في الوقت الحاضر ، فهو مأساة . والأصولية ما هي إلا مصطلح من التاريخ الديني في أمريكا . ثم هل نلخص الإرهاب بال المسيحية كلما سمعنا بحادث دموي في أوروبا أو أمريكا ؟ (***)

ويبدو لي أن حصار الأتراك لفينا عام ١٥٢٩ ثم عام ١٦٨٣ ترك خوفا لا ينسى عند الأوروبيين ، وبصمات على دين العرب والأتراك والفرس والباكستانيين والملاويين . حتى المثقفين يعلمون قليلا عن كنوز الحضارة الإسلامية في الأدب والفنون ، ونادر من يعلم أن قصر الحمراء في الأندلس وتابع محل في الهند من أعمال الممهندسين المسلمين . وكم من الناس يعلم كيف يجعل المسلمون عيسى وأمه مريم ؟ فعيسي عند المسلمين آخر رسول الله قبل محمد ، دعا إلى حب الله والزهد في الدنيا ، ولم يُصلب ولكن رفعه الله .

سيجد القارئ في هذا الكتاب تفسيرات جديدة ، وقد يذهله المؤلف . أو حتى يصدمه - بأفكار مستمدة من الأساس الصحيح للإسلام .

سيجد القارئ الإسلام - الذي كان يعتقد أنه بقايا وحطام بالية من العصور الوسطى

(**) الصق الغرب في القرون الماضية جبرية الاستسلام بالإسلام ، وزعم على ذلك أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين . ثم انقلبت التهمة إلى عكسها في النصف الثاني من القرن العشرين من جبرية الاستسلام إلى تهمة العنف والثورية والدموية في الإسلام .

(***) بل إننا لم نسمع عن أصولية أو إرهاب أرثوذكسي أو كاثوليكي برغم مذابح الصراب والكرهات للMuslimين في البوسنة ، ولم نسمع أيضا بذلك عند مجده الصدام بين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا . ولم نسمع أبداً من الكلمتين مطلاقاً عن الجماعات اليمنية في أمريكا برغم حرواثتها ، ولم يحظ الانفجار الهائل لمبني أو كلاهوما عام ١٩٩٥ بقتاله المقاربين للملائكة باهتمام الإعلام الأمريكي نفسه وليس الإعلام العالمي ، ولو حتى بوحد من الآلاف من الاهتمام بانفجار مبني التجارة العالمي الذي قتل فيه أربعين ، واتهم فيه الإرهابيون المسلمين . وغنى عن القول إننا لم نسمع بالإرهاب ولا الأصولية اليهودية رغم مذابحهم للفلسطينيين . قدماً وحديداً . ومصادراتهم للأراضي والأملاك الفلسطينية ، حتى حولوا الفلسطينيين إلى لاجئين خارج وطنهم ، وعمال يومية داخل وطنهم .

التي عفا عليها الزمن - دينا حيا أنضر ما تكون الحياة ، ونأمل بذلك أن يزداد تقديرا
وفهما له .

وختاما ، لا ننسى بيت الشعر المشهور لجوطه
إذا كان الإسلام هو التسليم لله
فإننا كلنا حيَا ونمُوت في الإسلام

أنا ماريا شمل

أدفنت ، ١٩٩١ ،

الفصل الأول

الإسلام والغرب

بعث رسول الإسلام في السنة السادسة من الهجرة - بعد صلح الحديبية - رسائل إلى حكام الدول المجاورة^(١) ، النجاشي في الحبشة ، كسرى فارس (٥٩٠م-٦٢٨م) ، هرقل الروم الشرقيين (٦٤١م-٦١٠م) [كذلك المقوس في مصر ، المنذر بن ساري في البحرين ، هوزة بن على في اليمامة ، الحارث بن أبي شمر في دمشق ، جيفر بن الجلندي في عمان] .

أرسل إليهم محمد يدعوهم في وضوح وصراحة للدخول في الإسلام ، فذلك خير لهم ولرعاياهم .

بدأت العلاقة بين الإسلام والغرب بتلك الرسالة من محمد إلى هرقل . تلك العلاقة التي لم تقطع ولم تتوطد طوال أربعة عشر قرنا ، برغم بعض الإيجابيات في العلاقات الاقتصادية والفكرية . فعالם الغرب وعالمن الشرق كانوا في حالة مواجهة وعداء أكثر من تكامل وانسجام ، كل منهما يتوجس خطر الآخر ولا يفهمه ، مع ذاكرة خازنة واعية .

يكشف تاريخ التوسيع الإسلامي - خاصة مساحته وسرعته - الكثير . وبعد وفاة محمد (٦٣٢م) بفترة قصيرة ، شمل الإسلام الشام وفلسطين (٦٣٤م-٦٣٥م) ، فارس (٦٣٧م) ، مصر (٦٤٣م-٦٤٩م) ، أرمينيا (٦٥٢م) ، قبرص (٦٥٣م) ، المغرب (من ٦٧٠م) ، بل وحتى إسبانيا من (٧١١م) . [كذلك دخل الإسلام بعض المناطق في الصين قبل نهاية القرن الهجري الأول (٧١٥م) ، وقد رأيت في ألمانيا على بعد ٢٠ كم من ميونيخ قصراً مبنياً على الطراز العربي ، وعلى مدخله شاهدان باللغة العربية عليهما اسماء رجل مسلم وابنته وتاريخ وفاتهما كمسلمين في مطلع القرن الهجري الثالث] .

وضرب المسلمون حصارهم الأول على القسطنطينية (٦٧٢م) وكان في مقدمة الصفوف الصحابي المشهور أبو أيوب الأنصاري - الذي استضاف محمداً في بيته أول قدومه المدينة - وعلى أبواب القسطنطينية دفن .

على ضوء هذه الفتوحات الناجحة ، تشبت الغرب بدعوى انتشار الإسلام بالسيف . فإن كان صحيحاً من الوجهة العسكرية أنه لم تستطع أي قوات أن تصمد أمام

حماسة المسلمين ، فإنه أيضاً صحيحاً بنفس الدرجة أنه لم يكن بوسع تلك القوات قليلة العدد أن تسيطر على تلك المساحات الشاسعة مالم يرض بها الأهالي وينضموا تحت لوائها .

وهناك بالقطع تفسير صحيح لا يستسيغه الغرب : فضل كثير من المسيحيين في الشرق والغرب الإسلام على عقيدة التثليث أو الطبيعة الإلهية ليعيسى^(٢) . وقد امتد الإسلام بعد ذلك - وما زال يمتد - في إفريقيا بدون السيف^(*) .

كما صنعت الفتوحات الإسلامية التاريخ ، نهضت الحضارة الإسلامية بالعلوم والأداب والفنون نهضة شاملة ، من رياضة وطبيعة وكيمياء وطب وصيدلة ، وعلوم الزراعة والمجتمع والتاريخ ، والفلسفة . لقد اكتسحت الحضارة الإسلامية حضارة الغرب من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر . ويكتفي أن نذكر في هذا الصدد أمثال الرازى والبىرونى وابن رشد وابن سينا وابن خلدون وابن بطوطة والخوارزمى^(٣) .

توقف الزحف الإسلامي على أوروبا من الأندلس غرباً في فرنسا عام ٧٣٣ م . وبدأت الحروب الصليبية في القرن الحادى عشر وحتى الثالث عشر . وبدأت محاولات أوروبا استرجاع إسبانيا والبرتغال .

وفي عام ١٢٠٤ م ، عانى المسيحيون في القسطنطينية أشد المعاناة على يد الغزاة . لم يكن ذلك على يد المسلمين ، ولكن على يد الغزاة المسيحيين اللاتين ، الذين نهبوا وسلبوا واغتصبوا^(**) .

(*) امتد الإسلام إلى شرق آسيا ، ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا والفلبين ، بواسطة التجار المسلمين ، لم يصل لتلك المناطق جندي مسلم واحد ، وعدد المسلمين من الجنس الملاوى أكثر من ٢٠٠ مليون مسلم ، أي يقارب عدد المسلمين العرب . وقد احتل الهولنديون والإسبان والبرتغاليون والإنجليز كثيراً من تلك المناطق لعدة قرون ، وصاحب جنودهم بعثتهم التبشيرية ، ولم يأت ذلك بتبيّنة تذكر أمام اعتناق الأهالي الإسلام .

واليوم ، يتشرّد الإسلام في أوروبا وأمريكا ، وترى شعوباً إسلامية تُسحق - مثلما في البوسنة والهرسك والشيشان وكشمير - بسبب تمسكها بدينها . أما آن الأوان لتلك الدعوى أن تنتهي ؟ ألم يقرأ من يروج لها ما جاء في القرآن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة - ٢٥٦) ﴿مَنْ شَاءَ فَلْيَأْمُرْ مِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكُفِرْ﴾ (الكهف - ٢٩) .

(**) أقرأ ما كتبه «ويل ديوانت» - وهو مؤرخ وفيلسوف أمريكي كاثوليكي - في موسوعته «قصة الحضارة» الجزء ١٥ ، مافعلته الحملة الصليبية الرابعة في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية .

ثم جاء الدور على الغرب ثانياً ليخشى المسلمين عندما بسط العثمانيون يدهم على القسطنطينية (١٤٥٣ م) ، وأرسلوا قواتهم تحاصر فيينا مرتين (١٥٢٩ م ، ١٦٨٣ م) .

منذ بداية القرن الثامن عشر ، بدا وكأنه ظهرت نهاية ذلك الصراع الملحمي . فمنذ ذلك الوقت وحتى اليوم المجرف كل من العالمين في تيار مختلف . سلك الغرب طريقاً علمياً وتكنولوجياً هائلاً ، أعطاه تفوقاً كاسحاً في الاقتصاد والقوة العسكرية ، مما رأه البعض دليلاً على تفوق الحضارة المسيحية . وفي الوقت نفسه سادت العالم الإسلامي حالة من العجز والركود ، جعلته لقمة سائحة لقوى الاستعمار الغربي . وسددأت أوتوك عام ١٩٢٤ م الضربة القاضية للإسلام بإلغاء الخلافة .

ومنذ متتصف القرن الحالي ، بدت الحضارة الغربية النموذج المثالى الذى على الجميع احتذاؤه ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فلا ثقافات ولا حضارات أخرى . يرتدى الناس الجينز ويأكلون الهمبورجر ويشربون الكوكا كولا ، يدخلون المارلبورو ويتحدثون الإنجليزية ، يشاهدون الـ CNN ، ويسكنون نفس البيوت .

بل ومن الجائز أن يكونوا من المرشحين لعضوية إحدى الكنائس المسيحية بطريقة أو أخرى .

ما زال البحث جارياً عن أسباب تدهور العالم الإسلامي ، ^(٤) وفي رأى ، هناك ثلاثة أسباب رئيسية مشاركة :

* ضرب العالم المسيحي والمغول عصب الحياة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي ، في قرطبة ١٢٣٦ م ، وفي بغداد ١٢٥٨ م . وحتى اليوم لم تسترد الحياة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي عافيتها من هذه الكارثة .

* وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، سادت بين العامة فكرة وصول الفقه الإسلامي إلى منتهائه ، كل المسائل تم بحثها وحلها ، والأجيال السابقة أكثر قرباً للمصدر وأكثر فهماً . وسادت بذلك مدرسة التقليد ، وبصفة عامة ساد جمود لا إسلامي .

* وأخر وأهم سبب ، ليس من العالم الإسلامي ولكن من العالم الغربي ، فلا يمكن إنكار أن تلك الطفرة المادية الهائلة في العالم الغربي منذ القرن التاسع عشر- عديم الإله- ^(٥) استلزمت تراجعاً في الإيمان المسيحي .

ففي الواقع ، أصبحت الدنيا محور الحياة عديمة الإله ، وظهر فيورباخ وماركس وداروين ونيتشه وفرويد ، رسول اللادنية ، إن لم يكن الإلحاد . وساد المذهب الكمى الذي لا يعترف إلا بما يمكنه قياسه بالحواس ، بينما أصبح الإيمان بـ الله ، مجرد احتمال

يمكن التسامح في قبوله طبقاً لسوينبرن^(٦) . ولكن لا يجوز التفكير أو الاقتراب من القضايا الفكرية العليا ، ويعزى الفضل في ذلك لأعمال مثل «سحر خضوع الموت» (ف . فرويند) ، إن كان في ذلك فضل .

عبد الناس في القرن العشرين - قرن العلم والتكنولوجيا - أصناماً جديدة : القوة ، المال ، الجمال ، الشعبية ، الجنس . ومع التسليم بأن ذلك العلم لا يقدم إجابة للتساؤل عن معنى الحياة ، أو بدايتها و نهايتها ، فلتكن الإجابة عن تلك الأسئلة ياغفالها أو الانشغال عنها^(٧) .

أدى تخلٍّ الإنسان عن فطرة التسامي إلى وقوعه ضحية طمع اللذات الحسية ، والتي أصبحت المقياس الوحيد ، وانتظر من التقدم العلمي أن يقيم له جنة المستهلك على الأرض^(٨) . وهكذا قاد المجتمع الصناعي - الذي كل همه : معدل النمو ، الكفاءة ، الحصول على أقصى ربح وبأقل تكاليف - إلى نهم استهلاكي لا يشبع ولا يقنع .

وصف الفريد مولر أرماك ذلك في كتابه « الدين والاقتصاد » - ١٩٥٩ في كلمات قليلة :

أنكر الإنسان الله ، فاضطر أن يصنع آلهة أخرى يعبدوها ، وكان ذلك ثمن إنكار الإله الحق .. وعند إنكار الإله الحق ، فقد الجوهر ، وما تاريخ الانحراف عن الحق إلا تاريخ قوى الشر المدمرة التي تجلب الكوارث . ولا يكمل تاريخ الإيمان إلا ذكر تاريخ عدم الإيمان .

ماذا يستطيعه الإسلام - أو غيره من الأديان - إزاء من طفت عليهم المادة واعتنيقاً مذهب عبادة اللذة ؟ ولهذا فمن يسأل : ماذا أصاب الإسلام ؟ نجيبه ساخرين : إن الذي أصاب الإسلام هو ما أصاب الغرب !^(٩) .

وفي ستينات وسبعينات هذا القرن ، على عكس ما يتوقع المرء ، مركل من العالم الغربي والعالم الإسلامي بنقطة تحول كبيرة . فالإسلام المحطم بالأزمات لم يدخل القبر ، وإنما أفعى حيوية بدرجة أرعبت الغرب منه . ومن الناحية الأخرى بدأت الأزمات تجوم حول العالم الغربي .

بدا هذا وكأنه شيء غير متوقع ، ولكنه أصبح اليوم أمراً مفروغاً منه .

لاحظ علماء الاجتماع - مثل دانييل بل - أن النجاح الاقتصادي للرأسمالية العالمية ،

يقوض الأساس الأخلاقي للرأسمالية الذي استمدّه ماكس فيبر من البروتستانتية . تنكشف هذه الآلية للتدمير الذاتي عندما نلاحظ في مجتمعات الرأسمالية أن فضائل مثل الاجتهاد ، الاقتصاد في المعيشة ، الصبر ، الأخوة ، الشجاعة ، انقلبت إلى نقائض وعيوب لا يمكن العيش بها في المجتمع الصناعي (١٠) .

وهكذا انحرفت الفردية إلى نرجسية ، والأخوة إلى الاجتماع على الخفّلات الموسيقية الصاخبة ، واستقلال الشخصية إلى فوضى أخلاقية (كما في شعار رحمي ملكي) التحرر إلى فسق ، التسامح إلى استواء الخير والشر ، التنافس إلى جنون الاستهلاك ، العشق إلى رياضة جنسية ، المرونة إلى كراهية التقاليد . وباختصار ، كما قال مارسيل بوسو في ١٩٨٤ مثل تلك الانحرافات لافكار منها عندما يُساء فهم العقل والحرية والحب (١١) .

يشوب الدول الصناعية الآن نوع من الخلل ، تجسده الجماعات الرافضة للمجتمع ، والتي تبحث عن بدائل للنظام الذي أعطاهم المادة والحرية ذات الطبيعة الخاصة .

فهي تفتقد الأمان ، تؤرقها التكنولوجيا المفرطة وقلق المستهلك وتاليه العقل سواء في الاقتصاد أو الردع النووي .

يبين هذا الرفض أن تخلي الإنسان عن نزعة التسامي المفترض عليها ، يسلمه إلى مصيدة سفلية لأنهاية من المطالب والتطلعات ، يلهث وراءها ولا يشبع ولا يقنع . انظر إلى ضحايا المجتمع الصناعي اللاأخلاقي ، عندهم كل شيء ، ذات مستقلة ، تأمين مادي من المهد إلى اللحد ، جنس بلا قيود ، مخدرات جاهزة تحت الطلب ، أوقات فراغ طويلة ، وكل حقوق يمكن تخيلها ، ولكن ما يحسونه فراغ جاثم ، يتطلعون إلى دفء المجتمع ، وحكيم يتبعونه ، وأهم من كل هذا البحث الهام عن المعنى .

تلك هي الخلفية وراء العودة إلى الدين من خلال طوائف عديدة تقوم على تأملات ذاتية وغير موضوعية (روزماري شتاين) ، مما جعل الكنيسة تعيد استثمار جاذبيتها الصوفية . قد تسلك هذه العودة مسارات غريبة ، ولكنها إن عاجلاً أو آجلاً - في بحثها عن البديل الحق - ستلتقي بالإسلام الصاعد بمحمه .

بدأ بirth الإسلام في هذا القرن بحركات التحرر التي أدت إلى الاستقلال السياسي ، وكانت الجزائر آخر الدول الإسلامية حصولاً على الاستقلال (١٩٦٢) ، باستثناء فلسطين .

في البداية ، فكرت تلك الدول الناشئة وأبطالها - محمد على جناح ، جمال عبد الناصر ، أحمد بن بلة ، هواري بومدين - أن تختذل النموذج الغربي : الليبرالية ، القومية ، الاشتراكية ، بل وحتى الشيوعية من النموذج الشرقي . لم يكن للإسلام دور رئيسي ، فالقومية العربية في مهدها لم تكن دينية ، كما لم تكن الصهيونية في مهدها دينية . بل إن جبهة التحرير الجزائرية والدستور الجديد التونسي كانا علمانيين . تشابه هذا الاقتداء بالغرب بما فعله أتاتورك في تركيا ، وأفكار المسلمين المستغرين مثل محمد أركون في فرنسا وسام طيبى في ألمانيا .

فشل كل تلك التجارب لأسباب عديدة : عدم القدرة على زيادة معدل النمو الاقتصادي عن معدل زيادة عدد السكان ، قلة الصادرات ، هروب رؤوس الأموال ، الوساطة والمحاباة في الأعمال والوظائف العامة ، الفساد ، الديون ، هجرة الرؤوس المفكرة . ولم تصلح حتى المجهودات الجماعية من خلال جامعة الدول العربية (١٩٤٤) ، منظمة الدول الإسلامية (١٩٦٩) ، منظمة التعاون الخليجي (١٩٨١) ، والاتحاد المغاربي (١٩٨٩).

في مقابل ذلك ، ظهرت الاتجاهات الإسلامية في بداية السبعينيات ، وبدأ فوراً تحليلها بلا هواة ، حيث وصفت بالأصولية والتعصب السلفي ، وسيأتي فيما بعد فصلان عن ذلك (١٢) .

تصور البعض - وأمل - أن تلك الاتجاهات الإسلامية ما هي إلا حركة احتجاج جماعية ، دالة على التخلف التكنولوجي .

ثبت بوضوح أن ذلك التحليل ينقصه تقدير العامل الديني ، وفهم شعوب تأخذ دينها مأخذ الجد ، حتى لو كانت من شعوب العالم الثالث .

وضَّحَّ بسام طيبى أن مصطلح « العودة للإسلام » ينطوى على مقدمة زائفة ، لأنَّه باستثناء - بعض المثقفين المستغرين - لم يفقد الإسلام مرجعيته كعقيدة ونظام حياة - حتى في تركيا - وإن غطى ذلك قشرة رقيقة من الحداثة . (أرنولد هوتنجر).

أصبح من المسلم بهاليوم أن عودة الإسلام تعنى عودة المقدس [الله وما أوحى به إلى محمد] في شئون الحياة العامة . (شدد جيل كيبل على ذلك في كتابه «انتقام الله») . يعني هذا رفضاً أساسياً للحداثة الأوروبية ، وتقليل مشروع بديل . حيث ترى وجهة النظر الإسلامية أن التخلُّ عن الله يحط من شأن الإنسان . (وعلى هذا ، يعود العالم - بعد انتهاء الشيوعية - إلى عالم ثنائي القطبية من ناحية الفكر) .

ينسجم هذا التفكير مع حال المسلمين المحبطين في العالم الثالث ، ويقترح عليهم طریقاً کریماً للنهضة بالرجوع إلى أصول دینهم ، ويعیداً عن محاولة تقلید الغرب أو منافسته في عالمه المادی الاستهلاکی - تلك المنافسة التي ليس لهم أی فرصة للفوز فيها - وشجع على ذلك سلسلة الإهانات التي لا تنتهي التي ذاقها العالم العربي في فلسطین على يد الغرب .

بالطبع هناك بعض القوى التي تستغل الإسلام لتحقيق أهداف سياسية ، فخلال حرب الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) تصرف البعض بطريقة أضرت الإسلام أكثر من أى شيء آخر خلال هذا القرن (ولفجانيج جونترليرش)^(١٣) .

مرة أخرى - كما تكرر كثيراً في التاريخ - واجه الشرق والغرب شبح التدمير . خشي المسلمون في أوروبا وأمريكا على أنفسهم ، وخشي الغربيون في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على أنفسهم ، ويداً كما لو كنا في انتظار حملات صليبية جديدة من الطرفين ، وتوقف الحوار المسيحي - الإسلامي ، بل صور الغرب الإسلام شيطاناً أسوأ مما سبق ^(١٤) .

من هذا التاريخ المحزن - على مدار أربعة عشر قرناً - لعلاقة الإسلام بالغرب ، يمكن لنا أن نعي - خاصة في عصر أسلحة الدمار الشامل - وجوب تقابل الطرفين بشيء من التسامح ، ويسهل ذلك فهمُ أفضل من كل طرف للآخر . يحاول هذا الكتاب إزالة الحاجز الثقافية في سبيل ذلك الفهم المتبادل .

هوامش الفصل الأول

- (١) سيرة ابن هشام - صحيح البخارى الحديث السابع - كتاب بده الوحي ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر - كتاب المغازي .
- (٢) لم ير بمحاشى الحبشه اختلافاً بينه وبين وقد المسلمين عندما تناقشوا حول عيسى - سيرة ابن هشام .
- (٣) انظر كتاب « زجريد هونكه » - شمس العرب تستطع على الغرب ، طبع عدة مرات بالألمانية والعربية ، كذلك كتابها « الله ليس كذلك » ، و«تراث الإسلام» جزءان ، و«مقدمة للإسلام» لمحمد حميد الله ، خمس طبعات بالإنجليزية .
- (٤) أقرأ له « بيتر فالتر » - لماذا تخلف العالم الإسلامي في Cibedo . فرانكفورت ١٩٨٨ ، العدد السادس صفحة ١٦٦ إلى ١٧٣ .
- (٥) « قرن بلا إله » عنوان كتاب « الفريد مولر » الصادر عن أرماك في ١٩٤٨ .
- (٦) « وجود الله » - ريتشارد سوينترن - أكسفورد ١٩٧٩ .
- (٧) تلك كلمات « هانز أو يسترلي » في جريدة « فرانكفورت الجماينه » ٩ سبتمبر ١٩٨٧ .
- (٨) وصفها بالتفصيل « رينيه جينو » في « أزمة العالم الحديث » ١٩٨١ ، « مملكة الكمية وعلماء العصور » ١٩٨٣ ، « فانس باكارد » « المتألهة الجنسية » ١٩٦٨ ، و«تشارلز أ. راينخ » « جعل أمريكا خضراء » ١٩٧١ ، وغير ذلك .
- (٩) ولذلك ينفعل المسلمون بمرارة عندما يتكلم المستشركون عن إعادة بعث المسلمين ونهضتهم المستقرة على طريق الغرب .
- (١٠) « التناقضيات الثقافية للرأسمالية » لدن ١٩٦٧ للكاتب « دانيال بل » ، انظر أيضاً « ولفجائع سليم فرويند » مقالته ، في المجلة النمساوية للعلوم الاجتماعية ، العدد الثالث صفحة ٤٧ .
- (١١) مقالة « مارسيل بويزوت » المنشورة في الجريدة ٨٤ / ٣ للمعهد الأوروبي للأمن - بروكسل .
- (١٢) أقرأ لبسام طيبى « أزمة الإسلام الحديث » ميونيخ ١٩٨١ ، « فولفجانج سليم فرويند » مناقشة هذا في « الإسلام والغرب » ١٩٨٢ العدد الثالث صفحة ١٢ ، « فرويند » في العدد الثاني من « الشرق » ١٩٨٧ صفحة ٢١٦ ، « الأصولية اليهودية والإسلامية » « ديتلف خالد » في جريدة زيوريخ الجديدة ، ٢٨ إبريل ١٩٨٣ ، « التطور في الإسلام » ، بيتر شول - لاتور ١٩٨٣ . « الله مع الصابرين » شتوتجارت « الحرب في سيل الله » ميونيخ ١٩٨٣ « وليام ديتل » .
- (١٣) جريدة فرانكفورت الجماينه ١٦ / ١٠ ١٩٨٦ صفحة ٩ .
- (١٤) « الله ليس كذلك » طبع بالألمانية وطبعته دار الشروق بالعربية .

الفصل الثاني

الإيمان الكامل

تبرر بعثات التبشير المسيحي انتشار الإسلام السريع في غرب إفريقيا ، السنغال ، الكاميرون ، ساحل العاج ، إلى بساطة تعاليمه وخلوها من الأسرار الغامضة المعقدة . وإذا كان الأمر كذلك ، فسوف نتمكن من وصف الإسلام في فصل واحد .

حتى تكون مسلماً ، عليك أن تؤمن بـ الله مُنْزَهٌ فعال - لأن هذا الكون لا بد له من صانع يقيمه ^(١٥) - وإن الله أوحى لرسله أن يبلغوا البشر رسالتهم ، وختم رسالته بـ محمد . لذلك تشهد قائلًا : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

لا يخوض المسلمون في كنه الله ، بل يتوقفون عند ما جاء به القرآن « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (الإخلاص) « ليس كمثله شيء » (١١ - الشورى) « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » (١٠٣ - الأنعام) فينزعونه ويسبحونه عن كل شبه .

يرى المسلمون أنه لا يمكن للإنسان أن يهتدى من نفسه للطريق الصحيح (أثبت التاريخ والحاضر صحة ذلك) ، فالوحي الإلهي لا غنى عنه لديهم .

كذلك يؤمن المسلمون أن الله بعث هداه للبشر خلال رسول التوحيد مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، وختم بـ محمد « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » (٤٠ - الأحزاب) .

ظلت حاجة البشرية إلى الوحي الإلهي حتى بعد موسى وعيسى ، فمن وجهة النظر الإسلامية ، حرف اليهود والمسيحيون الرسالة الإلهية . ومع تلك الحاجة ، تهيأت البشرية لفهم وحفظ الوحي الجديد ^(١٦) ، ولذلك نزل الوحي في حجة الوداع بعرفة ، يوم الجمعة التاسع من ذى الحجه السنة العاشرة هجرياً (٦٣٢م) ، بالأية الثالثة من سورة المائدة وفيها « .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا .. » ، وتوفي محمد بعدها بواحد أو اثنين وثمانين يوماً .

كلمة مسلم هي اسم الفاعل من « أسلم » ، والمعنى أسلم أمره لله ، وجذر الكلمة

«سلم» تعنى خلا من العيوب والفساد والمرض والضرر . فالمسلم طبقاً للتعریف القرآني ، هو الذى يجد النجاة والفوز في التسلیم الطوعى لله . وعرف يوحنا سوكولوفسکي إس . جيه الإسلام بأنه : التسلیم لله الذى يجلب السلام ، ويهمي « الماء - كلًا واحدًا - للسلامة والصحة في بدن وروحه (١٧) . ولذلك فإن إبراهيم وعيسى ، كذلك بعض الناسك العرب - قبل الإسلام - مسلمون .

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسالته لا يفرق بين أحد من رسالته و قالوا سمعنا وأطعنا فخرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٢٨٥ - البقرة) ، ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله و الكتاب الذي نزل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسالته و اليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ (النساء ١٣٦) .

بيّنت الآيات أساس الإيمان الحق :
* وجود الله .

- * وجود المخلوقات الروحية (الملائكة) .
- * نزول الكتب السماوية .
- * بعث الله الرسل للبشر .
- * البعث بعد الموت ، للحساب والجزاء .
- * القدر (سيأتي في فصل كامل) .

وعلى هذا ، يتبع المسلم الوصايا العشر التي أنزلت على موسى ، والمحبة التي جاء بها عيسى ، وعموماً ما جاء في الشرائع القدية مالم ينسخ القرآن (*). ولما كان الإسلام عقيدة وشريعة ، فقد جعل تصديقاً للإيمان أركاناً رئيسية خمسة (**):

(*) هناك خلاف بين علماء الأصول ، هل شرع من قبلنا - الذي لم ينسخه شرعنـا - واجب الاتـبع ؟ وهو خلاف نظـري إلى حد كبير ، لأنـا نعلم أنـا لا نستطيع الاعتماد على كتبـهم التي أصـابـها التـغيـير والتـبـديل ، ويبقـى من شـرـعـهم ما يـبـينـه القرآن ، وـمـا لـمـ يـنـسـخـهـ القرآن .

(**) هذه هي الأركان ، وليسـ كلـ الإسلام ، والـحدـيـثـ النـبـويـ يـقـولـ «ـ بـنـيـ إـسـلامـ عـلـىـ خـمـسـ»ـ يـعـنـىـ هـذـاـ هـوـ الأـسـاسـ ،ـ فـلـأـذـاـ كـانـ الـبـنـاءـ لـيـقـومـ إـلـاـ عـلـىـ أـسـاسـ ،ـ فـأـيـضـاـ لـيـقـتـصـرـ الـبـنـاءـ عـلـىـ أـسـاسـ ،ـ فـبـدـونـ الـجـدرـانـ وـالـسـقـفـ لـنـ يـكـونـ ذـلـكـ بـنـاءـ ،ـ وـالـجـدرـانـ وـالـسـقـفـ هـمـ باـقـيـةـ مـاـ أـمـرـ بـهـ الشـرـعـ مـنـ أـعـمـالـ .ـ وـنـهـىـ عـنـهـ مـنـ سـوءـ وـمـنـكـرـ .

شهادة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .
 خمس صلوات في اليوم .
 الزكاة .
 صوم رمضان .
 حج البيت من استطاع إليه سبيلا (١٨) .

وإذا كانت الشهادة فقط من بين الأركان الخمسة لا تحتاج لجهود بدنى ، فبقية لأركان الأربع تحتاجه ، فالإسلام عقيدة وشريعة ، أى علم وعمل ، وما أكثر ما تكرر في القرآن «آمنوا وعملوا الصالحات» واقرأ سوره العصر «والعصر إن الإنسان لفی خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» .

ال المسلم عرضة للخطأ وارتكاب الذنوب ، ولا يشير هذا تساؤلا : ألا يزال مسلما ؟
 ولكن إذا قطع صلته بربه فتوقف عن الصلاة أصبح من الصعب التسليم بإسلامه .

القرآن هو مرجع المسلمين . نزلت على محمد مائة وأربع عشرة سورة ، تتكون من ستة آلاف ومائتي وست وثلاثين آية ، في الفترة من ٦١٠ م إلى ٦٣٢ ميلادية (١٣ قبل الهجرة إلى ١٠ هـ) . وعند المسلم ، القرآن هو كلام الله ومعجزة الإسلام ومحمد (١٩) ، فهو ليس كمعظم الكتاب المقدس - بعهديه - من صياغة البشر .

قد ينكر غير المسلم أصالة الوحي القرآني ، ولكن لا يستطيع أن ينكر أصالة النص القرآني وأنه ذاته ماقرأه محمد حرفا بحرف ، حاول المستشرقون عبشا بكل الطرق إنكار ذلك دون جدوى ، ولو اتبعوا تلك الطرق مع الكتاب المقدس لما بقي منه حتى الأشلاء .

قد يرفض غير المسلم محتوى القرآن ، ولكنه لا يستطيع أن يتتجاهل تأثيره الخلاب على قارئه ، لقد فتن البليغ جوته وفريدريش روكيرت (٢٠) . وعند العربي ، لغة القرآن دليل كاف على منشئه الإلهي . وللأسف يغالى بعض المسلمين في تأويل آيات القرآن لاستخراج مختلف أنواع العلوم منها ، تلك التي قد لا تمت بصلة لكتاب العقيدة والشريعة ، مستندين لفهم خاطيء للأية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمة أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (**) .

(*) الكتاب هنا ليس القرآن إنما هو اللوح المحفوظ .

وما وضحه موريس بوکای من أن المعرفة العلمية الحديثة - التي طعن الكتاب المقدس كثيرا - لم تمس القرآن ، بل كشف القرآن منذ أربعة عشر قرنا عن « خلق الإنسان من عرق ». الآية الثانية من سورة العلق ، وبين العلم الحديث كيفية تعلق البوياضة المخصبة بجدار الرحم ، ومثل ذلك من الإشارات العلمية في القرآن (٢١) كل هذا لا يعني الإفراط في تأويل القرآن واعتباره موسوعة علمية .

برغم استحالة ترجمة القرآن دون فقدان بعض المعنى وجمال الأسلوب ، بسبب ثراء اللغة العربية ، فإنه أصبح أكثر الكتب ترجمة وطبعا في العالم (٢٢) ، والكتاب الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب مئات الآلاف من البشر . وعربية القرآن هي التي تجمع العالم الإسلامي الذي يتجاوز الآن بليون نسمة .

حافظ القرآن على اللغة العربية - قواعدها وكلماتها - فجعلها اللغة الوحيدة في العالم التي كتب بها نص منذ ١٤٠٠ عام ، يستطيع مئات الملايين من عامة أهلها قراءته دون الحاجة للتأهل بدراسات خاصة لذلك ، أو لترجمته (*) .

أصبح هذا الكتاب سلاحا معجزا (جريدة الوقت الألمانية) ، وتتصدر قائمة أكثر الكتب مبيعا بعد حرب الخليج (٢٣) .

ليس بالضرورة في كل الحالات أن يكون ارتفاع مبيعات ترجمات القرآن عاملا إيجابيا ، فقد تؤدي قراءة القرآن على أساس غير صحيحة إلى نتائج عكسية ، ولذلك جاءت السنة شارحة ومفصلة للقرآن [فهي له كالمذكرة التفسيرية أو الملاحق الشارحة لإعلانات المبادئ ، أو للاتفاقيات والمعاهدات ، أو القوانين] ، فهي المرجع الثاني للمسلم ، وقد أمر القرآن وأكده وكرر في آيات كثيرة على طاعة محمد ﷺ ، وأنه الأسوة الحسنة .

كثيرا ما تؤدي عدم الإحاطة بالأحداث التي نزلت فيها آيات (أسباب النزول) ، أو عدم الأخذ بكامل السياق القرآني إلى افتقاد الصواب في الفهم . كذلك يتتنوع فهم المفسرين للقرآن حسب مناهجهم ومذاهبهم ، فمن تفسير ظاهري لباطني ، ويشيع لسني ، وصوفي لعملي حركي (٢٤) ، وطبرى القرن التاسع لمحمد أسد القرن العشرين (٢٥) .

غالى البعض في الأمر بطاعة محمد صاحب الشخصية الكاريزمية (٢٦) واتباع سنته ، فرأوا أن يقلدوا كل أفعاله ، حتى ما لم يتعلق بالرسالة من أعمال نتاج البيئة

(*) لا يستطيع عامة المثقفين الإنجليز أو الألمان أو الفرنسيين فهم نصوص كتبها أجدادهم منذ سبعة قرون فقط .

والعصر (مثل ركوب الناقة ، وإطلاق اللحية ، وطريقة تنظيف الأسنان . . . أو تفضيل بعض أنواع الطعام) .

يتضمن هذا الختان وهو غير مذكور في القرآن ، ولكنه عادة ترجع إلى العهد القديم ، تمارسها كل الفرق الإسلامية (*).

يغالى البعض فى تمجيد محمد وتقديسه - خاصة إبان الاحتفال بالمولود النبوى - الأمر الذى لا يخلو تماما من الزلل ، ولنا عبرة فى تاريخ عيسى عند المسيحيين . أكد محمد مرارا

(*) فرق العلماء بين أفعال محمد - ﷺ - التي تختص بالرسالة وغيرها ، فكما ذكر المؤلف ركوب الناقة أو الأكل باليد أو الأكل على الأرض أو طريقة اللباس ، فكل ذلك من نتاج البيئة والمعصر ، ولا يختص بإبلاغ الرسالة ، وإن لم يمنعه القرآن ، ثم قسم العلماء أفعال الرسول وأقواله الخاصة بالرسالة ، وهناك ما هو بمحض ، وهناك ما هو باجتهاد ، فال الأول واجب اتباعه ، لاختلاف فى ذلك ، أما الثاني ، فما فعله محمد صلى الله عليه وسلم بصفته رسولا ، فهو أيضاً واجب الاتباع ، أما ما فعله بصفته رئيس دولة أو قائد جيش أو كبير عائلة ، فهذا أيضاً ينقسم قسمين ، الأول ما يمثل مبادئ عامة أو قواعد كليلة ، وهذه قائمة على أسس شرعية ، فهي واجبة الاتباع ، ثم يبقى ما يمثل قرارات تفصيلية أو تنفيذية طبقاً للأحوال والواقع المحيطة ، فذلك يكن للMuslim الاجتهد فيها ولا يلزمه اتباع ما اجتهد فيه الرسول .

وأمثلة للأخير : (1) فى غزوة بدر ، نزل الرسول بجيشه فى موقع ، فجاءه الحباب بن المنذر يسألة : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أم تأنت لكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى وال الحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى وال الحرب والمكيدة . قال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش .

(2) فاوض رسول الله - ﷺ - غطfan خلال حصار الأحزاب للمدينة على أن يرجعوا لهم ثلث ثمار المدينة ، واستشارة سعد بن معاذ وسعد بن عبدة بن عبادة زعيم الأنصار فرفضا ، فقطع مفاوضاته مع غطfan خلال ذلك الحصار الذى نوت به قريش والعرب استصال محمد والمسلمين !

(3) أرسى الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبدأ «يد الصانع يد أمانة» ويعنى هذا إذا طلب أحد من حرفى أن يصنع شيئاً ، لباساً أو حلباً أو ما شابه ، ثم تلف ذلك الشيء فلا يطالب الصانع بعوض عن أتلفه . ثم جاء على بن أبي طالب - أدرى العالمين بستة محمد معلمها وابن عمها وحميه وأخيه - فقال لا يصلح الناس إلا التعلويف .

(4) حررت عائشة جاريتها ببريرة ، فأصبح لها أن تخليع زوجها الذى شُغف بحبها ، فوسط محمدـ صلى الله عليه وسلم - لثلاث تفارقـ ، فسألته أم أمرنى يا رسول الله ؟ فأجاب : إنما أنا شافع . فقالت : لا حاجة لي به . وفارقتـ .

أما موضوع اللحية والختان ، فيجرنا إلى مسألة أخرى . قسمت المذاهب أوامر الشرع إلى : فرض - تطوع أو مندوب أو سنة . ونواهى الشرع إلى حرام - مكروه . وأضاف الحنفية الواجب ، وهو بين الفرض والمندوب أو السنة . وأضافوا الحرام تزييها بين الحرام والمكروه .

وقد جاءت أحاديث نبوية تفيد أن إطلاق اللحية والختان من القطرة . وقال بعض العلماء إن إطلاق اللحية من السنة وقال بعضهم ، إنها فرض ، وأكثرهم أن الختان سنة . أما تنظيف الأسنان ونظافة الجسد واللباس ، والنظافة بصفة عامة ، فهي سنة قريبة من الواجب ، وبأى وسيلة مشروعة مناسبة .

وتكرارا أنه بشر [قال : إنما أنا بشر ، وقال للذى هابه مهابة شديدة : إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد] ، كذلك أكد القرآن وكرر « قال إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى آخر الكهف ومع ذلك تجد بعض المغالين يقولون إنه نور ، وإن العالم خلق من ذلك النور ، وإن العالم خلق من أجله ، ونسجوا حوله البدع والأساطير »^(٢٧) .

حتى تفهم الإسلام تماما ، عليك أن تدرس السنة من مجموعة الأحاديث الصحيحة ، ولتصبح مسلما حقيقيا وتقيم الحضارة الإسلامية^(٢٨) . عليك أن تتبع السنة [وأقرأ للقرضاوى كتابه الأخير : السنة مصدر المعرفة والحضارة] ولن يسمح لهذا الكتاب الصغير بتناول السنة بالتفصيل .

يتفق الإسلام والمسيحية في الدعوة لكثير من الفضائل مثل : الإباء ، الأمانة ، التقوى ، الكرم ، وغير ذلك ، ويختلف الاثنان في فروع رئيسية ، منها :

١ - يعيش المسلم بدون كهنوت ولا بناء ديني طبقي (هيراشيه) ، يصلى لله مباشرة ، ويدعو الله مباشرة ، في دين صاف من الأسرار والغواصات . يناسب ذلك إنسان العصر الديمقراطي أكثر من أسلوبى الكنيستين البيزنطية والكاثوليكية القائمين على الوساطة .

٢ - يحرم الإسلام أكل الخنزير والمسكرات والمخدرات بجميع أنواعها ، مما يحافظ على الصحة العامة ، ولا يُسقط المسئولية عنمن يرتكب خطأ في حالة سكر أو تخدير تحت دعوى أنه مريض نفسيا أو معنويا .

ذلك تحافظ الصلوات الخمس بما فيها من روحانيات الخشوع والتأمل والدعاء على الصحة النفسية للمسلم ، الأمر الذي لا تكفله صلاة الأحد أو الصباح عند المسيحي .

٣ - على التقىض من إدانة القديس بولس للجنس والزواج ، ودعوته للعزوبية - الأمر الذي أدى إلى كثير من الكبت والمعاناة والأثام [والأبناء غير الشرعيين والشذوذ والفضائح بين آباء الكنيسة] - شرع الإسلام الجنس بالأمر بالزواج ، وحرمه تحريراً باتاً خارج الزواج ، فهو يهذب ويصلق ويحمي طبيعة الإنسان ، لا يكتبها ولا يطلق عنانها للإباحية ، ويعرف الإسلام تماما الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة ولا يعمل ضد الطبيعة ، فهو يعلم تماما ما يجلبه ذلك من كوارث .

٤ - لا يقول الإسلام بأن الإنسان ولد ابنا للخطيئة وفي حاجة لمن يحرره منها [بل يقول إن الإنسان خليفة الله على الأرض] ولا يقول بتوارث الخطيئة ، ويُجلب الناس

على الاعتقاد بإثتمهم الأزلى الذي يستحقون عليه اللوم الجماعي ، الأمر الذي له تأثيره السلبي كما علمنا علم الاجتماع .

وفي المقابل ، يأمر الإسلام بوسائله الذهبية (مثل الصيام والصلوة اليومية ، والزكاة والحج) على تهذيب النفس الإنسانية وصقلها وصهرها في محبة الله ومحبة الناس .

٥ - لا ينحصر منهاج المسلم في عالم العمل والتجارة والاقتصاد في أهداف تحقيق أعلى ربح وأقل تكلفة [وتكديس رأس المال] ، بل له أهدافه الاجتماعية مما يجعله تصحيحاً لمنهاج المجتمع الصناعي .

٦ - أخيراً ، وطبقاً للسورة التاسعة بعد المائة من القرآن - والتي يجب أن يعلقها فوق مكتبه كل مسلم ومسيحي - ولا أدرى - وملحد ، ومؤلف هذا الكتاب - ﴿ لَا أَعْبُد مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ويعتبر بها قبل الدخول في أي مقارنات لأنظمة المختلفة .

ويجب أن يكون المسلم مثالاً للتعايش السلمي مع من يختلف معه في الفكر والعقيدة ، حتى مع الدولة العلمانية ، رغم زعمها أنها السبيل الوحيد لسعادة العالم .

هوامش الفصل الثاني

- (١٥) «... ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» (ق : ١٦) لا يوحى هذا بفكرة وحدة الوجود ، واقرأ آية الكرسي .
- (١٦) النسخ في الآية ١٠٦ من سورة البقرة ، عموما ، لا يتعلّق بحقائق تاريخية أو غيبية ، وأتفق مع محمد أسد أن المقصود بآية هنا هو الرسالة ، والنّسخ لما قبل القرآن وليس في نفس عصره ، راجع لـ محمد أسد «رسالة القرآن» - جبل طارق ١٩٨٠ ، الهاشم السفلى ٨٧ على الآية ١٠٦ سورة البقرة ، ومحمد أيوب «القرآن ومفسروه» والخاص في القرآن يُقدم على العام ، حتى إذا كان نزوله قبله ، واقرأ في ذلك : التحرير التدريجي للخمر لـ «هليموت جاتزه» في كتابه «القرآن وتأويله» - زيوريخ ١٩٧١ ، صفحة ٢٦٤ .
- (١٧) «السلام والإسلام» في مجلة الفكر والحياة ، ١٩٨٣ العدد الثاني صفحة ١٤٥ .
- (١٨) من ضمن آيات الإياع في القرآن : الآية ٢٨٥ سورة البقرة ، والأية ١٣٦ سورة النساء . أما آيات الأركان الخمسة فهي كثيرة متكررة في القرآن .
- (١٩) اقرأ في تاريخ القرآن «علوم القرآن» لأحمد فون دنفر ، ليستر ١٩٨٣ ، ولـ محمد طالبي «انطباعات من القرآن» باريس ١٩٨٩ ، ولـ بول شفارتزناو «القرآن للمسيحيين» ، الطبعة الثانية هامبورج ١٩٩٠ ، ووجهة نظر المستشرقين لـ «رودى باريت» في «محمد والقرآن» شتوتغارت ١٩٨٥ .
- (٢٠) اقرأ في مجلة الإسلام : الإسلام وجوته . أحمد فون دنفر ١٩٩٠ الأعداد ٤ - ١ ، ولـ «شميدة» جوته والإسلام ١٩٨٢ العدد ٦ ، وترجم روكيرت القرآن في نظم شعرى بديع «القرآن» ١٨٨٨ ، وأعيد طبعة ١٩٨٠ . هيلدشيم ، وإنه من الأمور المثيرة لللحيرة أن أحد أعظم فلاسفة التاريخ الألماني «كانت» وجدت البسملة على شهادته في الدكتوراه ، راجع كذلك «المفكرون الألماني والإسلام» لأحمد فون دنفر
- (٢١) «الكتاب المقدس والقرآن والعلم الحديث» ومؤلفه الطبيب الفرنسي موريس بوكمى ، طبع بلغات كثيرة طبعات عديدة .
- (٢٢) أluck محمد حميد الله بترجمته للقرآن ، قائمة من أربعين صفحة لترجمات القرآن ، بما في ذلك اللغة اليديشية ، انظر «القرآن المقدس» الترجمة الفرنسية ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٥ . أول ترجمة لـ الإنجليزية كانت في ١٦٤٨ ، ومصدرها الترجمة الفرنسية ١٦٤٧ . أما أول ترجمة

- لألمانية فكانت ١٦٦٦ بيد سالومون شفيجن ومصدرها الترجمة الإيطالية . والآن توجد ٢٢ ترجمة بالألمانية ، واحدة فقط نشرها ألماني مسلم سنى .
- (٢٣) جريدة الوقت ، ١٩٩١ / ٢ / ١٥ : السلاح العجيب - سوزانا ماير .
- (٢٤) لتأخذ فكرة عامة عن الموضوع ، اقرأ في نشرة كتاب العالم الإسلامي مقالة محمد سورتى عن التفسير والتأويل للقرآن باللغة العربية ، ليستر ١٩٨٧ ، العدد الرابع ، صفحة ٥١ . كذلك ما كتبه رياح الاسلامي في المجاهد الجزائري ٣٠ / ٤ / ١ ، ٣ / ٣٠ عن التعليق على القرآن .
- (٢٥) «جامع البيان في تفسير القرآن» للطبرى ، وحاشية رقم ٢ في تعليق محمد أسد ، طبعة أكسفورد ١٩٨٧ .
- (٢٦) انظر سيرة ابن اسحاق وسيرة ابن هشام ، «حياة محمد» أكسفورد ١٩٥٥ ، «محمد» مارتن لنجز ، نيويورك ١٩٨١ ، «حياة محمد» لفرجيل جورجيو ، باريس ١٩٧٠ ، «محمد» لإميل درمنجهام ، باريس ١٩٦٠ ، «محمد» لكاترين ارمسترونج لندن ١٩٩١ .
- (٢٧) « وأن محمداً رسول الله » - أنا ماريأشمل ، كولون ١٩٨١ .
- (٢٨) أصح كتب الحديث البخاري ومسلم و [موطاً مالك] وارجع للعقيدة الواسطية لابن تيمية ورسالة التوحيد لمحمد عبده ، مقدمة ل الإسلام لمحمد حميد الله .

الفصل الثالث

المسيحية والإسلام

كلما نطق المسلم اسم محمد ، أو قرأه في كتاب ، أضاف قائلا - ﷺ . كذلك يفعل مع عيسى .

قد يُدهش هذا القارئ الذي لا يعرف الإسلام ، فالإسلام لا يعتبر نفسه ديناً جديداً بعد المسيحية ، بل إنما للتوحيد الذي جاء به إبراهيم (الآية ١٣ من سورة الشورى) . وعلى هذا فيمكن اعتبار الإسلام بعثاً وتجديداً للدين التوحيد القديم ، فهو على هذا الأقدم والأحدث بين ديانات التوحيد الثلاثة . ولا يبني الإسلام صلحيته على رفض الديانتين الآخريتين (٢٩) ، ولا يحتكر المصدرية الإلهية وطريق الفلاح كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية ، بل هو يقوم على الاعتراف بكل الأنبياء السابقين وما أنزل عليهم من ربهم ، كما بينت الآية ٨٤ من سورة آل عمران « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطر وما أتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم وننحن له مسلمون » . وبكلمات بول شفارترناو : القرآن وحى للعالمين (٣٠) . وفي الواقع ، يشتراك الإسلام والمسيحية واليهودية في أوجه كثيرة ، واختلافاتهم أقل من تلك التي مع البوذية والهندوسية (٣١) .

يعتبر المسلمون عيسى أحد رسل الإسلام والتوحيد ، ولكن ليس آخرهم (٣٢) . ويقول القرآن إن العهد القديم والعهد الجديد (٣٣) بشرًا بـ محمد الذي سيكون خاتم النبيين ، كما بينت الآية الأربعون من سورة الأحزاب .

روت سورة آل عمران وسورة مریم في كثير من آياتهما عن عيسى ومریم ، كذلك السنة : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسننى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكماء والأبرص وأحبي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تذخرون في بيوتكم إن في ذلك لامة لكم إن كنتم مؤمنين » [آل عمران: ٤٧ - ٤٩]

﴿وَذَكْرُ فِي الْكِتَبِ مَرِيمٍ إِذْ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرقيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحًا فَتَمَثَّلَ لَهَا بِشَرًا سُوِّيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنِّي أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لَأَهُبُّ لَكَ غَلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غَلَامٌ وَلَمْ يَسْسُنِي بِشَرٍ وَلَمْ أَكُ بِغِيَّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَىٰ هِينٍ وَلَنْ جَعَلْهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنْا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فِي حَمْلَتِهِ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيبًا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ أَيْلِيْسِتِنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتَ نَسِيَا مَنْسِيَا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكَ تَحْتَكَ سَرِيَا وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقِطًا عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيَا فَكَلَى وَاشْرَبَى وَقَرِيَ عَيْنَا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلَّ الْيَوْمَ إِنْسِيَا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرِيمَ لَقَدْ جَئْتَ شَيْئًا فَرِيَا يَا أَخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سُوءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِغِيَّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكْلُمُ مِنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيبًا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مَبَارِكًا أَيْنَ مَا كَنْتَ وَأَوْصَنَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادَمْتَ حَيَا وَبِرَا بِوْلَدِتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيقًا وَالسَّلَامُ عَلَىٰ يَوْمِ وَلَدَتْ وَيَوْمِ أَمْوَاتِ وَيَوْمِ أَبْعَثَ حَيَا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرِيمَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مَرِيمٌ : ٣٤ - ١٦].

بَيْنَ هَذَا بُوضُوحٍ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَرَوْنَ عِيسَى رَسُولًا وَلَدَ بِعِجْزَةٍ مِنْ مَرِيمَ الْعَذْرَاءِ ، لَيْسَ ابْنَ اللَّهِ وَلَيْسَ مُتَحَدًا فِي الْجُوهرِ مَعَ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ الْعِقِيدَةُ الْمُسِيَّحِيَّةُ ، بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ . اقْرَأُ أَيْضًا الآيَةَ ١١٠ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ اذْكُرْ نَعْمَتَكَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالدَّيْنِ إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقَدْسِ تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَمْتَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلِ وَإِذْ تَخْلَقُ مِنَ الطِّينِ كَهِيَّةً طَيْرًا بِإِذْنِنِي فَتَنْتَفِخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِنِي وَتَبْرِيءُ الْأَكْمَهُ وَالْأَبْرُصَ بِإِذْنِنِي وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بْنَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جَئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الْمَائِدَةَ : ١١٠].

وَاقْرَأُ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ ، وَاقْرَأُ آلِيَّةَ الْثَالِثَةِ فِي سُورَةِ الْجِنِّ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رِبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ وَالآيَةَ ٦٨ سُورَةِ يُونُسَ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْفَغْنَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عَنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وَالآيَتَيْنِ ٨٨ ، ٨٩ سُورَةِ مَرِيمٍ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جَئْتُمْ شَيْئًا إِدَا﴾ (٣٤) [مَرِيمٌ : ٨٨ ، ٨٩]

يُرْفَضُ الْقُرْآنُ بِحَزْمٍ وَحَسْمٍ وَوْضُوحٍ مَفْهُومِ التَّثْلِيثِ ، الْآيَاتِ ٧٥ - ٧٢ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

﴿لَقَدْ كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمٍ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بْنَ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حُرِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ وَمَاوَاهُ النَّارِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. لَقَدْ كَفَرُوا إِنَّهُمْ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَتَهَوَّ عَمَّا يَقُولُونَ لِيَمْسِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. أَفَلَا يَتَوَبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمٍ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلُانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ تَبَيَّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ يَؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٢ - ٧٥).

كذلك يرفض تاليه مريم (٣٥) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزَلٌ إِلَيْكُمْ مَمَّا يَكْفِرُ بَعْدَ مَنْ كُنْتُمْ فِيهِنَّ أَعْذَبُهُ عَذَابًا لَا أَعْذَبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. إِذَا قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمٍ أَنْتَ قَلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَمِّي إِلَيْهِنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سَبَّحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنْكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيُوبِ. مَا قَلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دَمْتَ فِيهِمْ فَلَمَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تَعْذِبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨ - ١١٥).

فمريم كابنها عيسى لم يكونا إلا آية من آيات الله المعجزة، وواحدة من المؤمنات الصالحات القانتات ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتُ نُوحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ كَانْتَا تُحْتَ عَبْدِيْنَ مِنْ عَبَادِنَا صَالِحِيْنَ فَخَاتَاهُمَا فَلِمَ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخَلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِيْنَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ فَرَعَوْنٍ إِذَا قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لَيْلَةٍ عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَلَبَّيْنِي مِنْ فَرَعَوْنَ وَعَمْلَهُ وَلَبَّيْنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ. وَمَرِيمَ ابْنَتُ عُمَرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْتَنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتْبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِيْنَ﴾ (التحريم: ١٢ - ١٠).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوْنَا فِي دِيَنِكُمْ وَلَا تَقُولُوْنَا عَلَى اللَّهِ إِلَّا حَقٌّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمٍ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلْمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرِيمَ وَرُوحُ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوْنَا ثَلَاثَةً اتَّهَوْنَا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سَبَّحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧١).

يؤكد القرآن أن عيسى رفع ولم يُصلب ﴿وَقُولُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمٍ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صُلْبُوهُ وَلَكِنْ شَبَهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا﴾ (النساء: ١٥٧).

كيف يبدو في العالم الغربي الآن رفض الطبيعة الإلهية لعيسى ، والروح القدس

كذات إلهية ، وبالتالي التثليث ؟ أعتقد أنه في هذا المجال ، سيكسب الإسلام مؤيدين وأنصارا من المسيحيين .

لا تلعب الروح القدس أي دور في الحياة اليومية للمسيحي ، ويزداد الاقتناع أن تلك الذات المقدسة ما هي إلا نتاج التفكير الأفلاطوني والغنوصي في فترة ما قبل المسيحية ، ثم الأفلاطونية الحديثة التي تغلغلت في المسيحية ، وأيضاً . ولكن بدرجة أقل - بأسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس ، وقد تنفس كل ذلك مؤلف إنجيل يوحنا . كائناً من كان . ثم سطره في إنجيله قائلاً :

في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله

استلزم ثالث الثالوث تأويلا لترجمته ، قدمت الكلمة برقليط (Periptyte) أو لا على أنها الروح ، ثم تحولت وبحروف لاتينية كبيرة إلى الروح القدس^(٣٦) . وعلى أي حال ، لم يشر عيسى من قريب أو من بعيد إلى التثليث ، بل اعتقد . ككل اليهود المسيحيين . مفهوم اليهود الصحيح عن الله^(٣٧) .

لم يمنع هذا مجمع نيقية (٣٢٥م) من تأسيس عقيدة التثليث ، ليس عن طريق إعلان أو تصريح ولكن فرضاً للعقيدة بالقانون ، وإفشاء كل ما يخالفها من كتب ومخطوطات . ومن الأهمية بمكان (أو من المأساة) أن أقدم نسخة لدينا من الإنجيل ، إنما كتبت بعد المجمع ، ومع أنه ليس من الضروري أن ننافق على كل ما كتبه كارل هاينز ديشنر وماكتبه عن «التاريخ الإجرامي للمسيحية» ، فمقالته عن الديانة المزورة يقترب كثيراً مما أكده القرآن من تزييف للكتاب المقدس^(٣٨) .

توقف اللاهوتيون البروتستانت وبعض الكاثوليك عن تضليل أنفسهم وراء مصادر غير موثوقة ، ناهيك عن المتناقضات والمفارقات التي لا تعد ولا تحصى ، وعن الإيان بالأفكار الوثنية التي وجدت طريقها إلى الممارسات المسيحية . شركت الأبحاث التاريخية في مثل عيسى للمحاكمة ، ولم يشهد دفنه ولا قيامه أحد^(٣٩) .

يفسر ماسبق الزيادة الهائلة في عدد المؤلفات التي تتناول عيسى في الثلاثين سنة الماضية ، حيث يقع فهرست هذه الأعمال في أكثر من ٥٠٠ صفحة . كذلك ما أضعف أدلة تجسيد الله في عيسى ، فحتى الأنجليل في صورتها الحاضرة لا تبين ذلك ، بل على العكس ، وليس فقط في الجمجمة (*) ، بل حتى في إنجيل يوحنا ، حيث يقول عيسى : إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهكم . الأصحاح ٢٠ ، الآية ١٧ .

(*) الموضع الذي يزعمون أنهم صلبووا المسيح فيه .

وإطلاق كلمة الأب على الله ، والابن على عيسى وعلى البشر إنما هو من باب المجاز الواضح ، وتشبيه العلاقة بين الله والبشر بالعلاقة بين الأب والابن وارد في كثير من الأديان .

يمكنا بعد الخلفية السابقة أن نميز داخل الكنيسة أربع نظريات بخصوص المسيح :

١ - تؤمن أغلبية البسطاء - خاصة في المناطق الريفية - بتوحيد خاص يجعل من عيسى والله واحداً . يقوم هذا التجسيد الإلهي على حاجتنا لعبادة من لا يختلف كثيراً عن أنفسنا (ومثل هذا الإله هو الذي قتله نি�تشه) .

٢ - وفي العالم البروتستانتي بالذات - حتى بين رجال الدين - تغيرت النظرة إلى عيسى ، فيضم محل اعتباره إليها ويقوى اعتباره مثلاً يُشير الإعجاب ، عاش على المحبة ، جديراً بأن يقلده الناس ويتبعوا قيمه ومعاييره ، حتى لو ثبت التاريخ أنه لم يكن هناك عيسى ، أولم تبرهن الفلسفة الإنسانية المسيحية أنها مجموعة قيم ؟

وبهذا يتعرض عيسى لخطر الاختزال إلى عنصر اجتماعي في منظومة المؤسسة الالاهوتى .

٣ - وعلى الطرف الآخر ، بتجدد شعوذة تلجمًا إلى الأسرار والغموض لتأويل المشاكل والمتناقضات .

هذا ما أعاديه عندما أقرأ « روديجر أثمان » حيث يكتب عن « الليلة الغامضة » ، والتي ولد فيها الله (هكذا) ، وعندهما يمارس غnosticism المسيحية (٤٠) .

يقنع مثل هؤلاء الالاهوتين بأى مصادر تخدم تصوراتهم عن أساطيرهم الإلهية ، الأم الكبرى ، النور ، الخطيئة والخلاص . لا يجد مثل هؤلاء الالاهوتين غضاضة في القول بأن « الله حق الكمال لذاته وأن أصبح رجلاً » ، ويستمرون قائلين « لقد أصبح الله شخصاً آخر بالتجسيد » (٤١) ، ولا يخافون أن يرميهم أحد بالهرطقة .

٤ - أخيراً ، هناك اتجاه يمثله الالاهوتى السويسرى هانز كونيج ، يعترف بهشاشة النصوص الأصلية - بشجاعة وبلا مداراة - ولا يلجأ إلى زخرف الغنوصية أو الكلمات الرنانة . يحاول كونيج حل المعضلات التاريخية والوجودية ، بالتضحيبة بعقيدة يتذرع الدفاع عنها ، وذلك بإعطاء تعرifications جديدة . فيصبح عيسى مختاراً من الله ، ومُخولاً من الله ، ويصبح التثليث الوحي من الله إلى عيسى عن طريق الروح القدس . (٤٢) .

استخلص كونج ذلك بعد ما تبين له الفرق الهائل بين مفهوم الأب والابن والروح القدس ، وتعاليم الكنيسة الخاصة بالثاليث ، مع ما تقول به الأنجيل . لم يجد فيها شيئاً يصلح أساساً - من قريب أو بعيد - لعقيدة الثالوث ^(٤٣) . فإذا كانت هذه النظرة للمسيح تعنى أنه ليس ابن الله وليس متخدًا معه في الجوهر وليس الوحي ذاتا إلهية ، فإنها نظرة إسلامية ، وهي تعضد القول بأن المسلمين هم المسيحيون الأفضل ، وبالتالي الأقدم . وفي القرآن فقط تجد المسيح اليهودي ^(٤٤) ، كما اكتشف ذلك كونج .

هذا الفهم الجديد ، القديم - والذى يخلع القلوب - ليعسى ، يجعل معتقديه فى حاجة لتفسير كيف هم مسيحيون (بالمفهوم المسيحى المتعارف عليه) ^(٤٤) .

فى تقديرى ، يرتبط هذا الشعور - بشكل أو باخر - مع مفهوم الخلاص والنجاة ، والذى خلفيته الخطيئة الأصلية ، بينما فى مقدمته آلام عيسى عند صلبه .

يرفض الإسلام تماماً فكرة الخطيئة الأصلية لأنها جبرية ، وأنها تضاد المبدأ القرآنى « لا تزر وازرة وزر أخرى » ، وأنها تحمل فى طياتها سقوط الخلق الإلهى . مثل تلك الأفكار تناقض ما جاء به القرآن عن الله ^(٤٥) .

لا يكتفى الإسلام بإنكار مفهوم الخلاص ، بل يضم بالتجديف الاعتقاد بأنه كان على الله أن يُضحي بنفسه ويُصلب حتى يفتدى بآلامه كل البشر ، فينجيهم من جهنم ^(٤٦) . فكان الله غير قادر على إنقاذ البشرية إلا بخلق إله آخر يتألم ويُصلب ، وكان الله أصبح ضحية للإنسان الثائر ضده . وهذا يتعارض تعارضًا كاملاً مع الله في الإسلام .

وعلى هذا ، فنحن نتفق مع بول شفارتزناو عندما يرى إنكار المسلمين لموت عيسى على الصليب هو إنكار لمفهوم الصليب والفاء والخلاص والخطيئة الأصلية . وعند المسلمين ، لم يقتل اليهود عيسى ولم يصلبوه ولم يقاوم آلام ذلك ، ولكن شُبّه لهم . وفي هذا يقول القرآن « إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى » من الآية ٥٥ سورة آل عمران .

ولا أحد يعلم كيف رفع عيسى رغم التخمينات الكثيرة ، ^(٤٧) وفي ذلك يقول القرآن « وقولهم إنا قاتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قاتلوا وما صلبوه ولكن شُبّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفِي شَكْ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظُّنُونِ وَمَا قاتلوا يقينًا بل

^(٤٤) المقصود بال المسيح اليهودي ، المسيح البشر الذي يقول : إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . وذلك طبقاً للتوحيد اليهودي الصحيح .

رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيمًا وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته ويوم القيمة يكون عليهم شهيداً^(٤٨) ١٥٧ - ١٥٩ سورة النساء . ولهذا فيجب أن تُقبل أسطورة حياة عيسى في كشمير ، وموته هناك في سن متقدمة كما هي^(٤٩) .

أوجزنا فيما سبق خلفيّة السؤال الكبير : ما هي فرصة الحوار المسيحي - الإسلامي - اللازم لحفظ سلام العالم - في النجاح^(٥٠) .

لن يكون هناك سلام عالمي بدون سلام بين الأديان . ذلك عنوان المحاضرة التي ألقاها هانز كونيج في الجزائر ٢٢ نوفمبر ١٩٨٨ ، وبالطبع لم يكن يعرف ماذا حدث في الخليج بعد ستين . أمل كونيج في مزج لشعوب العالم بناء على تقارب وتفاهم ديني ، ليس دين واحد ولا مزج للأديان .

تم إنجاز كثير من الأعمال التحضيرية مثل هذا الحوار ، خاصة من الجانب المسيحي فيما يخص مادة الحوار ومناخه^(٥١) . يشمل ذلك الاجتماعات في قرطبة ، والنشرات الرفيعة لبعض ذوي المرتبة الدينية مثل ما يكل ليلونج^(٥٢) ، وتهشة البابا السنوية للمسلمين بمناسبة عيد الفطر ، ودعوته لصلاة جماعية في آسيزى ٢٧ أكتوبر ١٩٨٦ .

يستدعي التفهم المتبادل أن يقبل كل جانب ، الآخر على ما هو عليه . فليس من الضروري أن يخاطب المسلمين المسيحيين كوثنيين ، وعلى الكنيسة أن تتخلّى عن شعار لا خلاص خارج الكنيسة ، وشعار لأنبي خارج الكنيسة .

وفي الحقيقة ، فإن إحدى مفارقات الفاتيكان أن يقرر النظر للمسلم العادى بكل احترام ، وفي الوقت نفسه يتتجنب أي إشارة للقرآن أو محمد^(٥٣) .

نستطيع أن نرى مما سبق أن التقارب بين الأديان ، أقرب لأن يظل محدوداً ، طالما هناك في قلب كل دين أساسياته الخاصة والتي لا تقبل التفاوض . وكما قال هانز كونيج في محاضراته في قرطبة :

* ابن الله في المسيحية .

* كتاب الله في الإسلام .

وفي الحقيقة ، فالتبادر واضح . فمحور المسيحية شخص ، ومحور الإسلام كتاب ، ومحور اليهودية عقد . فكلمة الله أصبحت بشرًا في المسيحية ، وكتاباً في الإسلام^(٥٤) .

(*) في الحقيقة هي في الإسلام كتاب وبشر : القرآن والسنة .

وفي الحقيقة أيضا ، التوفيق بين المسيحية والإسلام وارد ، إذا تبنت السلطات المسيحية فهم كونج لعيسي ، ومن هنا قد تكون نقطة البداية للاعتراف بالقرآن [الذي صحق الاعتقاد الأساسي للمسيحيين] .

وعلى أي حال ، علينا ألا نستهين بالحوارات العالمية ، طالما يتم فيها استبعاد ما هو غير قابل للتفاوض ، ولا نستهين بالخطوات الصغيرة ، والقيمة العلمية من اللقاءات الفردية ، خاصة مع المسلمين في أوروبا ، طالما لا يصر أحد الطرفين على تحويل الآخر عن دينه ، ومعروف أنه لا يتحول أحد من الإسلام إلى المسيحية .

هوامش الفصل الثالث

- (٢٩) أقرأ «الإسلام» لـ«إيمانويل كيلرهايس» الطبعة الثانية ، بازل ١٩٥٦ صفحة ٣٧٧ .
- (٣٠) «علوم القرآن للمسيحيين» لـ«بول شفارتزناو» الطبعة الثانية-هامبورج ١٩٩٠ .
- (٣١) طبقاً لما كتبه الأب «جورج بوكرمان» في جريدة فرانكفورتر جهتمانه ١٩٨٦ / ٩ / ٢٥ صفحة ١١ .
- (٣٢) أقرأ محمد عطاء الرحمن «عيسيٰ نبى الإسلام» الطبعة الثالثة-لندن ١٩٨٣ ، ولأحمد عبد الوهاب «حوار النصوص بين المسيحية والإسلام»-باريس ١٩٨٧ ، ولـ«كينيث جي . روبرتسوف» «جييسوس أم عيسى : مقارنة في الكتاب المقدس والقرآن» نيويورك ١٩٨٣ ، واقرأـ لـ«نيلو جيجي» «مريم في القرآن محور التقاء بين المسيحية والإسلام»-نيويورك ١٩٨٤ .
- (٣٣) جاء في الجليل يوحنا الإصلاح ١٤/٢٦ : وأما المعزى الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمه فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ماقلته لكم . وفي الأصلاح ١٦/١٣ : وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه . وكلمة *Parakletos* مفترض أنها *Periklytos* ، وهي التي تم ترجمتها من اليونانية إلى المعزى ، أما الكلمة الأصلية فترجمتها أحمد في العربية .
- اقرأـ لـ«دافيد بنجامين» كتابه [الصغرى الحجم الكبير القيمة ، وترجمته دار نهضة مصر] «محمد في الكتاب المقدس» ميونيخ ١٩٨٧ صفحة ١٨٣ ، واقرأـ لصاحب مستقيم بليهـر «شهادة الكتاب المقدس على المعرفة القرآنية» فايلرفيست ١٩٨٤ ، بول شفارتزناو من المرجع المذكور .
- (٣٤) أقرأ أيضاً الآية ١١٦ سورة البقرة ، ٢٦ سورة الأنبياء . واقرأـ لأحمد فون دنفر «الإسلام وعيسيٰ» ميونيخ ١٩٩١ .
- (٣٥) في الممارسة المسيحية اليوم ، احتلت مريم المرتبة الثالثة ودفعت الروح القدس أسفل للرابعة . ومن الممكن للMuslim الصوفي أيضاً أن يغالى في حب مريم- أقرأـ «ماري والإسلام» لـتشارلىـ آندرـيه جـيلـى بـارـيس ١٩٩٠ .
- (٣٦) إنجلـيل يـوحـنا الإـصـلاح ١٤: ١٦، ٢٥ وراجـع أـيـضاً دـافـيد بـنـيـامـين وـصـاحـب مـسـتـقـيم .
- (٣٧) أقرأـ لـ«أدولـف شـلاتـر» كتابـه «تـارـيخ المـسيـحـيـة الـأـولـى» جـوتـرسـلوـه ١٨٩٢ ، «جونـ هـيلـيكـ وإـدمـونـدـ إـسـ» مـلـتـرـزـ «ثـلـاثـ إـيـانـاتــ إـلـهـ وـاحـدــ مـقـابـلـةـ الـيـهـودـيـةـ وـالـمـسـيـحـيـةـ وـالـإـسـلامـ» لـندـنـ ١٩٨٦ـ .

- (٣٨) أقرأ لـ «كارل هاينز ديشز» كتابيه «الاعتقاد الزائف» ميونيخ ١٩٨٨ ، «التاريخ الإجرامي للمسيحية» هامبورج الجزء الأول ١٩٨٦ ، الجزء الثاني ١٩٨٨ .
- (٣٩) أقرأ لـ «فيديج إريك» «الصلب بلا محاكمة». فرانكفورت ١٩٨٦ .
- (٤٠) «رودجير ألتمان» ، ملحق فرانكفورت الجماينه ١٢/٢١ ١٩٨٥ .
- (٤١) «هائز فالدينفيليسي» ، فرانكفورت الجماينه ٢٤/١١ ١٩٨٥ .
- (٤٢) «هائز كونيج/ جيه فان اس» في «المسيحية وديانات العالم» الجزء الأول : الإسلام . ترجمة بيتر هاينج ، لندن ١٩٨٧ .
- (٤٣) «هائز كونيج» - من أجل حوار بين المسيحيين وال المسلمين - شتوتجارت ١٩٨٤ صفحة ١٣٥١ .
- (٤٤) «هائز كونيج» - لماذا مازلت مسيحياً؟ أدبيه ١٩٨٧ .
- (٤٥) للتتعرف على دور الخطبىة الأولى فى تاريخ الكنيسة ، أقرأ لـ «إيلامين ياجلز» «آدم وحواء والحياة» راينبك ١٩٩٠ .
- (٤٦) «كارل- الفريد أودين» جريدة فرانكفورت الجماينه ٤/٤ ١٩٨٥ : شهدت فرنسا ازدهار نظام لا هوئي لا إلهى عديم القدرة ، يعنى باستمرار مع الفقراء . واقرأ «جين ديلماو» باريس ١٩٨٥ .
- (٤٧) أقرأ تعليقات حمزة أبي بكر الذكية على الآية ١٥٧ سورة النساء وترجمته للقرآن ، الطبعة الثالثة باريس ١٩٨٥ ، كذلك لـ «جي بارنيدر» «عيسى في القرآن» أكسفورد ١٩٧٧ ، حيث جعل التأكيد على (شبه لهم) ، فكان ظاهر الأحداث أوحى لهم بذلك ، بينما واقعها مختلف .
- (٤٨) أقرأ لمحمد أسد «رسالة القرآن» - جبل طارق ١٩٨٠ الهاشم السفلى رقم ١٧١ على الآية ١٥٧ سورة النساء ، وليوسف على «القرآن المقدس» ، الطبعة الثامنة ، برنتوود ١٩٨٠ ، الهاشم السفلى ٦٦٣ على نفس الآية .
- (٤٩) «أندرياس فابر- كيزر» - عيسى عاش ومات في كشمير » لوسيون ١٩٨٦ .
- (٥٠) انظر بخصوص الحوار المسيحي الإسلامي س.م. عبد الله : «الإسلام : في سبيل الكلام مع المسيحيين» الطبعة الثالثة التبزجر ١٩٩٠ .
- (٥١) أقرأ «الحادي ث بين الإسلام والمسيحية» - كولون ١٩٨٣ ، «في سبيل حوار مسيحي إسلامي» - «موريس يورمان» فرانكفورت ١٩٨٥ .
- (٥٢) «مايكيل ليلونج» - باريس ١٩٨٦ .
- (٥٣) «هائز كونيج» «المسيحية والإسلام» ورقة عصرية للتبدل الحضاري - شتوتجارت ١٩٨٥ العدد الثالث صفحة ٣١١ .
- (٥٤) «هائز كونيج» «العالم» هامبورج ٦ مارس ١٩٨٩ صفحة ١٣ .

الفصل الرابع

الدين والمَعْرِفَة

يثل حلم «بيتى هو حصنى» هدفا أساسيا فى الإسلام ، الذى ينهى بشدة عن التنصت والتتجسس ومضايقة الجار . وإذا طرقت الباب ثلاثة مرات ولم يجبك أحد ، دعهم فى سلام وانصرف لحالك ^(٥٥) .

ولكن التعطش للمعرفة والفضول العلمي شيء مختلف . يدعون القرآن إلى استخدام العقل للتزويد بالمعرفة في عشرات المناسبات : أفلأ تعقلون . . . أفلأ تتفكرن . . . ألم تروا . . . إن كنتم تعقلون . . . لقوم يعقلون . . . «وقل رب زدني علما» ^(١٤) سورة طه . «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» ^(٩) (الزمر) .

بل يمكن اعتبار أول آيات القرآن نزولا - أول سورة العلق - دعوة لاكتساب المعرفة بالقراءة والكتابة «اقرأ باسم ربك الذي خلق » خلق الإنسن من علق «اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسن ما لم يعلم »

يتذكر المسلم الحصيف في الله وخلقـه قائما وقاعدا وعلى جنبـه ، يسعى وراء الموضوعية والأدلة وليس الأهواء الشخصية ولا الظن والخدس ^(٥٦) . وما أكثر الأحاديث النبوية التي تدعو الناس وتدفعهم دفعـا لطلبـ العلم :
العلماء ورثـة الأنبياء . رواه أصحابـ السنـن عـدا النـسـائي .

من سلك طريـقا يطلبـ فيه عـلـما سـلكـ الله له طـريقـا من طـرقـ الجـنة . رـواـه مـسـلم وأصحابـ السنـن

طلبـ العلم فـريـضـة عـلـى كلـ مـسـلم . رـواـه ابنـ مـاجـة .

واشتـهـرت أقوـال مـثـلـ : اطـلبـوا عـلـمـ منـ المـهـدـ إـلـى اللـهـ . اطـلبـوا عـلـمـ ولوـ فـي الصـينـ .

استـجـابـ الصـحـابةـ . وـفـي مـقـدـمـتـهـمـ الـخـلـفـاءـ الـأـرـبـعـةـ . وـالـمـسـلـمـونـ الـأـوـلـ بـكـلـ جـديـةـ

لتلك الدعوة . وعندما سئل على بن أبي طالب إن كان محمد خصبه بشيء فأجاب : والذى فلق الحب ويرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن ، إلا فهمما يعطى لرجل في كتابه وما في هذه الصحيفة (ثلاثة أحاديث للرسول خاصة بالدية والأسرى والقصاص - رواه البخاري في كتاب العلم)

كانت بهجة التطلع للمعرفة مع الاستعداد الدائب لاستخدام العقل منصة الانطلاق الصحيحة ، ليحقق المسلمون بدءاً من أواخر القرن الثامن الميلادي إنجازاتهم العلمية الهائلة . نكتفى بضرب المثل بأربعة عشر منها (٥٧)

* ابن فرناس (ت ٨٨٨) أول من حاول الطيران باستخدام آلية من الأجنحة .

* محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٤٦) أبو الجبر واللوغاريتمات ، وقد اشتقت الأخيرة من اسمه .

* أبو بكر الرازى (٩٣٥ - ٨٦٤) درست جامعات أوروبا كتابه المنصورى لعدة قرون .

* الفيلسوف والحكيم ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) وموسوعته الطبية « القانون » ظلت مرجعاً للجامعات الأوروبية حتى القرن التاسع عشر .

* الحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩) ترك تراثاً علمياً ضخماً في الرياضيات والفيزياء والفلك ، وهو الذي أنشأ علم الضوء الحديث وألف كتاب المناظر الذي استقى منه علماء أوروبا معلوماتهم عن الضوء ، وترجم إلى اللاتينية عام ١٥٧٢ وألف ٤٤ كتاباً في العلوم الطبيعية والرياضية ، وهو أول من قدم تفسيراً صحيحاً لظاهره قوس قزح وهو الذي استحدث أسماء : الشبكية ، القرنية ، السائل المائي ، السائل الزجاجي ، ومهد لاستعمال العدسات لإصلاح عيوب الإبصار ، وهو الذي صرحت أن الإبصار هو عبارة عن سقوط الضوء من المرئى إلى الرائي ، وقال إن الأشعة الضوئية تسير في خطوط مستقيمة .

* أبو الريحان البيروني (٩٣٧ - ١٠٥٠) متعدد العبقريات مثل جوته ، مؤرخ للعلم ، دبلوماسي ، باحث في اللغة السنسكريتية ، فلكي ، صيدلي ، خبير بالفلزات ...

* عمر الخيام (ت بين ١١٣١ ، ١١٢٣) شاعر ، رياضي ، صاحب التقويم الهندي بدقة أعلى من تقويم ١٥٨٢ الجريجوري

* الفيلسوف ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) ولتعليقاته على أرسطو تأثير بالغ على أوروبا (وقد اكتشف البقع الشمسية خلال وقت فراغه !)

* الحكيم المصري ابن النفيس (ت ١٢٨٨) وقد اكتشف الدورة الدموية .

* ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧ أو ١٣٦٨) الرحالة المغربي ، ذهب حتى تيمبوكوتو وبكين ونهر الفوججا وهو شبيه بماركو بولو .

* ابن خلدون الأندلسى (١٣٣٢ - ١٤٠٦) ، ومقدمته لموسوعته عن تاريخ العالم أهلته لأن يصبح مؤسس علمي الاجتماع والتاريخ الحديدين ، مع إحداثه ثورة نقد المصادر .

* الملاح أحمد بن مجید ، المرجع في عبور المحيطات في القرن الخامس عشر .

* أمير البحر والجغرافي التركي بيرى ريس (١٤٨٠ - ١٥٥٣) صاحب كتاب «البحرية» الذي مازال يدهل الناس بدقة خرائطه البحرية ، ورفيقه في العلم سيدى على ريس (ت ١٥٦٢) الذي قاس الشواطئ الآسيوية وطور علم الفلك الملاحي .

تظهر القائمة السابقة أن العالم الإسلامي هو الذي أصبح وريثا للهellenistic وليس العالم الغربي .

وكما قال مارشال هود جون : يتضح بجلاء من تفجر المعرفة والتكنولوجيا في العالم الإسلامي ، أن التبادل الثقافي بينه وبين العالم الغربي كان في اتجاه واحد ، حيث لم يكن لدى الغرب شيء يستحق أن يرجع إليه . كان الغرب مستوردا خالصاً ، فمن طواحين الهواء والطرب حتى الأقواس الغوطية في العمارة . ترك هذا الغزو الثقافي - كما نسميه اليوم - بصماته في اللغة ، فعندما نقول :

Admiral, algebra, cipher, amalgam, alchohol, lute, guitar, alcove, muslin, tariff.

فهي من العربية وتعنى : أمير البحر ، الجبر ، صفر ، الملغم ، الكحول ، عود ، قيثارة ، الجوف أو الفجوة ، موصلين ، تعريفة .

ولكن بدأت العلوم والفنون - خاصة العلوم - تختبئ في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع عشر . كان أحد أسباب ذلك ظهور نظرية غلق باب الاجتهد . وسيأتي ذلك فيما بعد في باب الأصولية - والتي تنهج نهج الحفظ والتقليد بدلاً من البحث . وطبقاً لهذه النظرية ، أحاط القدماء بكل المعارف المطلوبة ، ولا يستطيع أحد معرفة أفضل ، فهم أقرب للمصدر وأكثر فهما .

ويكن إساءة تأويل القرآن « لا علم لنا إلا ما علمنا » (البقرة ٣٢)، تفهم على أنه لا يجوز البحث عن أي علم خارج القرآن ، ألم يتكلم القرآن عن « يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » (البقرة ١٠٢) ، اختلط ذلك بسوء فهم آخر للحديث النبوى « كل بدعة ضلاله » (*) مع أن السنة تفرق بين البدعة السيئة والبدعة الحسنة (**) وفي العصور الوسطى ، شهر البعض سلاح البدعة الذى لا يُقهر أمام كل تقدم .

ومازال سلاح البدعة مشهراً يعوق تقدم المسلمين ، حتى إن البروفيسور حسان بن صادق الطنجي ألقى محاضرة أمام الملك الحسن الثاني في الرباط في ٢٤ مارس ١٩٩١ ، محورها أن يقنع الجمهور أن المسألة كلها خاصة بالشرع والأخلاقيات ، ولا تتعلق بالاعتراضات من قريب أو بعيد (٥٨) .

لم تخل فترة الانحطاط التي بدأت في القرن الرابع عشر من أشعة أمل . ففي عام ١٦٣٤ شيد تاج محل ، والجامع الأزرق في إسطنبول . وظهر ولى الله الدهلوى (١٧٦٣-١٧٠٣) ، محمد بن عبد الوهاب (١٧٨٧-١٧٠٣) في الجزيرة العربية وعماد بامبا (١٨٥٠-١٩٢٧) في السنغال ، ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) في مصر ، كانوا رواداً لحركات الإصلاح .

وظهرت في غرب إفريقيا المريدية والتيجانية والأحمدية .

ولكن غالب على تلك الفترة الاتجاه المعادى للتقدم العلمى ، وبالتالي ندرة العلماء . ففي ١٥٨٠ تم إغلاق مرصد إسطنبول بعد سنة واحدة من افتتاحه ، وفي ١٧٤٥ استطاعوا إغلاق أول مطبعة في العالم الإسلامي بعد سبعة عشر عاماً من افتتاحها . ولذلك فلا ندهش عندما نعرف أن تلاميذ المدارس الثانوية في مصر كانوا خمسة آلاف سنة ١٨٧٥ بينما ارتفع عدد طلبة الأزهر إلى أحد عشر ألفاً يدرسون العلوم الشرعية .

ولا عجب إذ إنه لم يفز بجائزة نوبل للعلوم إلا عالم مسلم واحد من باكستان ، الفيزيائى أحمد عبد السلام (٥٩) . كثيراً ما اتهمت الفلسفة الإسلامية بلعب دور هدام أدى لذلك الانحطاط ، ولكن تاريخها لا يؤيد هذا الادعاء (٦٠) .

حاول الفلاسفة المسلمين منذ القرن التاسع استخلاص نظام فلسفى شامل من القرآن ، الذى ليس بكتاب فلسفة ، تدرجت مدرسة المعتزلة التى تأسست فى البصرة

(*) ينهى الحديث عن إلحاق شيء بالدين ليس منه .

(**) جاء في الحديث : من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها .

ويغداد في الأخذ بنهج فلاسفة اليونان ، ولكنها ظلت فلسفة دينية أكثر منها دينا فلسفيا . لم يبحث المعتزلة فيما إذا كان الله موجودا أم لا ، ولم يشكوا في أن القرآن كلام الله الموحى ، ولكنهم يبحثوا في الصفات الإلهية .

اعتمد المعتزلة على العقل مرجعا وحيدا ، وأولوا آيات القرآن بما يتفق مع منهجهم العقلي الذي قام على الأسس الآتية :

* الله تعالى قديم ، عالم لذاته ، قادر لذاته ، حتى لذاته ونفوا الصفات أن تكون قائمة بذاتها .

* القرآن مخلوق .

* الإنسان حر الإرادة والفعل ، والشر من صنعه وحده .

لم يسلم المعتزلة من اتهامات بالهرطقة والزندة .

وصلت الفلسفة العقلانية الإسلامية ذروتها مع ابن رشد في القرن الثاني عشر^(٦١) ولم يكن قلق العلماء التقليديين على الناس أقل منه على الفلسفة الذين اقتربوا من اتباع الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، وفلسفتي الإشراق والغنوصية والحلول والتتصوف النوراني ، كما في حالة أبي نصر الفارابي (٩٥٠-٨٣٧) ، محبي الدين بن عربي (١١٦٥-١٢٤٠) أبي على حسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) .

جاءت مدرسة الأشعري لتنقض الأساس الذي قام عليه صرح المعتزلة ، فأنكروا قدرة الإنسان وحدها على معرفة حقيقة ماوراء الطبيعة . لم يكتف رائد هذه المدرسة - أبو الحسن الأشعري (٩٣٥-٨٧٣) - بإعادة الفلسفة لخدمة الدين وجعل مبدأ السببية فيما وراء الطبيعة هراء لا يفيد شيئا ، بل إنه ، ومن بعده أبو حامد الغزالى (١٠٥٨-١١١١)^(٦٢) ، والذي أكمل عمله ، جعلا الكون كله لا يخضع في خلق الله له لمبدأ السببية ، فهي غير واجبة على الله .

شن الغزالى آخر الهجمات على الفلسفة بكتابه تهافت الفلسفة ، وأجابه ابن رشد . بعد ذلك بعقد أو عقدين - بكتابه تهافت التهافت .

قنع المسلم السنى منذ ذلك الوقت أن المعرفة الصحيحة لله ليس لها إلا سبيل واحد لا يقرره الزلل : الوحي . وعليه في هذا المجال ألا يحاول خارج نطاق الوحي .

منذ ذلك الوقت ، تخلى أكثر المسلمين عن شغل أنفسهم بالفلسفة التي لا طائل من ورائها ، وانحصرت الفلسفة الإسلامية تحت عباءة التصوف (وكثيرا ما ظهرت بصمات الشيعة مثل إخوان الصفا في البصرة . انظر فصل التصوف) .

لم تكن معاادة الفلسفة - ولم تكن تريده أن تكون - أكثر من نظرية أصلية في المعرفة ، تقود بلا أدريه يساندها القرآن إلى إلزام الفكر البشري حدوده المتواضعة . الأمر الذي ييدو اليوم - بعد ألف سنة - حديثا بشكل غير عادي .

فإنه لم يكن لودفيج ويتجنشتين في القرن العشرين ، بل الأشعري في القرن التاسع الذي أعلن نهاية الفلسفة . ولم يكن دافيد هيوم والنظرية الحديثة للعلوم ، بل الأشاعرة هم الذين أبصروا قصور قانون العلية ، ولم يكن إيمانويل كنت وعلماء اللغة المعاصرون أول من وضع أصلا لنظرية المعرفة ، بل المسلمين في القرن التاسع .

إذا كنا لأنلوم مفكري الغرب التقديرين على انحطاط الثقافة الغربية ، فكيف نلوم الفلسفة الإسلامية على انحطاط العالم الإسلامي ؟

دعنا نفحص الآن موقف الإسلام اليوم من العلوم الطبيعية الحديثة .

ننوه أولا إلى أن المسلمين يعتقدون باستحالة التناقض بين القرآن والعلم ، وما يظهر من تناقض فمرده الخطأ في فهم القرآن أو نتائج الأبحاث العلمية .

المشكلة الحقيقة في هذا المجال هي الرؤية الحديثة للعلم . يعارض المسلمون من يجعل العلم بديلا للدين ، بل ويتهمنه بتوظيف العلم للشر . قال سيد نصر - بعقرية - في مؤتمر جمعية ماكس بلانك لعلوم الطبيعة والفلك عقد ١٩٨٣ : لا يقبل الإسلام تقليص العلم الحديث ، ما وراء الطبيعة إلى علم النفس ، وعلم النفس إلى علم الأحياء ، وعلم الأحياء إلى الكيمياء ، والكيمياء إلى الطبيعة ، وبذلك تنحط كل عناصر الحقيقة إلى أصغر صور الظهور : المادة .

يستحق ذلك بعض التوضيح . ترى وجهة النظر الإسلامية أن الغرب يفرط في ممارسة العلم للعلم - كالفن للفن - ويسداجة حتى أصبح شعار « لا خلاص خارج العلم » هو ممارسة العلماء لإيمان بدون دين . يُعرَّف ذلك العلم الله وفقا لما يسيه القاصرة ، والإنسان كعنصر مجازفة (غير مضمون) في المحيط التقني ، والنظام الاجتماعي كآلة . ولذلك قال الفيلسوف الألماني يورجن هابر ماس : أصبح القانون في العصر الحديث - مثل الفن - تجسيدا لمبدأ الذاتية .

أصبح الدين في عصرنا العلمي دعوة للتخلص ، وطريقا غير عقلي لحل مشاكل الإنسان . أراد نيشه قتل الله ، وبالطبع فشل ، وأراد العلماء قتل الاعتقاد في الله ، وهذا قد يصادف كل النجاح .

ولكن العلم التجربى الذى يكتب الدين ، لا يستطيع أن يحل محله عندما نأتى للمعنى أو إرساء القيم الأخلاقية . ففى هذا الشأن لا يملك العلم قدرة المنافسة مع الدين ، حتى باتباعه أسلوب سير كارل بوير فى التجربة والخطأ ، فليست الأخلاق وظيفة جسدية ، وليس المعنى مستحضرًا كيميائى حيوي ، والحب غير علمي بالمرة . حقاً لكل من العلم والدين مجاله . وحقاً ما أدى تدخل العلم (عندسوء توظيفه) فى مجال العقيدة إلا إلى الشك وفقدان اليقين ، عبادة المعلومات ، وأخيراً أزمة الهوية . إنه من أفضل صوره ، يستطيع أن يقدم علم مسيحى علمانى لعصر ما بعد المسيحية (٦٣) .

يستطيع العلم تقديم أسئلة لا نهاية دون أن يجد لها إجابات محددة ، الأمر الذى دعا آندريله مالرو أن يتتسائل :

هل حضارة الأسئلة واللحظة الحاضرة تُعد حضارة حقيقة ؟ ولما يكل هارنختون تساؤل مشابه : هل هناك في مجتمعنا التكنولوجى ميثاق أخلاق اجتماعى ين嗔نا من عبقريتنا ؟ (٦٤) .

ليس المسلمين وحدهم من يعترض على الاستبدال الخاطئ للعلم بالدين ، فالباحثون عن الموازين في الغرب المعاصر معهم على الطريق ، من هؤلاء هانز جورج جادامر وهيلموت كون . يتحدث الناس عن رفض عالم المادة والعودة إلى عالم ماوراءها ، وذلك بعدهما تبين لهم - أخيراً - أنه كلما زاد تحدث العالم واستثارته ، كلما اشتدت الحاجة للدين واستحال الاستغناء عنه ، على الأقل لإضفاء الشرعية للقوة وللقانون ، ولتماسك المجتمع وإكسابه الأمل والدافع . باختصار ، بدأ الناس يتعرفون ثانياً على المساندة المتبادلة بين السياسة والدين ، وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وأن أقل ما يقال عن فكرة وفاة الدين ، أنها فكرة ساذجة (٦٥) .

شارك في ذلك انهيار الداروينية الجاثمة ، والفرويديـة ، والماركسية ، والنظرـة القديـة للطبيـعة ، خاصـة عند عدم تـمكـن المـخـ من بـحـث المـخـ (٦٦) . أصـبح العـلـمـاءـ أـكـثـرـ توـاضـعـاـعـنـدـمـاـتـبـيـنـلـهـمـأـنـمـاـأـسـمـوـهـقـوـانـينـالـطـبـيـعـةـإـنـاـهـمـعـلـومـاتـأـولـيـةـوـأـنـالـعـالـمـلاـيـقـمـعـلـمـهـمـسـاـذـجـلـمـبـدـأـالـعـلـيـةـ.

ولكن حتى بعد تحرر العلم من الغرور وسوء التوظيف ، مازال بعض الأكاديميين المسلمين يفتقدون فيه الحيدة ، وال الحاجة للأسلام ، ولشعارهم «إدخال الإسلام في المعرفة» أو «أسلمة المعرفة» تاريخ طويل .

أدى استعمار العرب لاعتناق الصفوـةـ حـضـارـةـ الغـرـبـ ، ولـكـنـ جاءـتـ النـتـيـجـةـ

مخيبة : عادة ما تأخر المسلمين خلف زملائهم الغربيين ، ولكنهم في الوقت نفسه فقدوا أساس حضارتهم الخاصة ، ليكونوا مستهلكين للحضارة الغربية التي لا يستطيعون إتقانها ، فأصبحوا في النهاية محبطين ومزقين بين حضارتين .

أدى ذلك لرفض البعض في العالم الثالث لكتنولوجيا الغرب الشيطانية ، التي نمت في محيط الحادى تشككى نقدى . أما العقلاء فأجابوا أن العلم محايد ، وعلينا الاستفادة منه في الإطار الإسلامي^(٦٨) . إسلامية المعرفة تدعو إلى تعليم إسلامي وإصلاح للجامعات ، ولا ترفض النموذج الغربى بأكمله شره وخierre نافعه وضاره ، ولكن انتقاء ما لا يتعارض مع الإسلام وتطوره وتنميته^(٦٩) .

وما أكثر مجالات الإصلاح في المدارس والجامعات الإسلامية ، حيث ما زالت المناهج تعتمد على التقليد عديم النقد ، سلطة المدرس وصلاحيته (ومرجعيته) مطلقة ، تقع كثير من الأسئلة والمواضيع في نطاق المحظور ، مع تشجيع أسلوب الحفظ والصم . يجب أن يعي المجتمع الإسلامي ككل - بدءاً من الأب في عائلته - أن التقدم العلمي مرتبط ببنية حرية التفكير الخلاق ، والتي يجب بشها وزرعها والتشجيع عليها من مستوى الروضة ومدارس الأطفال ، لا يوجد سبيل آخر ، ولا يوجد بكل تأكيد طريق مختصر عن ذلك ، لتحقيق التقدم العلمي .

للأسف ، تهدف بعض الاقتراحات لأسلمة المعرفة لاتخاذ أسلوب معاكس لما سبق ، ويذكرنى هذا بالمحاولات الفاشلة في ثلاثينات ألمانيا ، عندما حاول بعض المتعصبين تنقية علم الرياضيات من الآثار اليهودية وإقامة علم الأحياء على أساس آرئى .

للأسف أيضاً ، يريد بعض القلة حصر الأبحاث في التاريخ وعلم الاجتماع والطب والعلوم السياسية والأحياء بما جاء في القرآن والسنة ، وهذا أيضاً فهم خاطئ للقرآن والسنة .

ستكون العلوم الإسلامية عندما يسهم علماء المسلمين بدور رئيسي في التقدم العلمي ، وعندما يضع المجتمع المسلم ذلك هدفاً رئيسيًا له .

وباختصار ، العلم الإسلامي هو علم يارسه العلماء المسلمين ، بروح علمية وبأساليب علمية .

وقد بدأنا نرى العودة للتطلع العلمي في العالم الإسلامي ، وخاصة في العلوم الإنسانية . ويلعب المسلمون الأوروبيون والأمريكيون دوراً هاماً . ويجب هنا أن نذكر الأبحاث الهائلة التي قام بها ليوبولد فايس - محمد أسد - (١٩٠٠-١٩٩٢) والذي قدم ترجمته وشرحه للقرآن قائلاً : لقوم يتفكرن .

هوامش الفصل الرابع

- (٥٥) الآية ٢٧ سورة النور ، صحيح البخارى كتاب الاستذان ، باب التسليم والاستذان ثلاثة .
- (٥٦) الآيات : ١٩١ آل عمران - ٧٥ القصص - ٢٩ الروم - ٢٠ الزخرف - ٢٤ الجاثية .
- (٥٧) اقرأ لـ « زيجريد هونكه » كتابيهما : « شمس العرب تسطع على الغرب » ، « الله ليس كذلك » « جوزيف شاخت وسى . إى بوسفورت » « تراث الإسلام » ميونيخ ١٩٨٣ ، « توماس أرنولد وأثر جيلام » « تراث الإسلام » أكسفورد ١٩٣١ ، « مارشال جى . إس هودجون » - « مخاتمة الإسلام » شيكاجو ١٩٧٤ .
- (٥٨) نُشرت المحاضرة - التي حضرتها - بعد ذلك في المغرب .
- (٥٩) وهو من أتباع الطريقة الأحمدية في باكستان ١
- (٦٠) اقرأ لـ « م . شريف » تاريخ الفلسفة الإسلامية - فيسبادن ١٩٦٣ ، وماجد فخرى « تاريخ الفلسفة الإسلامية » - لندن ١٩٨٣ ، « تى . جه دى بور » - تاريخ الفلسفة في الإسلام . لندن ١٩٠٣ ، « أوليفريمان » « مقدمة للفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى » كامبريدج ١٩٨٥ ، « مراد هو فمان » حول دور الفلسفة الإسلامية - كولون ١٩٨٤ .
- (٦١) « تهافت التهافت » - ابن رشد ، وله أيضا ، فصل المقال وتقدير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال « هانز فيلدريروتر » - « أرسطو ، ابن رشد وطريق الفلسفة العربية إلى أوروبا » جوتسلو ١٩٨٩ .
- (٦٢) واعترافاته التي تحرك النفوس والتي سماها « المنفذ من الضلال » ، ومن أعماله الغزيرة التي تتجاوز الأربعين ، اقرأ إحياء علوم الدين ، مشكاة الأنوار .
- (٦٣) انظر « كارل لوبيز » - « المعنى في التاريخ » شيكاجو ١٩٤٩ .
- (٦٤) « يورجن هابرمان » - « الحوار الفلسفى الحديث » فرانكفورت ١٩٨٥ .
- « مايكل هاربجتون » - « السياسة في جنازة الرب : الأزمة الروحية في الحضارة الغربية » نيويورك ١٩٨٣ .
- (٦٥) انظر « الفريد نورث وايتهد » « كيف ينشأ الدين؟ فرانكفورت ١٩٨٥ ، « جان - فرانسواليتورد » - ما بعد الحداثة - مانشستر ١٩٨٦ ، آرنست جيلز . النسبة والعلوم الاجتماعية - كامبريدج ١٩٨٥ .
- (٦٦) « بارفيز منصور » « أزمة الفكر والعقل في الغرب ، نشرة كتاب العالم الإسلامي ، ليستر ١٩٨٧ ، العدد الثاني صفحة ٣ .

(٦٧) انظر «عودة النظرية الكبرى في العلوم الإنسانية» تحرير «كونيتين سكينر» المشكلة الرئيسية في أبحاث المخ ، أن الإدراك يتم فيه وليس في العين أو الأذن.

(٦٨) كما هي حالة أحمد عبد السلام الحائز على جائزة نوبل للعلوم- الإسلام والعلوم : المجاهد الجزائرية ١٦ ، ١٩٨٩/٤/١٧ .

(٦٩) اقرأ «إدخال الإسلام في العلم» المعهد الدولي للفكر الإسلامي ، داود أسد «أسلمة المعرفة» في عالم الإسلام ٢١/١٢/١٩٨٥ .

الفصل الخامس

التصوّف

برغم أن تدخل الإسلام في تنظيم الحياة اليومية أقل كثيراً من تحكمات اليهودية ، فإن الإسلام يظهر في عيون الغرب كدين قانون أو دين أحكام ، على علمائه أن يكونوا خبراء في ذلك (فقهاء) لأن الإسلام يحاول أن يُشكل وينظم يوم المسلم كله .

هذه الملاحظة في محلها ، خاصة بالمقارنة بيوم الكاثوليكي المعاصر ، والذي ليس عليه إلا أن يذهب لقدس الأحد والذى يمكن أن يقدمه للسبت . أما الصوم وتناول العشاء المقدس ، فقد تم التضحية بهما منذ زمان على مذبح العقلانية الحديثة .

يشكل الإسلام فعلياً حياة المسلم نهاراً وليلاً ، ليس فقط في علاقة المسلم مع ربه من صلاة وصوم وزكاة وحج ، ولكن أيضاً في كافة معاملاته مع أسرته ومجتمعه والعالم كله . وقد وضع القرآن الأسس والقواعد الكلية لذلك ، ثم جاءت السنة بالتفصير والتفسيل ، وتطرق إلى آداب الحديث وأداب الطعام وأداب الزيارة ، تلك المسائل التي لم يخطر في بال الغرب أن يكون لها قواعد^(٧٠) .

اهتم الإسلام اهتماماً بالغًا بالجانب الروحي في حياة المسلم مع تحقيق توازن كامل ودقيق بين الروح والمادة . وكان محمد الأسوة^(٧١) التي تحتذى في ذلك ، وتبعه أصحابه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأخرون من الصحابة رجالاً ونساء . كانت الآخرة وجهته الرئيسية ، ولكن ما الآخرة إلا جزء العمل في الدنيا ، فمن هنا جاء الاهتمام بالدنيا . كان محمد وأصحابه المقربون مضرب المثل في التقوى والزهد ، ومارسته لما أسماه الصوفيون الموت قبل الوفاة ، دون أن يسموا أنفسهم أو يعتبروا أنفسهم متتصوفين .

ذكر الله في كل وقت ، بخشوع وصفاء قلب ، مع اليقين أن كل شئونك في يده . وبهذا تكون صوفياً - هو هدف كل مسلم ورع .

ولكن التصوف يعني أيضاً : محاولة اكتساب المعرفة الحقيقة خلال الطريق الباطني المؤصل إلى فناء الصوفي في الله .

حددت الطريقة النقشبندية . وهي ملتزمة بالسنة . ذلك كالتالي :

- * التزام الشرع حتى تصل لسلامة الظاهر .
- * الوحدة الداخلية بسلوك الطريقة .
- * اكتساب المعرفة للتقارب من الله .
- * الفناء في الله من خلال الحقيقة (٧٢) .

في الدرجتين (أو المقامين) الثالثة والرابعة من الفلسفة التأملية ما يكفي لإثارة المشاكل ، ولهما شبيه في التصوف اليهودي والتصوف المسيحي . وصف نيكولاس الكيوس القصد النهائي للتصوف الديني : اتحاد نعم مع لا ، والتغلب على إما - أو في كل الفلسفة والتنازل عن المعرفة المنطقية في الظلام الذي يتحول فيه المستحيل إلى اللازم في الحقيقة (٧٣) .

تشير درجة المعرفة المشاكل لأنها محاولة - في غير محلها - لتخطى حدود الفهم البشري (القائم على الإدراك بالحواس ، واستخدام المنطق ، والوحى للأنبياء) بالإشراق الداخلى - غير العقلانى - عن طريق الحدس والوجود الصوفى .

يمكن تبرير هذه المحاولة باعتبارها رد فعل عند المتعطشين للحقيقة بعد إصابتهم بالإحباط من تصلب نظريات المعرفة - سواء كانت لـ « كانت » أو « ويتجشتن » أو « بوير » - التي تقول لهم بعناد : يمكننا أن نفهم عدم القدرة على فهم غير المفهوم ، ولكن لا نفهم غير المفهوم نفسه . وأنه على أي فلسفة صادقة أن تنسحب من البحث فى علم الوجود وتحصر نفسها داخل نظرية المعرفة . لا يقنع غرور الصوفى بهذا النوع من العلم الجاهل ، خاصة مع ما جاءت به الآية السابعة من سورة آل عمران « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ألم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين فى قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا ألو الألباب » .

تمنع هذه الآية الحدس والظن فى تلك المسائل ، وتأخذ فى الحسبان حقيقة أن الوحى الإلهى استخدم لغة البشر المحدودة لحمل حقائق أكبر من تلك اللغة - ما وراء المادة ، باستخدام أساليب التصوير والمجاز وما إلى ذلك .

وي كلمات أخرى : علينا (وتلك نصيحة خالصة لنا إذا أردنا تجنب التلاعب بالألفاظ) أن نتوقف عن تأويل غيبيات القرآن .

تمثل الأعمال المثيرة لمحيى الدين بن عربي الأندلسى (الشيخ الأكبر) (١١٦٥)

(١٢٤٠) معرفة الخواص ، بما فيها من غنوصية وأفلاطونية حديثة تحت عباءة إسلامية^(٧٤) . والأمثال النموذجية في ذلك أقواله في الوجود والآخرة والحروف والأعداد ، ونظريته في «نور محمد». وهنا يُرفع رسول الإسلام - الذي رفض كل ذلك ، وأشباهه وما قاربه - كأول خلق الله ، في وجوده الساطع كشمس الوجود ، وكحامل الأسرار ، وغذوج النور في عالم الأفكار^(٧٥) .

أوقع السعي وراء الإشراق بعض المسلمين في متأهات التصوف القائم على سحر الأعداد ، والبعض الآخر في مصيدة الحلول الوسطى كسبيل للفهم والتوفيق وحب كل المخلوقات . نادي الصوفيون - من جلال الدين الرومي^(٧٦) وحتى فريشوف شون في القرن الحالي - بأن كل الأديان تتساوى من وجهة نظر معينة . قبل شون - تبعاً لابن عربي - التثليث المسيحي ، أي الجوهر العلوى / الجوهر / الوجود ، أو الجوهر (الأب) / الحكمة (الروح القدس) / الإرادة (الابن) .

أدى الاقتناع بأن للبعض القدرة على اكتساب المعرفة اللدنية بلا حدود ، والكشف ورفع الحجاب ، إلى تمييز نخبة أو صفو ، خاصة أنه من المستحيل تأكيد صحة أو زيف تلك المعرفة . كثيراً ما أدى ذلك إلى ظهور أقطاب صوفية ذوات شخصيات شديدة الجاذبية وفي بعض الحالات بمسحة مسيحانية .

جذب أولئك الذين سُموا شيوخ الطريقة ، أو الأقطاب ، أو أصحاب المقامات أو الخاصة (أو بابا ، أو ديدى ، أو مرابط في إفريقيا) مریدين وأتباعاً بالألاف ، بل وبالملايين ، كثير منهم من البسطاء والسدج والجهلاء .

ويشير المقام الأخير مشاكِل أكبر ، فهو يجلب معه خطر الانزلاق في فكرة وحدة الوجود : كل شيء هو الله / لا شيء هو الله ، كل شيء هو الله / الله وخلقه واحد ، الله ليس موجوداً ولكن أيضاً ليس غير موجود .

وصلت تلك الموجة ذروتها المأساوية في بغداد [عند قتل] حسين منصور الحلاج (٩٢٢-٨٥٧) ، الذي عاش نشوء الحب الإلهي^(٧٧) ، والذي ما زالت أشعاره تمس القلوب حتى اليوم .

بالطبع لا يحتاج التصوف الإسلامي أن يذهب بعيداً هكذا ، وتبرهن على ذلك تعاليم الشيخ محبي الدين عبد القادر الجيلاني (ت ١١٦٦)^(٧٨) والذى يوقره . حتى اليوم . ليس أتباعه فقط ، كذلك أعمال فريد الدين العطار (١٢٢٠ - ١١٣٦)^(٧٩) ، والأكثر أهمية أعمال حجة الإسلام أبي حامد الغزالى .

وقد يكون للجسد أيضا دوره في التصوف ، كما يفعل الدراويش الدوارة في رقصهم وإنشادهم ، وحلقات الذكر التي تتمايل مع الصوت ، الأمر الذي قد ينحدر إلى مشهد مبتذل ، وقد ينحط المريد إلى عبد مطيع لشيخه^(٨٠) .

تورطت بعض الطرق في السياسة خلال فترات التدهور ، مثل البكتاشية في نهاية الإمبراطورية العثمانية ، والوزانية في المغرب التي تعاونت مع قوات الاحتلال الفرنسي .. للأسباب السابقة ، أخذت السنة التقليدية موقفاً معادياً للتتصوف ، مثله أحمد بن تيمية (ت ١٣٢٨)^(٨١) .

ولا يفوتنا أن نذكر للتتصوف الإسلامي إيجابياته ، وبالإضافة لدوره في مجال النقوى والزهد بين المسلمين ، فقد ساعد على إبقاء جذوة الإسلام رغم العواصف المعادية القاسية في بلاد مثل الاتحاد السوفيتي وألبانيا^(٨٢) ، كذلك لعب التتصوف دوراً أساسياً في انتشار الإسلام في إفريقيا ، خصوصاً الطريقة الأحمدية - التي أسسها أحمد التيجاني - في غرب إفريقيا . بل إنه دخل المجتمعات الإسلامية نفسها . وازن الثقل الكبير لقانونية الإسلام [الأحكام الإسلامية] .

يخطئ من يعتقد انتهاء دور التتصوف الآن في عصر العلم والعقلانية ، فالعكس هو الصحيح ، فعلى سبيل المثال الطريقة النقشبندية في استانبول . كان لها ٤٥٠ تكية عام ١٩٢٠ - مازالت حية كما لو كانت طريقة جديدة [وللطرق الصوفية في مصر والسودان أتباع بالملايين] .

وقد يُدهش القارئ أن يعرف دخول كثير من المفكرين الأوروبيين الإسلام من باب التتصوف ، مثل الفرنسي «رينيه جينو» والذى طبع كتابه «أزمة العالم الحديث» سبع مرات منذ ١٩٤٦ ، ومارتن لنج في إنجلترا ، أحد مريدي الشيخ العلوى^(٨٣) ، وشارل أندريه جيليس ، الذي أطلق العنوان كاملاً لتأملاته الصوفية^(٨٤) ، ومعرفته بالله وخلقه ، لدرجة تستحوذ الإعجاب .

يمكنك أن تجد أعمال إدريس شاه الصوفية في المكان اللائق في المكتبات القيمة ، كذلك تسجيلات الموسيقى الصوفية^(٨٥) .

ويُمكن ضم أقطاب التتصوف في الأديان العظمى في قائمة واحدة ، سواء كان ذلك لإنجازاتهم ، أو للعقبات المحيطة بهم : مايسטר ايكمارت ، يوحنا الصليبي ، المجاز سيلزيوس ، تريزا الأفiliية ، الحسن البصري ، الجنيد، يحيى السهروردي^(٨٦) .

لا ينفرد الإسلام بالعودة للتتصوف ، فالقلبانية الحسیدية في ازدهار في القدس كما في نيويورك (بين اليهود) ، كذلك تعود كنائس القاعدة المسيحية للتتصوف .

قامت الخلفية وراء ذلك على الشك المتزايد ، ليس فقط في العقلانية كمنهاج ، بل كنظام علمي اجتماعي غربي ، هذا النظام الذي جلب استراتيجية التدمير النووي ، كوارث البيئة ، الفجوة بين الناس داخل الدولة ، والدول داخل العالم ، وجلب حربين عالميتين ، مع عشرات الحروب الأخرى .

لقد فضح الجيل الناشئ أيديولوجية التقدم وبين كم تستحق الرثاء .

هياً علم الطبيعة الحديث الأرضية مثل ذلك الرفض للعقلانية العلمية المادية ، عندما تطور هذا العلم في بداية القرن . وقت أن كانت مفاتيحه الجوهرية : نظرية الكم ومبدأ الشك . ليتعدى حدود المعرفة التقليدية ، إلى غموض الجوهر ، باطنية التصوف حقاً^(٨٧) .

على أي حال ، لدى الانطباع أن كثيراً من الأجيال الجديدة تريد إصلاح خطأ الارتكان المطلق على العقلانية المادية بالانزلاق في مسار خاطئ آخر ، وهو الارتماء في أحضان اللاعقلانية ، مع التسليم والخضوع الكامل للأساطير ، عملاً بالشعار القائل «ما ألطف أن يطيع المرء قدره»^(٨٧) .

يرى أوريجن بيسير آلية أخرى خلف ذلك : تجاوز رجل العصر ذنب مشكلة الخطيئة الأولى باللجوء إلى أخلاقيات صناعية [حسب الطلب والمقاس] تكفل له البراءة ، مع إقناع نفسه أن النباتات الطيبة تبرر الوسيلة والغاية لأى فعل .

ولكن لم يُجد ذلك شيئاً ، بل إنه في الواقع استبدل مشكلة الخطيئة الأولى بمشكلة أخرى وهي فقدان معنى وجوده . أدى هذا بدوره إلى ولادة الدين من جديد ، مصحوباً باللاعقلانية ، أي الاتجاه إلى الأصولية أو التصوف طبقاً لقول كارل رانر : سيكون مسيحي المستقبل صوفياً ، أو لن يكون مسيحياً على الإطلاق^(٨٨) .

أعتقد أن المسألة مختلفة قليلاً : هل يستطيع المتتصوف المتنعم بالأفلاطونية الجديدة^(**) (نظرية الواحد ونظرية الفيض) أن يظل على اقتناعه بالثالوث والمفهوم المسيحي للخلق ؟

هناك الاحتمال الثالث المنطقي : أن يصبح مسلماً ، وبهذا يجمع العقلانية مع التصوف .

(**) ولد أفلاطين بمصر ٢٠٤ أو ٢٠٥ م ، وتوفي ٢٧٠ م . الغاية من الفلسفة عنده أن يصل الإنسان إلى إفشاء الذات في الوحدة الإلهية وإيجاد التجربة الروحية التي يستطيع الإنسان بواسطتها أن يتتحد بالواحد . ينكر أفلاطين أن تكون للمعرفة العقلية أية قيمة ، وإنما القيمة كلها في التجربة الصوفية وفي الكشف وفي الذوق - الموسوعة الفلسفية ، د . عبد الرحمن بدوى .

هوامش الفصل الخامس

- (٧٠) أقرأ الحلال والحرام للقرضاوى .
- (٧١) أقرأ تصوير أحمد فون دنفر لذلك فى كتابه « يوم مع الرسول » - لىستر ١٩٨١ .
- (٧٢) مقالة زفير يعقوب . « الطرق الصوفية للدارسين فى تركيا اليوم » فى CIBEDO - فرانكفورت العددان ٥ ، ٦ صفحات ١٢٩ - ١٥٧ .
- (٧٣) « تناقض التصوف » - جريدة زيوريخ الجديدة ١٩٨٨ / ٤ / ٢٨ صفحات ٤١ .
- (٧٤) كمقدمة : « أصول الاعتقاد » لابن عربى ، « ابن عربى والأشعرية » لـ « تيلمان ناجل » فى تكريم الفلاتورى - كولونيا ١٩٩١ صفحات ٢٠٦ .
- (٧٥) بل ذهب فريشوف شون أبعد من هذا ، فقال بدون محمد ما كان العالم خلق « فهم الإسلام » ميونيخ ١٩٨٨ .
- (٧٦) يمكنك أن تجد مقدمة مختصرة فى « من الديوان » شتورجارت ١٩٦٤ .
- (٧٧) « أشعار الصوفية » ، باريس ١٩٨٥ .
- (٧٨) « فتوح الغيب » لعبد القادر الجيلانى .
- (٧٩) « المناجاة الليلية لغريد الدين العطار » . « برنارم . فايشر » كولون ١٩٨٥ .
- (٨٠) صور « توماس روس » حلقة ذكر فى مصر ، ونشرتها جريدة فرانكفورت الجماينه فى لندن ١٩٨٦ / ٧ / ٢٢ صفحات ٧ .
- (٨١) انظر العقيدة الواسطية لابن تيمية .
- (٨٢) يمكنك الإحاطة بنظرة عامة للموضوع فى كتاب « آنا ماريا شمل » «البعد الصوفى فى الإسلام» لندن ١٩٧٥ .
- (٨٣) أقرأ لـ « مارتن لنج » « ولى مسلم فى القرن العشرين » لندن ١٩٦١ ، ولـ « جون كاريتجنى » « الشیخ العلوی » باريس ١٩٨٤ .
- (٨٤) أقرأ على سبيل المثال « مارى فى الإسلام » باريس ١٩٩٠ .
- (٨٥) انظر « موسيقى الدراوיש » « ألفونس هيرت » فى فونوفورم ، العدد الرابع ١٩٩١ والإدريس أعمال كثيرة يكفيها أن نرجع إلى « المتصوفة » .
- (٨٦) أقرأ لـ « كورت روه » كتابه الصادر ١٩٩٠ فى ميونيخ « تاريخ التصوف الغربى » .
- (٨٧) تستحق الكتب الآتية القراءة :
- « الروح العلمية الجديدة » - جاستون باشيلارد باريس ١٩٣٤ ، « هنرى أتلان » باريس ١٩٨٦ ، « هانز- بيتر دور » . « الفيزياء والسمو » ، برن ١٩٨٩ .
- (٨٨) أوجين بيسر « الأصولية والتصوف » دى بريسه . فيينا ١٨ ، ١٩ / ٣ / ١٩٨٩ .

الفصل السادس

القدر في الإسلام

جاء في موسوعة «مايسن» تحت المصطلح المسيحي : «الاختيار المسبق». Predestination [ويناظره القدر في الإسلام] ، أنه مبدأ راسخ في العقيدة الإسلامية» ، وهذا صحيح [ولكن مع اختلاف المفهوم] . ويستنتج عامة الغربيين من ذلك أن الإسلام يقول بالجبر وأن الإنسان مسيير ، وهذا خطأ .

وإنه لتصور شائع عند الغرب أن ذلك المسلم الذي يعتقد أن كل شيء مكتوب منذ الأزل ، يجلس مستسلماً لقدره أمام كونه ، في ذل واستكانة ، ينظر إلى السماء (**) . ويا له من تصوير خاطئ .

الحقيقة أن الإسلام لم يغض الطرف عن تلك المسألة ، كما فعلت المسيحية . ففي الديانتين ثارت المشكلة : قدرة الله كافية في تسيير العالم ، كذلك علمه أزلى كل ما سيحدث في العالم ، فكيف يتفق هذا مع مسؤولية الإنسان عن أفعاله ؟

المعضلة بصورة أخرى هي :

إما إن الله خالق كل شيء بما في ذلك أفعال الإنسان ، فلن يكون الإنسان مسؤولاً عن أفعاله ، ولن يكون من العدل معاقبته عليها .

أو إن الإنسان خالق أفعاله ، وهذا تدخل في المشيئة الإلهية وتعطيل لقدرة الخالق .

حاولت المسيحية جاهدة فك المعضلة ، عن طريق النعمة الإلهية ، أي خلاص الإنسان بنعمة الله الأبدية واختياره لهؤلاء المخلصين [ليس بسبب عملهم] كما عند أوغسطين ، زوينجل ، كالفن وجانسينيست في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(*) ظل الغرب طوال أكثر من قرن ونصف يرمي الإسلام بالجبرية ، وال المسلمين بالاستسلام والخنوع لمصيرهم المحتمم ، وإذا بهذا الغرب في الثلث الأخير من القرن العشرين ، يرمي الإسلام بالعكس تماماً ، فيذرّعه ويشيع أن الإسلام دين ثوري يدعو للعصيان والتمرد ، وأن المسلمين إرهابيون سفاكون للدماء ، راديكاليون أعداء للسلام .

وبالطبع قاد هذا إلى مفهوم «الاختيار المسبق» من الله ، لمن يفوز بالخلاص والأبدية ، ومن يخلد في النار .

اعتبر توماس الأكويني - الذي صارت أقواله مرجعاً تقليدياً - الله خالق كل الأفعال ، ومع هذا فمعرفته المسبقة لا تملأ الأحداث ، ولكنها اقتصرت أن الإرادة الحرة للإنسان - كما جسدها التاريخ - هي جزء من خطة الله الشاملة لخلاص الإنسان .

لم يحل هذا التلاعب بالألفاظ المعطلة ، وجاءها الخل الجندي [أو جذر الخل] بعد عصر التنوير في أوروبا وأمريكا الشمالية ، مع مبدأ استقلال الفرد الذي أكد حرية الاختيار ، فحرية الإرادة أصبحت واقعاً وليس تساوقاً ، وأصبح جهلاً وتظليماً أن يتساءل أحد عن قدر ولو محدوداً عن الاختيار المسبق أو القدر ، برغم أن الإرادة الحرة ، مثلها مثل عكسها ، لا يمكن إثباتها علمياً (مع غياب الله ، تختفي بالطبع كل المشاكل الدينية) .

ووجدت تلك المشكلة طريقها في الإسلام . ظهر من قال بالجبر (الجبرية) ، وظهر في مقابلهم المعتزلة . في القرن التاسع الميلادي - الذين قالوا بالإرادة الحرة للإنسان . طبقاً لمدرسة المعتزلة ، خلق الله في الإنسان القدرة الكامنة على خلق الأفعال . وعلى هذا ترجع أفعال الإنسان إلى الله ، وإلى الإنسان نفسه (والأخير هو ما يحاسب عليه) . ولا عجب أن نجد - بعد كل تلك القرون - من يستخدم تلك الفروض ، الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) والألماني الشاب محمد بلدريم كاليسن الذي يمثل التيار المعتزلي الحديث .
يجب أن نقرأ القرآن بدقة لنتعرف على ما يقوله في تلك المسألة ، ونستخدم معرفتنا بالله - من القرآن . (٩٠) نقطة انطلاق في ذلك . ذكر القرآن لله أسماء حسنة - بمشابة صفات - وجاء في الحديث عن تسعه وتسعين اسمًا (٩١) ومن تلك الأسماء من القرآن والحديث :

* العليم - الخبر - المحيط - المحصى - الحسيب - السميع - البصير - الشهيد - الرائي -
الناظر - المدرك . . .

* القادر - القوى - القاهر - الغالب - العزيز - الجبار . .

* الخالق - البارئ - المصور - المبدئ - المجيد - الجاعل - الصانع - المبدع - الفاعل -
العامل .

* المالك - الملك - مالك الملك - الصمد .

* المنتقم .

* العدل - الحكم - القاضي .

* الرحمن - الرحيم - المحسن - المفضل - اللطيف - الغفار - التواب - الولى - المولى
- الودود .

ونقرأ في القرآن آيات مثل :

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (البقرة ٧).
﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلله يجعل صدره
ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾
(الأنعام ١٢٥) ، ﴿ ... ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (ق. ١٦) ﴿ ولقد ذرنا
لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يتصرون بها ولهم
آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (الأعراف ١٧٩) .
﴿ لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (الأنياء ٢٣) ﴿ ولو شئنا لأتينا كل نفس هداماً ﴾
(السجدة ١٣) فهو إله كل الأحداث ، وكما جاء في الأثر فإنه يعرف دبيب النملة على
الصخرة الملساء في الليلة الظلماء ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يفلت أحد
من قدره (٩٢) . إذا قرأتنا تلك الآيات بعزل عن سياقها وعن الآيات الأخرى التي
تتناول نفس المسائل ، فما أسهل أن ننزلق في فهم خاطئ لإله يهدي ويضل ، يغفر
ويعذب الناس دون رحمة ، بلا عدل ولا حكمة ، فقد قضت إرادته بذلك منذ قديم
الأزل .

وفي القرآن آيات أخرى ، يبدو من النظرة السطحية أنها تناقض ما سبق ﴿ وأما من
آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ (الكهف ٨٨) ، ﴿ وما
كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقوّن إن الله بكل شيء علیم ﴾ (التوبه ١١٥)
. ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحى إلى ربي إنه سميع
 قريب ﴾ (سبأ ٥٠) .

نادي الأشعري (٩٣٥-٨٧٤) (٩٣) بقبول ما جاء به الوحي بهذا الخصوص بدون
الخوض في محاولة فهمه بالتساؤلات ذات الطبيعة البشرية .

طبقاً للأشعري الله هو خالق القدرة لكل أفعال الإنسان ، ولكن الإنسان يكسب
ال فعل .

طور الغزالى هذا الفهم في اتجاهه مزيد من الإرادة الحرة للإنسان ، فقد خلق الله
القدرة والمقدور عليه ، القدرة على الاختيار ، والمحatar ، فكيف يمكن عزو الأفعال
للجبر ، وكل إنسان يعرف بالغريرة الفرق بين الأعمال الاختيارية وردود الفعل
الاضطرارية ؟

ويكلمات الغزالى نفسه فى الإحياء :

الأصل الثانى : أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والختار جميعا ، فاما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليس بكسب له ، وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له ، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه ، وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة ، فتسمى لاعتبار تلك النسبة كسبا ، وكيف تكون جبرا محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ، وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب .

كتاب قواعد العقائد . الفصل الثالث . الركن الثالث العلم بأفعال الله (الجزء الأول) .

أما المصلح المصرى العظيم محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) فقد قال فى رسالة التوحيد تحت عنوان أفعال العباد : كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهدى ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بآرائه ، ثم يصدرها بقدرة مافيه ، ويعد إنكار شئ من ذلك مساوايا لإنكار وجوده ، فى مجافاته لبداهة العقل .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وقدرته ، وبين ما تشهد به البداهة من علم المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض^(٩٤) فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه .

.....

جاءت الشريعة الإسلامية بمحوه { الشرك } ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقيام الأعمال البشرية :

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

الثانى : أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات .

يتفق تناول هذه المسألة بتواضع وقناعة لا أدرية مع تحذير الرسول من الخوض فيها^(٩٥) .

هذه هي خلاصة محاولات علماء المسلمين في حل مشكلة الجبرية ، أو التوفيق بين علم الله الأزلي ومشيئته ، مع إرادة الإنسان ، دون التطرف في أحد النقيضين ، وهناك فارق بين اعتبار المشكلة مع الاعتراف بتعسر فهمها ، وبين تجاهل المشكلة واعتبارها غير موجودة .

ومن المدهش إمكان القول إن اكتشافات الطبيعة الحديثة تساند تلك النظرة للمسألة ، فمنذ اكتشف ورنر هايزنبرج مبدأ النسبية عام ١٩٢٥ ، يصف علم الطبيعة حقيقة الذرة بحالتها التوفيقية وليس التبادلية (جزئيات ضد موجات) . وأصبح من السهل فهم الطبيعة الجزيئية بطريقة تشبه التوفيق بين الجبر والاختيار في الوقت نفسه ، وبذلك يمكن للمسلمين - كما وضح أورلينج شون - الرد على من وصم محاولاتهم لحل مشكلة دينية / علمية (مشكلة العلية كجزء من مشكلة الجبر والاختيار) بأنها من ظلمات القرون الوسطى^(٩٦) .

ماذا يعني هذا في الممارسة الإسلامية ؟

يحاول المسلم تحقيق أهدافه في الحياة طبقاً للمقوله الشهيره (اسع يابعد وأنا أسعى معك) ، فهو يحاول تحقيق أهدافه مثله مثل المسيحى ، أو حتى الماركسي (والذى لو أخذ ماركسيته جدياً لا أصبح من معتنقى الجبرية) .

يعرف المسلم عن يقين أنه مسئول عن أفعاله ، وأن الله سوف يكافئه على الطيب منها ، ويعاقبه على سيئها ، أو يغفو عنها ، لأنه كتب على نفسه الرحمة^(٩٧) ، وأنه غفور . يعلم المسلم أن كل شيء بيده الله ، فيبدأ عمله باسم الله ، ويطلب منه العون والمدد للنجاح ، إن شاء الله ، وينسب النجاح له ، ما شاء الله . ويطمئن برعاية الله له ، وأنه في نهاية أيامه على الأرض «إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه بيده الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط....» (يونس - ٤)

إذا وقعت بالمسلم خسارة أو مصيبة ، فإنه يلجأ إلى الله ويقنع بأن ما أصابه ما كان ليخطئه ، وما أخطأه ما كان ليصيبه كما جاء في الحديث النبوى ، وكما جاء في القرآن «... وما تحمل من أثني ولا تتضع إلا بعلمه وما يعمر من عمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير» (فاطر - ١١) «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكتم والله لا يحب كل مختال فخور» (الحديد ٢٢- ٢٣).

لاحظ محمد أسد أن الجبرية في الإسلام لا تؤثر في المستقبل ، ولكنها تتعلق بالماضي .

هوامش الفصل السادس

- (٨٩) انظر «الله اليوم» «آرنولد هوتنجر» زيوريخ ١٩٨١ .
- (٩٠) انظر «الأسماء الحسنة في الإسلام» - دانييل جيمارييه باريس ١٩٨٨ ، إحياء علوم الدين - «أبو حامد الغزالى» الجزء الأول الكتاب الثاني .
- (٩١) متفق عليه ، وروى الترمذى الأسماء عن أبي هريرة .
- (٩٢) انظر إحياء علوم الدين : كتاب قواعد العقائد ، كذلك كتاب هوتنجر السابق .
- (٩٣) انظر كتاب هوتنجر السابق صفحة ١٧ ، «الأشعرية» لم . عبد الحى ، و «تاريخ فلسفة المسلم» لـ م . شريف ، فيسبادن ١٩٦٣ ، صفحه ٢٢٠ وما بعدها خاصة ٢٢٩ .
- كذلك كتاب «ماجد فخرى» - تاريخ الفلسفة الإسلامية . لندن ١٩٨٣ صفحه ٢٠٨ .
- (٩٤) «رسالة التوحيد» - محمد عبده ، تحقيق د . محمد عمارة - دار الشروق .
- (٩٥) انظر الترمذى : باب ما جاء من التشديد فى المخوض فى القدر .
- (٩٦) «أولريش شون» - «الجبرية والحريرية فى التفكير العربى اليوم» جوتjen ١٩٧٦ ، وانظر أيضا كتاب «هانز- بيتردور (المحرر)» - «الفيزياء والسموم» برلن ١٩٨٦ .
- (٩٧) اقرأ الآية ١٢ سورة الأنعام ﴿ .. كتب على نفسه الرحمة ..﴾

الفصل السابع

الأصولية

تقوم كل ديانة أو مذهب على أساس فكري معين ، العهد القديم ، العهد الجديد ، ماركس وإنجلزوليين . ويرى الأتباع أن مذهبهم ، كامل شامل ، دقيق ، غير قابل للتغيير . كذلك يعتمد الإسلام على القرآن والسنّة .

تشترك أيضاً الأديان والمذاهب في أنها تتطور حتى تستطيع أن تواجه التحديات المختلفة في الزمان والمكان ، وينبثق عن كل منها نظام من الأفكار والعقائد ، يُعتبر الدستور الواجب اتباعه . ولكن المؤمن البسيط ، أو الرفيق ، أو الأخ ، كثيراً ما لا يسعه فهم كل ما آتاهه دستوره ، وهنا يبرز العلماء والقساوسة ومنظرو المذاهب .

ولذلك تحتاج كل ديانة أو مذهب أن تراجع تطورها وما أدخله الأتباع عليها في محاولة لإحياء أصولها الحقيقة . بهذا ظهر البروتستانت في المسيحية ، وقامت محاولة لإيجاد ماركس الأصلي ، وتحديث توماس مونتэр خصم مارتون لوثر ، أو فرانز آلت الذي يحاول استرجاع عيسى الأصلي في صورة جديدة .

هذا فقط ما يستحق أن يُطلق عليه مصطلح «الأصولية» . لا يهتم الأصوليون بإعادة تكييف الدين ليلائم الحياة العصرية ، ولكن بإعادة بعث الدين بالرجوع إلى مصادره الأصلية .

هذا الرجوع للمصادر الأصلية ، يمكن أن يتم بـنهجين : منهج عقلاني ، يرجع للمعنى والمقاصد والتأويلات وراء النصوص الأصلية ، حتى يُظهر مناسبتها وصلاحيتها لعالم اليوم ومشاكله المعاصرة . والثاني منهج حرفي ينصب اهتمامه على حرافية النصوص ، ولا يلجأ للتأنويل . ونجد المنهاجين في الإسلام .

ولكن مصطلح الأصولية بمعناه الذي ظهر في اللغة الإنجليزية ليصفه ، مصطلح أمريكي النشأة ليس له محل حقيقى في الإسلام (**). ففي القرن التاسع عشر ، عندما

(**) أطلق علماء الإسلام - قبل ظهور هذا المصطلح في العصر الحديث - كلمة أصولى على العالم الذى يبحث فى علم الأصول ، وهو علم جليل كعلوم التفسير والحديث والفقه ، وإن عده بعض العلماء أجل تلك =

اتجاه الأميركيون الإنجيليون إلى محاولة الفهم المحرفي للإنجيل وإعادة تطبيقه (ورفضوا بعد ذلك نظرية النشوء والارتقاء لداروين) (**). أطلقوا عليهم الأصوليين .

ويكمن استخدام نفس المصطلح مع يهود (***) أمثال مناحم شنيرسون الحسيدي وأتباعه في نيويورك أو بيت المقدس ، عندما يطبقون التوراة حرفيًا . فالأصولية إذن ليست محصورة في الإسلام . وقد عرفت وزارة الخارجية الألمانية «الأصولية» في مؤتمرها المنعقد في ١٩٨٧ / ٢٢ بأنها : حركة تمثل للقواعد القانونية والقيم وأساليب ممارسة الإسلام الأصلي عند ظهوره ، كنموذج لتشكيل الحاضر . فهي أسلوب لرقية العالم والتعامل معه .

للمذهب الجنبي ونظرية المعرفة الفلسفية للأشاعرة تأثيرهما على العالم السنى ، بما في ذلك التزام النصوص والبعد عن التأويل . أحيا ذلك المنهج ولـ الله الدهلوى (ت ١٧٦٣) ، محمد عبد الوهاب (ت ١٧٨٧) حركة السنوسى في ليبيا ، والجماعات الإسلامية في باكستان

اتهم البعض أصحاب ذلك المنهج بالسذاجة . إن لم يكن بالبلاهة . كما يجري اتهامهم الآن ، بسبب التزامهم بكلمات النصوص ، برغم اتفاق ذلك المنهج مع الاستنتاجات التحليلية - لفلسفة اللغة - في أحسن النصوص المعاصرة .

أكد التحليل العلمي لنصوص العهد الجديد الشكوك فيها ، فساعد على الخروج من المسيحية ، بينما أكدت التحليلات المماثلة . شديدة التدقيق . للقرآن ، موثيقته ، وتوافق الأبحاث العلمية الحديثة مع ما جاء به (**) .

ومع هذا ، يواجه الإسلام نفس مشاكل دلالات الألفاظ التي يتعرض لها كل نص : كيف ينبغي علينا أن نفهم في القرآن الآيات المبهمة أو ذات الطبيعة المجازية عندما تتحدث عن حقائق ما وراء الطبيعة التي تتجاوز نطاق مداركنا العقلية والحسية

= العلوم وأهمها شأننا . وقد عرفه أبو زهرة كالتالي : هو العلم بالقواعد التي تبين طريقة استخراج الأحكام من الأدلة .

(*) حاكمت إحدى الولايات الأمريكية في مطلع القرن مدرسا ثانويا لتدريسه نظرية داروين ، وسجنته ، وما زالت تلك الولاية تحرم تدريس نظرية داروين لتناقضها مع الكتاب المقدس .

(**) بل إن المصطلح ينطبق تماما على كل اليهود الذين يطبقون حرفيًّا التوراة عندما تتكلم عن الأرض المزعومة لإبراهيم ثم ليعقوب ، وبهذا يدعون أن لهم حق العودة لفلسطين ، وعلى هذا الأساس الأصولي قامت دولة إسرائيل الأصولية ، برغم أن غالبية اليهود بها . بل غالبية اليهود في العالم . يرفضون أكثر ما في التوراة عدا أمرتين : الأرض الموعودة ، وأنهم شعب الله المختار وبقية العالم أميون من درجة أقل . وهذا أيضا برغم أن اليهود المسيطرین على بقية اليهود في إسرائيل وخارجها ليسوا من أبناء إبراهيم ويعقوب ، ولكنهم جاءوا من وسط آسيا .

والخدسية؟ والتى لا يكمنا أن نفهمها إلا فى نطاق إمكانياتنا وحدودنا البشرية؟ حيث تستعصى تلك الحقائق على اللغة كما تستعصى على إدراكنا . لذلك يقوم الرسل بتوصيل ذلك لنا .

هذا ما يجب أن يفهمه - ليس فقط كل أصولى من أتباع المنهج الحرفى - بل كل مسلم . وهذا ما تناوله فريتز ماوثرن (١٩٢٣-١٨٤٩) ، جوتليب فرييجى (١٨٤٨- ١٩٢٥) في مقالته عن الإدراك والمعنى (١٨٩٢) ، واستخدم لودفيج ويتجنشتين (١٨٨٩- ١٩٥١) منهجه في نقد اللغة وعلم الوجود ليوضح قصور اللغة عن ما وراء الطبيعة (١٠٠) .

يجب أن يعي كل المسلمين أن محاولة الإحاطة بما وراء الطبيعة في القرآن - بما في ذلك الذات الإلهية - مستخدمين في ذلك المنطق البشري والتأويل ، لن يؤدي بهم إلا إلى خداع النفس بالتلاعب بالألفاظ ، كما حدث من قبل للفلاسفة التقليديين في ظنونهم وتخميناتهم عن الوجود .

يأخذ أصحاب المنهج الحرفى الآية السابعة من آل عمران ويطبقونها - حرفيا - على القرآن كله « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن آم الكتاب وأخر مشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الآلباب » ، ويخلون في تواضع وذكاء عن محاولة كشف ما وراء الطبيعة ، وما يكتفى بذلك من نظريات غامضة وأفكار تصوفية ، وإذا كان قبول المفكرين والباحثين عن المعرفة قول « كانت » و « ويتجنشتين » عن الحدود الضيقية لمدارك الإنسان ومنطقه ، هو علامة ذكائهم ، فلماذا نتهم المسلمين بالغباء إذا عملوا بنفس القول فيما يخص آيات ما وراء الطبيعة في القرآن؟

على هذا المنوال في فهم القرآن ، يشبه الأصولى الحرفى مؤمنا شكوكيا ، أو فيلسوفاً اسمنانيا يأخذ بالظاهر ، ولا يرکن إلى الظن ، ويجد الآية السادسة والثلاثين من سورة يونس في صفة « وما يتبع أكثرهم إلا ظننا إن الظن لا يُغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون » (١٠١)

أما الأصولية العقلانية ، فقد بدأت في العصر الحديث أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، على يد محمد عبده (١٠٢) في مصر ومحمد رشيد رضا في الشام ومصر أيضا (١٠٣) وابن باديس والإبراهيمى في الجزائر ، ومحمد أسد (١٠٤) في أوروبا . وظهرت كرد فعل للانحطاط والشلل اللذين أصابا العالم الإسلامي ذلك

الوقت^(١٠٥) ، واعتماده المتزايد على الغرب ، مما صبّغها بطابع تبريري واعتذاري . طالب هؤلاء المصلحون بتجديد الدين ، الاجتهاد في الأمور المعاصرة ، تنقية الدين مما اختلط به من خرافات وعادات وبدع ، ثم التفريق بين الشرع كما جاء به القرآن والسنّة ، وأراء الفقهاء وحواشيهن وموطّلاتهن ومعتّصراهـن وحيلـهـن ، فـهـم بلا خلاف غير معصومين^(١٠٦) . كذلك بين هؤلاء المجددون أن الشرع أرسى قواعد كليلة أو مبادئ رئيسية في مجالات النشاط الإنساني المختلفة ، ثم ترك للتنظيم البشري مجالاً للعمل طبقاً لاختلاف الزمان والمكان ، وبحيث لا يتعارض مع الشرع وبهذا تناسب الشريعة كل زمان ومكان .

للأسف لم يتمكن هؤلاء المصلحون من تطوير نموذج للدولة الإسلامية والاقتصاد الإسلامي نتبّعه في عصرنا الحديث^(١٠٧) ، ولا ننسى أنهم نشّوا في أوساط تقليدية مزودة بتراث أربعة عشر قرناً ، ولذلك شرطوا للمجتهد المؤهلات الآتية :

* إتقان اللغة العربية .

* معرفة كافية بتفاسير القرآن وعلومه .

* الإحاطة بالحديث النبوى وعلومه والسيرة النبوية .

ولا عجب أن كثيراً من يتأهل بكل ذلك لن يكون ميالاً للاجتهاد ، وبكلمات أخرى فتح الأصوليون باب الاجتهاد ولكن لم يجتاز عتبته أحد . ولذلك أيضاً فإننا حتى اليوم نرى من المدينة إلى قاس علماء أشبه ما يكونون بعلماء العصور الوسطى .

ولكن تغير الوضع منذ سبعينيات القرن الحالي - كما أكد ذلك جيل كييل^(١٠٨) - فقد حمل لواء الإصلاح وقوته الدافعة دارسو العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ، ويمكن ملاحظة تلك الظاهرة بين طلبة الهندسة في كثير من البلاد الإسلامية ، أولئك الذين إن لم يكونوا درسوا في الجامعات الغربية ، فهم قد درسوا بالأساليب الغربية ، ولكنهم ارتبطوا بالإسلام كنظام روحي وأخلاقي .

يقرأ هؤلاء الشباب القرآن متحررين من القيود التقليدية المتوارثة ، والتي عادة ما تطبع جماح الدارسين والعاملين في المجال الديني .

وهم معرضون - ككل الشباب - لأخطار المناداة بالإصلاحات الجذرية والدخول في عالم السياسة ، ويصدق هذا بالذات عندما يبحث أولئك الشباب في القرآن عن شرعية النظام الملكي ، أو نظام الحزب الواحد .

وإذا كان هناك خطر على استقرار الحكومات الإسلامية ، فإنه يتمثل في أولئك الأصوليين المتحمسين ، أكثر منه في المتعصبين الأقل فكراً .

هوامش الفصل السابع

- (٩٨) انظر «هنري . م . موريس» - «الخلق العلمي» سان دييجو ١٩٧٤ ، فولفجانج كلاوسفيتس «الإنسان والديناصور» فرانكفورت الجماينه ، ١٩٨٦/١١/٧ . والعالم الإسلامي أقل تأثيراً بهذه المسألة ، فهو لم يقبل الداروينية منذ البداية .
- (٩٩) اقرأ «موريس بوكاى» - «الكتاب المقدس والقرآن والعلم الحديث» مطبوع بلغات كثيرة طبعات كثيرة .
- (١٠٠) انظر «فريتز ماوثر» - «معجم كلمات الفلسفة» الجزء الثاني زبوريخ ١٩٨٠ ، «لودفيج فيتجنشتين» «تفسيرات في الفلسفة المنطقية» فرانكفورت ١٩٦٣ ، وله أيضاً «دراسات فلسفية» فرانكفورت ١٩٧١ . . .
- (١٠١) انظر أيضاً الآية ١٠١ - المائدة ، الآية العاشرة سورة الشورى .
- (١٠٢) رسالة التوحيد - محمد عبده ، تحقيق د. محمد عمارة ، دار الشروق .
- (١٠٣) تلميذ محمد عبده النجيب ، فسر ما يقرب من نصف القرآن على نهج أستاده ، وأصدر مجلة المنار .
- (١٠٤) محمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢) ، ترجمة القرآن على النهج السلفي ، وغموض لذلك كتابه «رسالة القرآن» جبل طارق ١٩٨٠ .
- (١٠٥) بين ذلك على أحسن وجه كتاب «هانيريش فون جالتزان» في القرن التاسع عشر ، ونشر في توبنجن ١٩٨٢ .
- (١٠٦) اقرأ محمد أسد «قانوننا» ١٩٨٧ .
- (١٠٧) إلا أن محمد أسد أجز عملاً رائعاً بكتابه «مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام» جبل طارق ١٩٨٠ . وسوف تنشره دار الشروق قريباً بإذن الله .
- (١٠٨) باريس ١٩٩٠ .

الفصل الثامن

التسامح أم العنف؟

لا يستوعب الغرب مقوله «الإسلام دين التسامح» وهي صحيحة .

ينبه القرآن مرارا وتكرارا أن اختلاف الناس - ليس فقط من ناحية اللون ، الثراء ، العرق اللغة - ولكن أيضا من ناحية المذاهب الفكرية والشائع ، هو أمر طبيعي ، بل هو من عند الله ﴿... لَكُلٌّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ بَعْلَكُمْ أَمَّةً وَاحِدَةً وَلَكُمْ لِيَلْوِكُمْ فِي مَا أَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبَثِكُمْ بِمَا كَتَمْتُ فِيهِ تَخْلُفُونَ﴾ ٤٨ - المائدة .

هذا التعدد هو النقيض التام لعقيدة الكنيسة الكاثوليكية : لاخلاص خارج الكنيسة . وتبناً رسول الإسلام بانقسام أمته لأكثر من سبعين فرقة .

تفرض الآيات الآتية التسامح :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمِنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَإِنْتَ تَكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ٩٩ - يومنس .

﴿وَقُلِّ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلِيؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكْفُرْ...﴾ ٢٩ - الكهف .

وأوضح أن الإسلام ينهى عن التبشير العدواني الذي تمارسه البعثات المسيحية . حتى رسول الإسلام نبه القرآن ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ هود - ١٢ . ﴿... وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينِ أَسْلَمُوكُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوكُمْ فَقَدْ اهْتَدَوْكُمْ وَإِنْ تُولِّوْكُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلَاغُ...﴾ ٢٠ - آل عمران . ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ١٠٨ - يومنس . ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ تكررت في سورة النور والعنكبوت وغيرها . وقتل الآية ٢٥٦ - سورة البقرة القلب والعقل في هذا التسامح الفكري والعملي وقبول الاختلاف على أنه من السنن الكونية ﴿لَا إِكْرَاهُ فِي الدِّينِ﴾ ولذلك يجب على المسلمين الجدال في المسائل الدينية بالحسنى بلا إكراه ولا فرض رأى ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْمُوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادَهُمْ بِالَّتِي أَحْسَنُ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمَهْتَدِينَ﴾ ١٢٥ - النحل .

يدعو القرآن - في كثير من سوره - للتفكير في آيات الله وتدبر أحوال الكون باستخدام العقل والحواس ، ولا يدعو مطلقاً للتزييد البيغائي للنصوص (*).

ولكن ماذا لو فقد المسلم إيمانه وارتدى ؟ حتى في هذا يتسامح الإسلام برغم معاقبة المرتدين بالقتل ، ليس فقط في العصور الوسطى بل حتى في قرنا الحالى في السودان (عام ١٩٨٥ تحت حكم النميري^(١٠٩)) فهذا يساوى بين من يهجر الإسلام في سكون ، وبين من يستبدل هذا السكون بنشاط معاذ للإسلام ، يستحق عليه تهمة الخيانة العظمى ، تلك المساواة لا يمكن قبولها أو الدفاع عنها .

على أي حال تغلب اليوم صوت العقل في هذه المشكلة ، في آراء محمد أسد^(١١٠) وفتحى عثمان ، اللذين دمغاً قتل طه محمود طه في السودان بأنه غير إسلامى بلا أى تحفظ^{(١١١)(**)}.

لم يعد تاريخ البشرية إرهاباً سياسياً أو مذهبياً ذا صبغة دينية . ليس للإسلام علاقة بذلك الإرهاب ، بالضبط كما أنه ليس للمسيحية علاقة باتباع نظرية لاهوت التحرر في أمريكا اللاتينية^(١١٢) ، أو حرب العصابات في شمال إيرلندا ، أو الجيش الأحمر في المانيا ، أو الألوية الحمراء في إيطاليا^{(١١٣)(***)} .

ومع هذا ، فهناك ميل للعنف في بعض الدوائر الإسلامية : ألا يُعاقب من يفطر رمضان جهراً في المغرب بالسجن ؟ ألا تستخدم جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - في السعودية - التليفون وقت الصلاة ليعرفوا من لا يصل إلى الجامع ؟ ألا تستخدم الجماعات الإسلامية في الجزائر العنف ضد من يشرب الخمر أو النساء الحاسرات ؟

أليس حقيقة أن هناك خوفاً داخل العالم الإسلامي من عبادة مجموعة صارمة لظاهر النصوص ، وضد جوهرها من تسامح وسعة^(١١٤) ؟

بالطبع لهذا الاتجاه سنته عند أصحابه ، فهم يرون أن آية ﴿لَا إكراه في الدين﴾ تنظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، أما بين المسلمين ، فهناك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذي أمرت به الآيات :

(*) بل ما أكثر ما نهى القرآن عن التقليد

(**) هذه مسألة خلافية الآن ، هل يعاقب المرتد بالقتل ، أم إن شرط ذلك أن يعادى الإسلام ويهاجمه ؟

(***) تاريخ وحاضر الغرب ملوثان بالدم من قمة الرأس حتى أخمص القدمين ، يكفى منه الحربان العالميتان في القرن الحالى ، واستعمار إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا والبرتغال لنصف العالم ، فهل يجوز لأحد أن يتهم المسيح والمسيحية بذلك ؟

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ ١٠٤ - آل عمران ، ﴿كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله ...﴾ ١١٠ - آل عمران . ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الحirات وأولئك من الصالحين﴾ ١١٤ - آل عمران ، ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر...﴾ ١٥٧ - الأعراف .

وفي سورة التوبة ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ...﴾ ٧١ - التوبية ، ﴿التائدون العابدون الحامدون السائدون الراکعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر...﴾ ١١٢ - التوبية .

وفي سورة الحج ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ ٤١ - الحج ، ﴿يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ ١٧ - لقمان .

وطبقاً للحديث الصحيح «من رأى منكم منكراً فليغیره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان» .

يؤدي فصل هذا الحديث عن بقية الآيات والأحاديث المعنية بنفس المسالة ، إلى تحويل بعض المسلمين لأنفسهم إلى جواسيس على بقية الناس ، يستولون على مسؤولية إقامة العدالة والنظام ، ويجمعون في أيديهم صلحيات الاتهام والتحقيق وتنفيذ الأحكام . أولئك الذين يفكرون في توسيع كل ذلك من أنفسهم يتهدكون المبادئ الإسلامية الرئيسية السبعة التالية :

- ١ - أسس القرآن الخلافة ، وبالتالي الدولة الإسلامية ، وبهذا تكون السلطة بيد الحكومة ، فإذا منعت الحكومة الخمور ، فلا يعني هذا أن يأخذ المسلم فأسه ليحطم البارات .
- ٢ - يؤدي الإجبار في مسائل الدين إلى النفاق ، والله يكره النفاق ولا يقبل عمل المنافقين .
- ٣ - طالما كانت الأعمال بالنيات ، فالإجبار على عمل لا يفيد العامل ، وقد جاء في الحديث الصحيح «الدين النصيحة» النصيحة هنا بمعنى الإخلاص .
- ٤ - إذا كان القرآن لم ينص على عقاب دنيوي لارتداد ، فكيف يكون هناك عقاب

دنوي على ما هو أقل من الارتداد ، وبدون مستند من القرآن (*)؟

٥ - أكثر ما نهى عنه القرآن ، لم يشرع له عقابا دنيويا ، فليس من اختصاص الغيورين أن يقيموا الحق والفضيلة (**).

٦ - الدولة الإسلامية - كما سيأتي - هي دولة ليبرالية (لا تفرض عقيدة ولا منهجا) ، وفرض الأفكار والأخلاق يؤدي لا محالة لدولة استبدادية .

٧ - لا يقبل الفكر أن الله وفر لغير المسلمين الحرية الفكرية والعقائدية ، ثم منع ذلك عن المسلمين .

يتضح من خلاصة ماسبق أن الأوامر القرآنية بالتسامح وقبول الخلافات الفكرية والمذهبية تسرى على المسلمين بين أنفسهم كما تسرى على غير المسلمين . يجب على كل مسلم أن يقيم العدل والحق في سلطانه ، رب العائلة في عائلته ، مدير المصنع في مصنعه ، رئيس الدولة في دولته ، ولكن ليس خارج سلطانه ، وإنما سنشاهد قيام دولة إسلامية فاشية - حفظنا الله من ذلك - حتى لو رغبت تلك الدولة في أن تصبح ثيوقراطية ، يحكمها رجال الدين .

(*) كما ذكرنا سابقا ، هناك خلاف بخصوص المرتد الساكن والساكت ، أما الذي يهاجم الإسلام والمسلمين ويفتن الناس في دينهم فلا خلاف في القصاص منه ، ويكون في ذلك من سورة البقرة ﴿... والفتنة أشد من القتل ...﴾ وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوan إلا على الظالمين ﴾

١٩٣

(**) يقصد المؤلف ما يخص حقوق الله كالصيام والحج وعدم الإشراك بالله ، وما يختص بفضائل الأخلاق ، كإنجاز الوعود والأمانة والصدق ، وليس ما يختص بحقوق الناس ، كالسرقة والقتل والقذف وما إلى ذلك من أضرار .

هوامش الفصل الثامن

- (١٠٩) أعدمت حكومة النميري عام ١٩٨٥ المفكر السوداني طه محمود طه - وهو في السبعينات - بتهمة الردة ، لأنه نادى بالتفريق بين ما له حكم الأبدية وما له حكم وقى في القرآن .
- (١١٠) أقرأ « رسالة القرآن » لمحمد أسد - جبل طارق ١٩٨٠ ، الهاشم السفلى ٤٥ على الآية ٣٣ سورة المائدة ، وكذلك « الإسلام » - محمد حسين الله .
- (١١١) « الإسلام وحرية العقيدة » - فتحى عثمان ، عربية ، لندن ، يونيو ١٩٨٥ صفحة ١٠ ، نوفمبر ١٩٨٥ صفحة ١١ .
- (١١٢) أدان الفاتيكان في ١٩٨٤ عنف لا هوت التحرير وأدان الزعم بضرورة العنف للتحرير.
- (١١٣) انظر « توماس روس » - فرانكفورت الجماينه ، ١٩٨٥ / ٧ / ١٢ .
- (١١٤) انظر سليمان زيدور « نهاية الإسلام الكيس » في جريدة الصحاري المغربية ، الدار البيضاء . ١٩٩١ / ٢ / ٢٤ صفحة ٨ .

الفصل التاسع

جمهوريّة أم ملكيّة؟

السنة والشيعة

أعرف أنه لا جدوى من القول لو كان كذا لكان كذا في أحداث التاريخ . . . ومع هذا فلا يمكن مقاومة افتراضات وأسئلة مثل :

ماذا لو أن علي بن أبي طالب خلف الرسول ؟
وماذا لو أنه جاء بعد عمر بدلاً من عثمان ؟
هل كان سيصبح - بدون تطوع - إمام الشيعة ؟

كفانا من هذه الأسئلة ، ولكن ألفت النظر إلى استنتاجين تاريخيين ، لكل منهما معزاه المقام : كلنا نعرف أن علي ابن عم الرسول ، أول من أسلم من الفتىـان ، ومن أول من أسلم من الرجال إن لم يكن أولهم . آثره الرسول بابنته فاطمة ، هذا الفقيـه العـقـرى ، هو الورع التقى ، هو حـكـيمـ الحـكـماءـ وهو بلـيـغـ الـبـلـغـاءـ ، وهو فـارـسـ الفـرـسانـ ، هو أـيـضاـ الزـاهـدـ المنـصـوفـ والـقطـبـ بينـ الأـقطـابـ ، وبـجمـلةـ واحـدةـ هوـ منـ أـقـرـبـ البـشـرـ لـلـإـنـسـانـ الكـامـلـ .

وقد يـمـتـ الأمـيرـ عبدـ القـادـرـ الجـازـائـريـ قـطبـ القرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ وـبـطـلـهـ إـلـىـ طـبـقـةـ أولـئـكـ السـابـقـينـ . اـمـتـازـ عـلـىـ بـكـلـ المؤـهـلـاتـ المـطـلـوـبـةـ ، وزـادـ . ولـكـنـ منـ حـكـمـ التـارـيـخـ أـنـ الـخـلـافـةـ تـجاـوزـتـ عـلـىـ ثـلـاثـ مـرـاتـ ، اختـارـ الـمـسـلـمـونـ أـبـاـ بـكـرـ ، ثـمـ اختـارـواـ عـمـ ، ثـمـ اختـارـواـ عـثـمـانـ [ولـلـثـلـاثـةـ أـيـضاـ فـضـائـلـهـ الـمـشـهـورـةـ وـسـجـلـاتـهـ الـحـافـلـةـ ، ويـكـفـىـ أـبـكـرـ قولـ الرـسـولـ إـنـ لـهـ عـلـيـهـ يـدـاـ يـكـافـهـ اللـهـ بـهـاـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ ، ويـكـفـىـ عـمـرـ قولـ الرـسـولـ : لـمـ أـرـ عـبـرـيـاـ يـفـرـيـ فـرـيـهـ ، وـتـسـمـيـتـهـ إـيـاهـ الـفـارـوقـ ، ويـكـفـىـ عـثـمـانـ قولـ الرـسـولـ ماـضـرـ عـثـمـانـ ماـفـعـلـ بـعـدـ ذـلـكـ] . بـهـذـاـ أـكـدـ التـارـيـخـ الـإـسـلـامـيـ مـبـداـ اـخـتـيـارـ الـأـمـةـ لـلـحـاـكـمـ ، وـأـنـ الـحـكـمـ لـيـسـ بـالـوـرـاثـةـ . وـمـعـ هـذـاـ عـضـ الـأـمـوـيـوـنـ وـبـعـدـهـمـ الـعـبـاسـيـوـنـ وـبـعـدـهـمـ الـعـشـمـانـيـوـنـ عـلـىـ الـحـكـمـ ، فـأـصـبـحـ كـمـاـ قـالـ الرـسـولـ مـلـكـاـ عـضـوـضـاـ (**)ـ .

(**) وهو كذلك حتى اليوم في كثير من الدول الإسلامية، إن لم يكن أكثرها.

أما ثانياً فلو تم اختيار على خلافة الرسول هل كان هناك محل لنشر الشيعة التي [بفرقها الأربعة : الزيدية ، الاثنا عشرية ، الإسماعيلية ، العلوية] تعيش في أفغانستان ، باكستان ، إيران ، اليمن ، الخليج العربي ، العراق ، سوريا ، لبنان .

ويبدو أنه غير معنٌّ إلا تأثير ديانة عالمية بالحضارات المختلفة لأتبعها . فأبسط وأوضح المظاهر اختلاف طرائف المساجد في الأندلس والمغرب عن تلك في تركيا ، أو الهند المغولية ، [أو إندونيسيا ومالزيا] .

لذلك كان من المنطقى أن يكون للإسلام لونه الخاص في إيران ، خاصة أنه جاء على ثقافة مشهورة بخيالها الدينى الواسع ، إن لم يكن الأسطورى . (كانت فارس موطننا – إن لم تكن مولداً – لعبادة الشمس والنار ، الزرادشية ، المازدكية ، النساطرة ، الغنوصية ، الأفلاطونية الحديثة ، وأخيراً فرقة الحشاشين والبهائية) ، والتساؤل المناسب هنا : هل يؤدي كل هذا إلى طائفة ذات مزيج تركيبي توافقى ؟

كيف نشأت الشيعة التي كثر الكلام عليها الآن ، رغم أنها تمثل أقل من ١٥٪ من العالم الإسلامي^(١١٥) ؟ بدأت مع خلاف سياسي في مسألة الخلافة . يجب أن تذكر قوة الروابط العائلية والقبلية في عصر البعثة ، والتي كانت تمثل مصدر الحماية الوحيدة للإنسان . ذلك العصر ، والذي كان يعيش طبقة تقليدية راسخة ، ثم تخيل بعد ذلك المبادئ الجديدة – والمغايرة تماماً – التي جاء بها الرسول عن الأمة : « إنما المؤمنون أخوة . . . » الحجرات ١٠

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آواوا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بهما تعلمون بصير »^(١١٦) ٧٢ - الأنفال

« . . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . »^(١١٧) ١٣ - الحجرات .

فلا عصبية قبلية ، ولا طبقية ، ولولاء للإسلام وللمسلمين ، ولا نقض للعهود والمواثيق^(١١٨) .

ولتتدارك كيف أصبح الملك حاكماً لكل قبائل المدينة (بل وكيف أصبح بعده أبو بكر ، وهو ليسنبياً ، ولا من أكبر بطون مكة ، كذلك عمر بعده ، حاكمين ليس للمدينة فقط ، بل وللجزيرة العربية كلها) .

زوج محمد زيداً مولاً من زينب بنت عمته ، وجعل بلا لا الحبسى مؤذناً ، واصطفى سليمان الفارسي مستشاراً له وقال : سليمان من أهل البيت .

لم يأمر محمد ب الخليفة من بعده ، بل ولم يوص بأحد حتى تتساوى فرص المؤهلين^(١١٧) . اختار المسلمون أبا بكر لقدمه في الإسلام وصحته للرسول ، وبذله وعطائه ، ورجاحة إيمانه وفكرة . ثم اختاروا عمر ، ثم اختاروا عثمان ، ثم اختاروا عليا .

وبينما قال كثير من أهل السنة بوجوب حصر الخلافة في قريش ، قال الشيعة بوجوب حصرها في أهل البيت ، على ونسله من فاطمة . خرج معاوية على الخليفة الشرعي على ، وقامت أول حرب أهلية بين المسلمين ، وانشق الخوارج عن علي ، ثم اغتاله ابن ملجم ٦٥٧ م . تنازل بعد ذلك ابنه الحسن لمعاوية ، والذى نصب بعده ابنه يزيد الذي لم يكن أهلاً لخلافة المسلمين وابتدع مبدأ الملك العضوض في الإسلام [خاصة وفيهم عبد الله بن عمر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير وغيرهم] ، فدعا أهل العراق الحسين ، وفي طريقه اغتاله جنود يزيد في كربلاء في العاشر من محرم ٦٨٠ م .

ولكن الأكثر خطورة - إن لم يكن مأساوية - ذلك القمع والاضطهاد اللذان أديا إلى نشأة الشيعة^(١١٨) بطابعهم الخاص المميز لهم عن أهل السنة ، برغم أنهم أنفسهم عدة فرق : الزيدية ، الاثنا عشرية ، الإسماعيلية ، العلوية^(١١٩) ، الدروز ، البكتاشية (*) ويمكن حصر الخلاف بين الشيعة الاثنى عشرية (**) وأهل السنة في الفروق الرئيسية الآتية :

١ - يعتقد الشيعة أن أئمتهم الاثنى عشر معصومون (علي ، الحسن ، الحسين ، علي زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، علي الرضا ، محمد الجواد ، علي الهادى ، الحسن العسكري ، محمد بن الحسن) وذلك وراثة من الرسول - تأويلاً للآلية ». إنها يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا » ٣٣ - الأحزاب .

(*) أقرب الشيعة للسنة فرقة الزيدية ، وهم في اليمن ، أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين . وإذا كان الشيعة الاثنا عشرية لا يأخذون بالحديث الذي يرويه أهل السنة - إلا في حالات معينة - وكذلك أهل السنة بالنسبة للشيعة ، فإن الزيدية يأخذون برواية الطرفين . ثم الشيعة الاثنا عشرية وهم يلون الزيدية في القرب من السنة ، وهم في إيران والعراق والخليج العربي ولبنان وأفغانستان وباكستان ، ثم بعد ذلك الإسماعيلية ، أو الباطنية ، وهم يغاليون في تأويل القرآن وموطنهم الهند وباكستان وأفغانستان ، وبعد ذلك العلوية وهم أكثر فرق الشيعة تطرفاً وتجييداً لعلى ، وموطنهم سوريا ولبنان . والدروز ، والخلاف معروف بخصوصهم إن كانوا مسلمين ، ويعيشون في سوريا ولبنان وفلسطين .

(**) هم أكثر فرق الشيعة عدداً الآن ، ويمثلون مذهبها وسطاً بين الزيدية والإسماعيلية ، أطلق عليهم هذا الاسم لاتخاذهم من علي وأئمته الاثنى عشر إماماً يعتقدون أنهم معصومون فيما يختص الشريعة .

٢ - يعتقدون بأنّ الرسول أوصى بالخلافة لعلّ عند غدير خم ، في طريق العودة من حجة الوداع ، عندما قال : من كنت مولاه فعل مولاه . [وغالب العلويون - وهم فرقة أخرى من الشيعة - في سوريا وتركيا في تمجيد على ، حتى فضلوه على الرسول ، بل ومنهم من قال بحلول الله فيه كعيسى].

٣ - يعتقدون باختفاء ^(١٢٠) الإمام الثاني عشر في سرير تحت الأرض منذ ٢٣٨ هـ وييتظرون عودته إماماً مهدياً ^(**).

٤ - يتولى العلماء قيادة الأمة طيلة غياب الإمام المختفى ، كما ينص الدستور الإيراني الصادر ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ في فصله الأول ، المادة الخامسة .

يتولى العلماء المرجعيون مسؤولية وصلاحية القيادة في جمهورية إيران الإسلامية طيلة فترة غياب الإمام المختفى ، عجل الله بظهوره .

٥ - يصبح الحزن والأساوية شعور الشيعة ، والظلم الذي قاساه على والحسين ، ويتجلى ذلك في احتفالاتهم الدموية العنفية في العاشر من محرم ، بما يذكروا بما يفعله بعض المسيحيين في أسبوع الآلام .

٦ - ولدت مشاعر الإضطهاد والقمع عند الشيعة لعدة قرون قوة دفع ثورية ، صرحت بها المادة ١٥ من الفصل العاشر : تساند إيران كفاح المظلومين ضد الظالمين في كل أنحاء العالم .

لم يعد أحد يسمع تلك النغمة منذ البيان الشيعي ١٨٤٨ م.

٧ - أخيراً هناك زواج المتعة ^(**) الذي يأخذ به الشيعة ، أما عند أهل السنة فقد تم تحريمه بعد أن كان جائزًا .

(*) كذلك يتذكر كل من اليهود والمسيحيين وأهل السنة إماماً ، هو المسيح عند اليهود والمسيحيين ، وهو المهدى المتظر عند أهل السنة

(**) جاء في كتاب أحكام الأسرة في الإسلام - محمد مصطفى شلبي :

لا خلاف بين الفقهاء في أن هذا اللون من الزواج قد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، وبعبارة أدق في بعض غزواته لأمر طارئ يدعوه إليه .

ذهب الجمورو من الفقهاء إلى أن زواج المتعة منسوخ ، وذهب الشيعة الجعفرية (الإمامية الاثنا عشرية) إلىبقاء مشروعيتها لأنها لم يثبت عندهم نسخه كما يقولون ، وهو نوع من النكاح يسمونه المنقطع ويجعلون له أركاناً وشروطها ، يثبت به النسب ولا يثبت به الميراث إلا إذا شرط الزوجان ، كذلك ليس للزوجة نفقة إلا مع الشرط . تثبت به حرمه المصاهرة ، لا يقع به طلاق ، وإنما تبين منه بانقضاء المدة ، وهذا عدة فصلتها كتب الفقه الإمامي .

من يتعرف على الإسلام من هذا الكتاب ، سوف يفهم لماذا لا يقبل أهل السنة المذهب الشيعي ، ويرونه تشوياً للإسلام . يفهم أهل السنة من الإسلام أن كل الناس متساوون ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى^(١٢١) ، ليس فيه بناء هرمي [له قواعده ونظمها] لا يترى على قمته أحد [إلا من استحق ذلك بعلمه وعمله] .

ختاماً غنى عن القول إن أهل السنة يجلون الرسول ، ويحبونه ، ويحبون عليا ، ولكن دون تاليه^(*) ، وطبقاً لما جاء في القرآن والسنة الصحيحة «إنما أنا بشر مثلكم»^(**)

جاء في الحديث الصحيح عند مسلم «من قال لا إله إلا الله ، وصل إلى قبلتنا ، وذبح ذبيحتنا ، فهو المسلم الذي له ذمة الله ورسوله» ، يجب هذا الحديث أى خلافات بعد ذلك في الفروع ، ولكن لا أرى فرصة في المستقبل لتوحيد السنة والشيعة بعد فرقة دامت ١٣٧٠ سنة شمسية ، قد يمكن الاتفاق على المسائل العملية ، ويمكن تمهيد الطريق لقبول المدرسة الشيعية في الأحكام كمذهب خامس^(***) . ولكن هناك ما لا يقبل التفاوض بين الطرفين ، فيبقى أن يتعايشا معاً بسلام^(****) .

(*) أكثر فرق الشيعة تبجيلاً لعله وبعدها عن أهل السنة ، هم العلويون ويعيشون في سوريا وتركيا ، والبكاشية في تركيا .

(**) وفي الحديث «هون عليك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»

(****) يتم في الأزهر – منذ أمد بعيد – تدريس المذهب الثالث عشرى ، بل إن القانون المصرى في المواريث أحد بعض أحكام المذهب الشيعى .

(****) خاصة في وقت يعيش فيه المسلمين والمسيحيون واليهود في سلام .

هوامش الفصل التاسع

- (١١٥) أقرأ «الشيعة في الميزان» - محمد جواد مغنية . لبناني وأحد علماء الشيعة المعاصرين ، «على إرؤين بوير» - «الشيعة» في Clbedo فرانكفورت ١٩٩٠ رقم ٤ صفحة ١٠٦ - ١١٣ ، ووصف جيد لروح الشيعة في كتاب «شول - لأدور» «إن الله مع الصابرين» شتوتجارت ١٩٩٣ صفحة ١٣٣ - ٢٠٧ .
- (١١٦) هل هناك أولوية - بين المسلمين - للذوي القربي ؟ أقرأ الآية ٧٥ سورة الأنفال ، وال السادسة سورة الأحزاب ، واقرأ «رسالة القرآن» لمحمد أسد ، الهاشم السفلى ٨٦ على الآية ٧٥ سورة الأنفال ، والهاشم ٩ على آية الأحزاب .
- (١١٧) رأى عمر ذلك ، انظر «الفاروق عمر بن الخطاب» - «هاليد أونال» كولون ١٩٨٦ صفحة ٦٢ .
- (١١٨) الإمام السادس عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية جعفر الصادق ، ينظر إليه مؤسساً المذهبين الحنفي والمالكي على أنه إمام في المذهب السنّي ، انظر «م . م . إحسان» نشرة كتاب العالم الإسلامي - ليستر ١٩٩٠ رقم ١٠ صفحة ١٢ .
- (١١٩) عرفهم «أنتون ريرل» بالشيعة بدون شريعة ، وهم في سوريا ولبنان وتركيا .
- (١٢٠) «خيبة الإمام الثاني عشر» - «جاسم م . حسين» لندن ١٩٨٢ .
- (١٢١) بrgض ذلك ، يوجد عشرات الآلاف من المسلمين اليوم يعتقدون أنهم من نسل الرسول ، ويسمون الأشراف والأسياد ، في جميع أنحاء الأمة الإسلامية ، ومنهم من يعتقد أن ذلك النسب أهل للدخول الجنة ، ويعمل ما يشاء في الدنيا ، وكثيراً ما قابلت منهم في المغرب من قدم نفسه على أنه من نسل الرسول ، وفي يده كأس الويسيكي .

الفصل العاشر

الدّولة الإِسْلَامِيَّةُ

يبدو من علاقة الغرب بالإسلام ، اختلافها غير القابل للتوفيق في نظرية الدولة . ففى الغرب ، نجد العلمانية كنموذج ، حيث يفصل الدين عن الدولة^(*) وسارت فرنسا أكثر من أي دولة أخرى في ذلك ، بينما لم يُفك ارتباط الدين بالدولة في معظم أوروبا الغربية وأمريكا (التعليم الديني ، الصلاة بالمدارس ، ضرائب الكنيسة ، الإجازات ، صلوات الأحد) ، ومع هذا ، يُعد - نظرياً - عدم تدخل الدين في أمور الدولة ، أحد الشروط الأساسية لنظام ديمقراطي متعدد الأحزاب ، قائم على فصل السلطات . ويستند الغرب في ذلك على قول المسيح : اعط مالقيصر لقيصر واعط مالله لله^(**) .

على العكس من ذلك ، نجد الإسلام ينادي بأنه دين ودولة ، تقوم على الشورى .

(*) لا يمكن تعميم هذا القول ، والتاريخ والحاضر لا يؤيدان هذا التعميم ، وخذ مثلاً أكثر دول الغرب أخذًا بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة ، ففرنسا ، وانظر تاريخ وحاضر بعثتها التبشيرية وصلتها بالحكومة وما فعلته بالدول التي استعمرتها . وخذ من أمريكا مثلاً وأضحا ، اقرأ في كتاب « غطرسة القوة » ومؤلفه ولIAM فولبرايت أحد السياسيين البارزين في السبعينيات والستينيات ، وعضو في الكونجرس لثلاثة عقود ، جاء في صفحتي ٤٦ ، ٤٧ من الكتاب الذي نشره مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام :

لقد دخلت الولايات المتحدة الحرب في ١٨٩٨ لسبب معطن ، هو تحرير كوبا من الطغيان الإسباني ، ولكن ما إن انتهت الحرب ، حتى قامت الولايات المتحدة بوضع كوبا المحروقة تحت الحماية الأمريكية . وبعد ذلك ضممت الفلبين لأن الله - كما يقول الرئيس ماكينيل - قد أفضى إليه بأنه من واجب أمريكا أن تعلم الفلبينين وترفع من شأنهم وتنقلهم إلى طور الحضارة وتعلّمهم المسيحية .

لقد عبر ألفريد بفریدج - الذي سرعان ما انتخب لعضو مجلس الشيوخ - عن روح العصر حين قال لي إن الأمريكيين هم الجنس الغازى ، علينا أن نمثل لما تمليه علينا دمائنا ، فنعتدل أسوأً - جديدة وأراضي جديدة أيضاً إذا لزم الأمر ، لأن غاية الله النهائية تمثل في حتمية اختفاء الحضارات المنهارة والأجناس الضعيفة أمام الحضارات العظمى التي تنشئها الأجناس الأكثر نبلًا وحبيبة .

هذا بعض مما في الكتاب !

ثم إنه لا يخفى على أحد أن انجاز العالم الغربي الواضح لإسرائيل ، دعمته الآذان الصاغية في الغرب لزعم اليهود أن فلسطين هي أرضهم الموعودة كما جاء في الكتاب المقدس ، واستمر ذلك في سياسات الغرب نصف قرن .

كذلك ، لا يخفى على أحد الدور الرئيسي الذي لعبه البابا بولس في اهيار الشيوعية بتعاونه مع أمريكا ، وبدأ ذلك الاهيار من كنائس بولندا وألمانيا الشرقية ورومانيا .

(**) وهذه مرجعية دينية بحثة ١

وحتى إذا لم نجد هذا النص حرفياً في القرآن، فإن آيات القرآن تتكلم من إنسان يجب عليه أن يفكر ويتكلم ويعمل، ومحوره في كل حياته إقامة الدين، فالإسلام يشمل ويصنع كل حياة المسلم^(*).

يعتقد المسلمون أن مبدأ الغرب في نظرية الدولة وهم، أو ربما خداع نفس، ومن البدويات عندهم:

• لا يمكن أن تخلو دولة من مذهب ، فحتى زعمتنا بدولة لا مذهبية علمانية ، فهذا نفسه مذهب.

• محاولة فصل الدين عن الدولة لن يؤدي إلا إلى حالة انفصام في شخصية الناس ، فلا أحد يستطيع أن يعيش فترة مارسأ لإيمانه وفترة كافراً به^(**) فالمؤمن الحقيقي لا يستطيع أن يخلع إيمانه ويعُلّقه على المشجب فور دخوله مكان عمله . وكانت هذه وجهة نظر المسيحيين والغرب ، من قبل مكيافيلي ومن بعده ، وحتى مرور فترة - ليست قصيرة - من القرن التاسع عشر. وفي الحقيقة حدث ذلك التحول في أوروبا بعد انتصار الرجل صاحب شعار « القوة هي الحق » على رجل السمو والحق والزهد .

تم تقديس الدولة وبناء النظريات السياسية لذلك ، والتي يمكن بسهولة دحضها كدليل رث للجانب الروحي [مثلاً في الدين] المستبعد من حياة الإنسان^(١٢٣) . لذلك اتسم رد فعل العالم الإسلامي بالحساسية الشديدة عندما شكك على عبد الرزاق في مبدأ الإسلام الذي لا يفصل بين الدين والدولة ، وأوصى بدولة علمانية . والمبدأ ليس الدين هو الدولة ، وإنما الإسلام دين ودولة ، وهذا يعني أن الاثنين ليسا واحدا ، ولكن يجب أن ينسجموا ويتوافقا تحت أحکام الشريعة .

هل هناك نظرية إسلامية للدولة؟^(١٢٤) .

هذا ما بحثه المستشرقون الألمان أمثال جوستاف فون جرونباوم^(١٢٥) وتيلمان ناجل^(١٢٦) وليس هذا البحث بالهين . رغم أن هناك بعض المنظرين السياسيين المسلمين – ولكنهم قليلون - الذين ارتفعوا مستوى عالياً ، مثل الفارابي^(١٢٧) (٩٥٠-١٢٧) ، نظام الملك الطوسي^(١٢٨) (٩٧١-١٠٩٢) والأهم شأننا من الجميع الماوردي^(١٢٩) (٩٧١-١٠٥٨) .

المشكل في المسألة ، أنهم جميعاً استعاناً بنصوص جد قليلة من القرآن ، فكانت

(*) تحدى القرآن تلاميحاً وتدخلات يستعصيان على الفصل بين آيات العقيدة وأيات الشريعة والعمل .

(**) للأسف أصابت حالة الشيزوفرانيا هذه كثيراً من المسلمين في البلاد الإسلامية مثل هذا السبب ، وتطورت هذه الشيزوفرانيا ونمط حتى أصبحت تحدى من يصل ويصوم ويحج ثم يكتب وينقض الوعد ويؤذى الناس ويفسد في الأرض ويهلك الحمر والنسل . فكانها تحول الإسلام إلى دين طقوس تؤدي ، ثم يفعل المسلم بعد ذلك أي شيء وكل شيء .

النتيجة «أعمالاً بشرية غير معصومة من الخطأ» كما يقول الأصوليون العقلاً نيون . وفي الحقيقة ، فإن القرآن الذي نزل بعد أفلاطون ، وقبل دانتي وكارل ليل وهيجل ، لم يتكلم عن الدولة بمفهومنا المعاصر ، ولكن عن الأمة التي تُمكّن لإقامة الإسلام .

وفي الواقع يمكن استخراج ثلاثة مبادئ رئيسية من القرآن خاصة بالدولة ، وذلك من أكثر من ستة آلاف آية ، منها مائتان أشبه بالقوانين .

* المبدأ الرئاسي : يتولى الرئاسة فرد ، ليس نخبة أو جماعة ، يعمل ك الخليفة للرسول وليس مثلاً لله كما في المفهوم البابوي .

* مبدأ الشورى : تخضع ممارسة التشريع والتنفيذ لمبدأ الشورى^(١٣٠) .

* مبدأ إسلامية الدولة^(١٣١) : يجب أن يكون رئيس الدولة مسلماً ، تتفق كل التشريعات مع الشرع فهو بمثابة الدستور الأعلى للدولة .

ويمكتنا - بطريق غير مباشر - استنتاج مبدأ ديموقراطى من المبادئ السابقة ، ومن حقوق الأمة وتأكيد وتكرير القرآن لإقامة الحق والعدل ، أن الشورى ملزمة^(١٣٢) .

وهذا ما نادى به من قبل محمد عبده ، ورشيد رضا ومولانا أبو الأعلى المودودى ، ومحمد أسد ، واليوم فتحى عثمان وسعيد رمضان^{(*) (١٣٣)} .

ولكن لا يفهمن أحد أن ديمقراطية الإسلام تعنى سيادة بلا حدود لإرادة الشعب . فكأى برلمان آخر ، يتبع البرلمان الإسلامي الدستور ، وهذا الدستور لا يخالف الشريعة . وداخل هذا الإطار الواسع - عدم مخالفة الشريعة - يتحرك البرلمان ويشرع في كل مجال ، اقتصادى ، جنائي ، ... وغير ذلك ، فالقرآن يفسح بمرونة كبيرة مجالاً واسعاً للعقل البشري للعمل في صالح الأمة .

ولقد قدم محمد أسد عمله الرائد «مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام»^(**) . وذلك حصيلة عمره من الدراسة والبحث والتأصيل ، وبين فيه الدولة الإسلامية الماثالية :

- * دولة جمهورية يحكمها القانون ويرأسها مسلم .
- * ذات دستور لا يخالف الشريعة .
- * تعمل على أساس الشورى .

(#) قال علي بن أبي طالب في تفسير الآية ١٥٩ من سورة آل عمران «إذا عزمت فتوكل على الله» إنها تعنى مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم - تفسير ابن كثير . بل إن الرسول قال لأبي بكر وعمر إذا اتفقتما على شيء ما خالفتكمي .

(**) ستقوم دار الشرق بترجمته ونشره قريباً بمشيئة الله .

* لامانع أن تشابه الأنظمة الغربية في فصل السلطات - التعددية الخزية - حقوق الإنسان - حماية الأقليات (*).

أرسى التاريخ الإسلامي منذ فجره اختيار رئيس الدولة ، باياعت الغالبية العظمى من المسلمين أبا بكر خليفة للرسول ، ثم رشح أبو بكر عمر لخلافته ، وتم قبول ذلك بالإجماع ، ثم اختار مجلس الشورى المكون من ستة من أعلام المسلمين - اختيارهم عمر - عثمان ، ثم باياع أكثر الصحابة والمسلمين عليا .

طالب المسلمين الأوائل بمؤهلات للترشح والتصويت أيضاً [أعطيت الأولوية لأهل بدر] ، ثم بدأت الأجيال اللاحقة تضع شروطها في أهل الخلق والعقد وبينما غالى الفاطميون في اعتبارهم الصفات فوق البشرية للخلفاء ، اتجه المسيحيون [بعد عدة قرون] في أوروبا للديمقراطية ، حتى أصبح كل المطلوب عدد الأصوات الذى يكفل اختيار وكيل عريف سابق (هتلر مثلاً) أو مثل سابق (ريجان مثلاً) أو رئيس مخابرات سابق [بوش مثلاً] رئيساً للدولة ، مثلهم في ذلك مثل أستاذ جامعى محترم متخصص في العلوم السياسية . لم يصب ذلك العالم الإسلامي بعد .

بعد هذه الخلفية التاريخية لل المسلمين الأوائل ، واضح أن التأويل والتنظير التقليدي للإسلام يسمحان بأشكال مختلفة من الحكومة ، بما في ذلك النظام الملكي ، طالما استند هذا إلى إجماع – رسمي أو غير رسمي – وبالتالي أصبح شرعا ، وما زال شخص الحاكم الطيب والعادل يراود المسلمين ، خاصة السلفيين الحدد .

تقابل الدولة الإسلامية نفس المشكلة التي تقابلها كل الدول ، الخوف من استغلال الحكومة للسلطة ، فهي تحتاج من يراقبها ، ولكن من سوف يراقب الحكومة؟ لابد من مؤسسات تقوم بذلك ، ولابد من أن يعمل العقل البشري ليجد نظاماً يوفر ذلك .

(١) فصل السلطات : هذه مسألة تحتاج كثيراً من النقاش والتفصيل ، وهي تحت المراجعة الآن في الغرب (٢) التعددية الخزفية : إذا كان المقصود بالأحزاب تعدد وجهات النظر وأختلاف البرامج ، فهذا مبدأ مقرر في الفكر الإسلامي ، أما إذا كان المقصود تبادل الاتهامات والتجريح ، وإعاقة الحكومة والعمل على إسقاطها فهذا غير مقبول بالمرة في الإسلام . وستنضر布 أمثلة واضحة من أمريكا أم الديمقراطيات في العالم الحديث : ● قالت أم نيوت جينجيتش الجمهوري - رئيس مجلس النواب - في التليفزيون عن زوجة كليتون بالحرف الواحد : إنها عاهرة ! ● قال الجمهوريون بعد أن أصبحوا أغلبية في البرلمان : سنجعل كليتون كالبطلة العرجاء ، وسنعطيه عن زيارة اليابان . وعن الديمقراطيين في البرلمان : سنجعل حياتهم عذاباً ● قال كليتون قبل ذلك على حكومة بوش : إنها خانت الشعب الأمريكي وإنها تعمل لصالح أصحاب المال والفوذ في واشنطن . ● رد دول على اتهام كليتون بالمثل : الشعب لا يثق في الحكومة ، ولا يثق في أخلاقياتها ولا كفاءتها (٣) أما حقوق الإنسان وحقوق الأقليات ، فقد كفلها الإسلام منذ ١٤٠٠ سنة .

(وإذا كان الميثاق الذى عقده الرسول مع أهل المدينة عند هجرته ، عملاً سياسياً قانونياً فريداً بعيداً النظر ^(١٣٤) ، فهو لم يهدف من ورائه لتنظيم شئون الدولة ، ولكن بالأحرى تأمينها ، فهو أشبه بمعاهدة تحالف) .

ولذلك لا نعجب عندما نجد المسلمين - مثل المسيحيين - أقاموا في تاريخهم مختلف أنواع الدول ، قبائل حاكمة ، أنظمة تقوم على الحزب الواحد ، دكتاتوريات عسكرية شخصيات كاريزمية ، ملكيات ، دولة دينية ^{(*) (١٣٥)} وحتى اليوم ، لم يعش المسلمون في ديمقراطية الغرب إلا في الشتات ^(١٣٦) .

ويجب أن يكون واضحاً - بناء على ما سبق - أن الإسلام لم يطلب إقامة دولة دينية بمعناها الغربي القرن أوسطى يقبض فيها علماء الدين على السلطة السياسية ، فلم تذكر آية واحدة في القرآن ذلك ، ولذلك فأنا أكرر أن مبدأ «دين ودولة» يفترض عملين مختلفين ، يتم التنسيق والتوفيق بينهما طبقاً وتحت روح الإسلام ، ولكنها عملان مختلفان يقوم بكل منها أصحاب الاختصاص فيه .

أما إذا نسى المسلمون أن عالم السياسة هو مجال النشاط البشري - الفانى غير المعصوم - وأن الله يغفر للحكومات ولا يقimها ، وأن ليس في الإسلام بناء هرمي وظيفي للعبادة كالمسيحية ، إذا نسى المسلمون كل ذلك ، فقد تكون التبيحة نظاماً أحادياً استبدادياً شموليًّا ^(١٣٧) ، تريع على قمته سلطة دينية جاهلة ، فالدولة الدينية بمعناها الضيق المتعارف عليه ، دولة غير إسلامية ^(١٣٨) .

ختاماً ، نتساءل : أي مبادئ يريد المتعصبون السلفيون إقامة الدولة عليها ؟

أكثر الحركات الإسلامية - والتي بدأها جمال الدين الأفغاني ^(١٣٩ - ١٤٠) - ذات حساسية ضد الغرب الاستعماري ، وتريد استعادة الكرامة والاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي للأمة الإسلامية .

وفي رفضها للغرب ، رفضت أيضاً ديمقراطيته التي أدت إلى استعمار البلاد الإسلامية ، وما صاحب ذلك من محاربته للإسلام ، وبث ودعم بعثات التبشير المسيحي ، بل وأيضاً موجات الإلحاد .

يلعب الإسلام دوراً عظيماً داخل تلك الدوافع ، ليس فقط لأنه يحدد الفوائل مع

(*) وما زالت كل هذه الأنواع موجودة حتى اليوم .

الغرب ، ويقود لاستعادة الهوية واحترام الذات ، لكن الأهم أنه السبيل الوسط بين الرأسمالية والاشتراكية ، سبيل يؤدي إلى الاستقلال الروحي والثقافي ، ليس سبيلاً روحيًا فقط ، وليس سبيلاً سياسياً فقط .

ومنذ تأسيس حسن البنا (١٣٩٦ - ١٩٤٩) لجماعة الإخوان المسلمين (١٣٩)، لم يغب العنصر الديني عن الساحة في كل شئون العالم الإسلامي ، وسيكون خطأً فادحاً في عملية تجديده وبنائه إغفال العامل الديني .

في عصر الثورات العالمية ، كان من الطبيعي أن ترى الحركات الإسلامية في الإسلام ثورة ، مع تبرير العنف إذا لزم الأمر (راجع فصل التسامح أم العنف؟) ولا يعبئون كثيراً بأن مبدأ الثورة لا يظهر مطلقاً في القرآن - على عكس العهد القديم والعهد الجديد - فالقرآن يتكلم دائمًا عن التغيير المستمر للأحسن ، روحيًا وماديًا (١٤٠) .

تحتفل أفكار الحركات الإسلامية في كيفية إقامة الدولة الإسلامية ، فمنها من يريد بناء القاعدة ثم الصعود لأعلى ، ومنها من يريد السيطرة على القمة ، حتى يسهل عليه تغيير القاعدة ، الطريق الأول يحتاج صبراً ووقتاً ، والثاني ثوري متوجّل ، يتبعه من يزعم أن الحكومة كافرة . وبين الطريقين من ينشئ الأحزاب الإسلامية كما في إنجلترا وألمانيا [ومصر] ، وهناك أيضاً من يكون قادرات قريبة من السلطة حتى يؤثر عليها كما في المنظمة الكاثوليكية الإسبانية [وكما في السودان] .

ورغم معرفتي لكثير من قيادات الحركات الإسلامية ، فلا يمكنني التنبؤ بنوعية الحكومة التي قد يقيّموها إذا تمكنوا من إحراز نصر سياسي ، سواء كان ذلك في الجزائر أو تونس أو الأردن أو مصر.

لاتكفي شعارات مثل «القرآن دستورنا» كما نادى حسن البنا ، أو الحاكمة لله [كما نادى المودودي وسيد قطب] أو أن هناك حزبين حزب الله وحزب الشيطان لإقامة دولة إسلامية ، فلابد من برامج واقعية محددة ، تقوم على فهم واضح للشريعة . وللأسف وهناك من يتكلّم في هذا الخصوص على أساس آراء واجتهادات القرون الوسطى (١٤١) وهنا قد يتفق النقيضان ، المسلمين التقليديون المحافظون مع المسلمين الثوريين ، فهل هذا بالأمر الجديد؟

هوامش الفصل العاشر

- (١٢٢) ربما قصد المسيح دفع ضرائب الدولة بعملة الدولة.
- (١٢٣) أقرأ لـ «س. بارفيز منصور» في نشرة كتاب العالم الإسلامي: «الإسلام كسياسة» العدد الثالث ١٩٨٩، صفة ٣، «سياسات بلا حقيقة» العدد ٤ سنة ١٩٩٠ صفة ٣.
- (١٢٤) مختارات من : «تاريخ الأفكار المسيطرة في الإسلام» كريمر، «فرديناند ومظرفي - «الإسلام الدولة والمجتمع» لندن ١٩٨٨، «Daniyal Baiss» - «في سبيل الله: الإسلام والقوى السياسية» نيويورك ١٩٨٤، «برنارد لويس» - اللغة السياسية للإسلام » شيكاغو ١٩٨٨، «بي. جه. فاتيكيوس» - «الإسلام والدولة» لندن ١٩٨٧، «أكيل كوهلر» - «الإسلام نماذج من الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية» كولون ١٩٨١.
- (١٢٥) أقرأ له مثلا «الإسلام في العصور الوسطى» ميونيخ ١٩٦٣.
- (١٢٦) «الدولة» جزءان - ميونيخ ١٩٨١.
- (١٢٧) انظر بصورة عامة «تاريخ الفلسفة الإسلامية» - م. م. شريف. الجزء الأول صفحة ٤، فيسبادن ١٩٦٣.
- (١٢٨) «سياسة نامة» باريس ١٩٨٤.
- (١٢٩) انظر م. م. شريف صفحة ٧١٧ المرجع السابق.
- (١٣٠) الآية ١٥٩ سورة آل عمران، والأية ٣٨ سورة الشورى.
- (١٣١) الآية ٥٩ سورة النساء.
- (١٣٢) أقرأ «رسالة القرآن» لمحمد أسد، الهاشم السقلي ١٢٢ للآية ١٥٩ سورة آل عمران.
- (١٣٣) أقرأ لفتاحى عثمان «الإسلاميون العصريون والديمقراطية» - عربية ، لندن مايو ١٩٨٦ صفحة ٩ ، لسعيد رمضان «الشرعية الإسلامية» . فيسبادن ١٩٨٠ صفحة ١٣١.
- (١٣٤) أقرأ لمحمد حميد الله «أول ميثاق مكتوب في العالم» - الطبعة الثالثة - لاهور ١٩٧٥ ، ولي يوسف عباس هاشمى «كتاب الرسول - ميثاق محمد» باريس ١٩٩٢.
- (١٣٥) عبد الرحمن عبد القادر الكردى - الدولة الإسلامية ، لندن ١٩٨٤ ، جيمس شال - «المنطق، الوحي وتأسيس الفلسفة السياسية» لندن ١٩٨٧.
- (١٣٦) تركيا المعاصرة [١٩٩٣] ليست إسلامية ديمقراطية، وليست حتى جمهورية علمانية، فهي كما وصفها أحمد فوزى سحيمى : دولة ذات سكان مسلمين ، ولكنها ليست دولة إسلامية .
- (١٣٧) بارفيز منصور ، صفحة ١٢ العدد الرابع ١٩٩٠ من نشرة كتاب العالم الإسلامي .
- (١٣٨) سعيد رمضان المرجع السابق.
- (١٣٩) رسائل حسن البنا .
- (١٤٠) «حمام بخارى» - «القرآن والثورة» المجاهد الجزائرية ٤/٢٧ ١٩٨٩ صفحة ٤ .
- (١٤١) «الحكم بالشريعة الإسلامية» روزفيشا بدري ومصطفى وصفى في «للما الشرق والمغرب» في تكريم الفلاتورى.

الفصل الحادى عشر

اقتصاد السوق في الإسلام

كما يوجه الإسلام البشر لحياة أفضل في مختلف المجالات ، فإنه يقوم بنفس الشيء في المجال الاقتصادي ، وبنفس الأسلوب من تقرير قواعد رئيسية كلية - كما في مجال الدولة - ويهتم الإسلام كثيراً بأخلاقيات النظام الاقتصادي ، بكل أدوار البشر فيه : المنتج ، الموزع ، المستهلك ، ولكنها لا يضع التفاصيل لنظام محدد .

وقد أرسى القرآن القواعد الرئيسية الآتية :

- ١ - يحترم القرآن الملكية الشخصية ، وحتى في وسائل الإنتاج ، ولكن نظرياً ، تختلف هذه الملكية عن تلك في القانون الرومانى ، فالملكية المطلقة لله وحده ، وإنما للبشر حق الانتفاع ، مع واجبات اجتماعية^(١٤٢) . تعلو هذه الملكية فوق ملكية الدولة أو المؤسسات التابعة لها^(١٤٣) ، أما المصادر الطبيعية ، كالهواء والماء والغابات والمعادن ، لا يمكن أن تخضع لملكية أفراد ، ولكن يمكن للدولة أن تعطى لهم حق الانتفاع بها^(١٤٤) .
- ٢ - واجب على المسلم أن يعمل ليكتسب معاشه من عمل مفيد . يشمل هذا كافة أنواع التجارة في الحلال ، مع منع الاحتكار (اكتسب الرسول معاشه من التجارة في أموال خديجة) .

يمعن الإسلام الفائدة على رأس المال ، وعمليات البيع والشراء الوهمية [وما تجلبه من مكسب في جانب يساويه خسارة في جانب آخر لأن المجموع صفر] والتي لا تمثل إضافة حقيقة للاقتصاد ولا تقوم على عمل متوج ، وسوف نعود لهذه النقطة .

- ٣ - يجب أن تشرف الحكومة على السوق ، تمنع الاحتكار ، وتضع القوانين لمنع الغش والاحتيال ، تعمل ما في وسعها لانتعاش الأسواق ومنع تعسرها . تعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بفرض الضرائب المختلفة ، وتحمى الاقتصاد كله بفرض الجمارك المناسبة . وقدم القرآن المثل في ذلك بنظامه في المواريث ، وفي دفع الزكاة . ولم يطلب الإسلام مساواة الناس في الدخول ، ولكن في تحقيق حد أدنى من المعيشة الكريمة لكل أفراده [حد الكفاية] ويفرض العمل كقيمة رئيسية في حياة المسلم .

- ٤ - ينهى الإسلام عن الإسراف والتبذير كما ينهى عن البخل والشح ، يشبع المسلم

رغباته الطبيعية ، بدون أن يتحول لمستهلك نهم أو يقصر في احتياجاته .
يتحلى القرآن بحكمة إلهية في مرونته الفائقة في المجال الاقتصادي ، واكتفائه بتقرير المبادئ الرئيسية في قيمة العمل ، والتكافل ، مع أمر الأغنياء بالإإنفاق ، والفقراء بالصبر والتعطف ، ثم تشجيع المشاركة والتعاون والعمل الجماعي ، مع تحريم الاحتكار والغش والخداع ، والنهى عن تكديس المال وكنته .

فنظراً للطبيعة الحية الاقتصادية المتغيرة ، إذا فرأنا نظريات آدم سميث ، ودافيد ريكاردو وتوماس مالتوس ، وكارل ماركس وجون ماينارد كينز (*) وبول أ - ساملسون ، سنكتشف أننا نقرأ تاريخ الأخطاء الاقتصادية وليس تاريخ الاقتصاد ، مع أن كلاً منهم أدعى - ومعه الكثيرون - أن نظريته صحيحة .

وإذا كان علماء الاقتصاد المسلمين قد بذلوا جهداً كبيراً في العصر الحالي لتحديد معالم النظام الاقتصادي الإسلامي ، فإنهم لم يحققوا نجاحاً محسوساً حتى الآن (١٤٥) .

يشق الإسلام طريقه بين الرأسمالية التي تقدس الفردية [ولو على حساب المجتمع] والاشراكية اليسارية التي تقدس الدولة [ولو على حساب الفرد ، وكل منها نظام مادي] .

وطبقاً لماكس فيبر ومولر أرماك (١٤٦) ، فيمكن اعتبار كل منها نظاماً مادياً ليس غير ديني ، ولكنه قائم على أسس دينية فاسدة .

ويستطيع الإسلام أن يعيد التوازن في العلاقة بين الأفراد والدولة ، فقد أسس في المدينة منذ ١٤٠٠ سنة مجتمعاً قائماً على العدل الاجتماعي والاقتصادي ، ما كان ماركس يستطيع أن يحمل به (١٤٧) .

ولكن من المهم أن نعي دائياً أن ليس كل من أتقن علوم القرآن لزم أن يصبح خبيراً في الاقتصاد [أو السياسة أو الإدارة أو ...] وإذا رأينا أنه لا يجب فصل الاقتصاد عن الأخلاق ، فلا يعني هذا أنها يتلازمان بالضرورة ، ولا يمكننا أن نغفل الدافع الإنساني الطبيعي في السعي وراء الربح . وكما بين انهيار النظام الاقتصادي الشيوعي ، فإنه لا يمكنك في عالم الاقتصاد إلا أن تكون جاداً ودقيقاً وواقعاً . كذلك يجب أن يعي المسلمون ، أن قيام نظام اقتصادي إسلامي نموذجي ، يستلزم مسبقاً وجود الأمة الإسلامية النموذجية .

(*) كانت أفكار كينز في تدخل الحكومة في الاقتصاد وراء خروج أمريكا من الكساد الكبير في ثلاثينيات هذا القرن ثم قال الاقتصاديون الأمريكيون في ثمانينيات هذا القرن إن مشاكل أمريكا الاقتصادية سببها ما قال به كينز منذ نصف قرن . ولا يفوتنا التذكير أن أفكار كينز التي أخذ بها الرئيس الأمريكي روزفلت ، كانت على التقييض تماماً مما كان روزفلت نادى به كبرنامج انتخابي وفاز على أساسه بالرئاسة ، وهي فعلاً كانت وراء القضاء على الكساد الكبير .

يتمسك بعض المؤلفين بالأفكار الجماعية ويرون في الإسلام دولة الرفاهية المسئولة عن رفاهية مواطنها (١٤٨) .

وللأسف ، يفهم بعض المؤلفين الإسلام بصفة شمولية جماعية متأثرين بخلفيتهم الماركسية (١٤٩) ، رغم أنه أقرب للصحة أن نرى اقتصاديات السوق الاجتماعي أقرب للمبادئ الإسلامية (**) .

وغنى عن القول إن الإسلام يحرم ما قد يتتساهم عنه السوق في الغرب ، مثل بيع الكحوليات [وبعض أنواع المخدرات] والسجائر ، [والقمار والبغاء] ، والاستغلال والربا ، ولا يجعل الربح وخفض التكاليف هما الهدف الوحيد للنشاط الإنساني . كذلك عارض بعض فقهاء القرون الوسطى إنشاء الشركات محدودة المسئولية ، والشخصيات الاعتبارية التي تنشأ بعقد أو قانون ، فلا توجد مسئولية قانونية إلا ويقابلها أشخاص حقيقيون . وذلك اجتهاد منهم وليس بنصوص صريحة في القرآن أو السنة . مع أن الدولة في الإسلام لها شخصية اعتبارية ، تخضع للقوانين المحلية والعالمية . بل إنهم يدعمون شرعية مؤسسات الأوقاف التي تقوم - كشخصيات اعتبارية - بتنفيذ وصايا الوقف . ويمكن لهذا أن يساعد في تطوير السوق الإسلامي .

أما الربا فهو اختلاف آخر . لم يكتف القرآن بتحريمه والنهي عنه « وما آتیتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتیتم من زكاة تریدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (الروم - ٣٩) . « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » (آل عمران - ١٣٠) بل حرمه [أشد من أي تحريم آخر ، فلم يتوعد الله أحداً - بعد الكافرين - كما توعد آكل الربا] ، « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتبخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة - ٢٧٥) بل جاء بعد ذلك « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فاذدوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (البقرة - ٢٧٩ - ٢٧٨) .

(*) نص الدستور الألماني الصادر في أوائل التسعينيات على خمسة مبادئ تحدد شكل النظام الذي تقوم عليه الدولة : ألمانيا جمهورية ديمقراطية اتحادية تقوم على سيادة القانون والتكافل الاجتماعي - صفحة ١١٩ من « حقائق عن ألمانيا » .

تطور النظام الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية إلى نظام اقتصادي يقوم على حرية السوق والتكافل الاجتماعي مع التحكم العام بالخطوط العريضة للحركة الاقتصادية . صفحة ١٨٥ من نفس الكتاب الصادر عن دار نشر سوسييس فيرلاج - فرانكفورت ١٩٩٣ .

يعرف أى طالب في السنة الأولى في مدرسة لندن للاقتصاد ، أو مدرسة هارفارد للأعمال ، أهمية سعر الفائدة في تراكم رأس المال ، وفي التحكم في الربح ، وخلق الثروات [أو التعسرات والإفلاسات والانهيارات] وتوجيه الاستثمار ، وفي السياسة الاقتصادية بالتأثير على الدورات الاقتصادية ، وتنشيط النمو مع التحكم في التضخم. لكل ما سبق ، لم يخل النشاط الاقتصادي في العالم من الفائدة على رأس المال ، رغم تحريم اليهودية (١٥٠) والمسيحية والإسلام لها . بل إن دول البترول العربية تفضل إيداع ثرواتها في بنوك الغرب بسبب معدلات الفائدة (**) ، وتفرض الحكومة الغربية - مثلها في ذلك مثل بقية الحكومات الإسلامية - معدل فائدة مرتفعا .

وفي هذا العالم الأقرب للجشع منه للقناعة وإنكار الذات ، لم تنتهي محاولات بعض المسلمين للتوفيق - بشتى الطرق - بين ما جاء في القرآن بخصوص الربا والعالم الواقعي .

حاول البعض الزعم بأن الربا المحرم هو ذلك المنحصر في القرض الاستهلاكي الذي كان يضطر إليه فقراء مكة ، فيدفعون عليه فائدة ٥٠ % ، وتتضاعف إلى ١٠٠ % إن تأخرنا في السداد . وحاول البعض الآخر الزعم بأن المقصود هو ذلك الذي يتضاعف أضعافا مضاعفة وعلى القروض الاستهلاكية فقط (١٥١) .

ولكن كلام التأويلين في غير محله ، فقد عرفت مكة قروض التجار بالربا (**) ومفهوم الصفة لا يعني اشتراطها للتحرير .

ويحاول البعض أن يجد حلا باعتبار الزيادة في رأس المال إنما هي تعويض للمقرض عن عدم استثماره المال بنفسه وضياع فرصته في الربح منه . [وما أعجب هذا فهل كان بوسع المقرض استثمار ماله ليربح منه ، ثم عدل عن هذا المقراض ماله لغيره ؟].

ولكن الغلبة هي للمنادين بتحريم العائد على رأس المال واعتباره ربا مالم يشارك رأس المال في الربح والخسارة معاً . وقد يشارك أصحاب المال في الإداره ، وقد يكتفون بتوفير رأس المال (المضاربة) .

(**) في الحقيقة معدلات الفائدة في الغرب (أمريكا وإنجلترا وألمانيا وسويسرا واليابان) أقل من معدلات الفائدة في كثير من دول العالم ! ومنها مصر . بل إن البنك المركزي المصري له إيداعات كبيرة - نسبيا - في أمريكا وبفائدة منخفضة للغاية .

(***) بل إن بني مخزوم - وهو من أغنىاء قريش - وتجار الطائف كانوا يستثمرون أموالهم في الصفقات التجارية بينهم بالربا ، وعندما أصرروا علىأخذ الربا بعد تحريمه ، نزلت الآياتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ سورة البقرة فيهم . أما مسألة حصر الربا المنوع في القرض الاستهلاكي ، فهو أولاً لا يوجد عليه دليل من القرآن أو سنة ، فهو تخصيص بلا مخصوص ، وثانياً ، قد يكون القول بالعكس أبعد عن الخطأ ، فالاضطرار يشرب الخمر ويأكل الميتة والخنزير ، بل وقد يسرق إذا ضاقت به السبل الشريفة وأصبح على وشك الهالك وغيره عنده فاغض =

تعمل باكستان بهذا النظام الالاربوي منذ ١٩٨٥ ، فقد أوقفت إصدار السندات ذات الفائدة الثابتة ، وفوائد حسابات الادخار^(١٥٢) . وما زالت التجربة تحت الاختبار (ويدرسها فولكر نينهاوس وترافت فولر شرف)^(١٥٣) .

ومهما قلت مصادر التمويل ، فيجب على النظام الاقتصادي - حتى الالاربوي - أن يبرهن على قدرته على توفير رأس المال اللازم ، وتوجيهه إلى المشاريع المريحة .

ويقابل هؤلاء الذين يتخلون عن نظام الفائدة ، المشكلة التي تعثر فيها النظام الاشتراكي القائم على التخطيط الشامل .

وللمسلمين الحق في التطلع لنظام اقتصادي كفاء فعال ، بعضمون أخلاقي ، يظهر في إسلام أباد أو الرياض أو الخرطوم أو طهران .

= وقد يكفر بالله لفظاً كما في حالة عمار بن ياسر ، ووافقه الرسول على ذلك قائلاً : فإذا عادوا فعد . فقد رخص الإسلام للمضطر في أشياء كثيرة . وجاء في الحديث « لعن الله أكل الربا وموكله وشاهدته » فيُستثنى من هذا المضطر ويبيّن صاحب القرض الإنتاجي .

وفي الحقيقة ، فإن مسألة إباحة الفائدة على القرض الإنتاجي هي فكرة ظهرت في القرون الوسطى لتحليل مسألة الإقراض بفائدة ، ذلك الأمر الذي يعمل على تجميع وتكديس أموال العالم - بمرور الزمن - في أيدي قلة قليلة ، الحال المتحقق والمعروف اليوم .

هوماиш الفصل الحادى عشر

- (١٤٢) لا يصح مبدأ الملكية الثنائية (بين الله والإنسان) وانظر كذلك أ.أ. عوان - « الجودة ، الكفاءة والملكية في النظام الاقتصادي الإسلامي » بوسطون ١٩٨٣ .
- (١٤٣) من الأهمية تأكيد ذلك على ضوء تعدد الدولة الصارخ ، والمؤسسات التابعة لها على الملكية الخاصة في التاريخ الإسلامي . ففي القرن الثامن عشر ، امتلكت العائلة الإمبراطورية العثمانية $\frac{2}{3}$ إلى $\frac{4}{3}$ أراضي الإمبراطورية مما ساهم في الانهيار المالي للإمبراطورية . انظر « جيه . آر . بارس » - مقدمة للمؤسسات الدينية في الإمبراطورية العثمانية . لندن ١٩٨٦ .
- (١٤٤) كما يمكن للمرء أن يتخيّل ، هذا المبدأ على المحك في ضوء دور شركات البترول الغربية في البلاد الإسلامية .
- (١٤٥) كما تبين الفهرسة ربع السنوية للمؤلفات الإسلامية - الصادرة عن المؤسسة الإسلامية في لستر - حجم ما يختص الاقتصاد الإسلامي كبير لدرجة يتغّير الإحاطة به .
- (١٤٦) انظر « مولر - أرماك » - « الدين والاقتصاد » الطبعة الثانية بروز ١٩٦٨ .
- (١٤٧) « ضياء الدين أحمد » « تقييم مفهوم ونهاية البنوك في الإسلام » في عالم الإسلام ١٩٨٥ / ٤ / ٢٨ .
- (١٤٨) المرجع السابق ١٩٨٥ / ٩ / ١٤ صفحة ٢ .
- (١٤٩) « روبيه جارودي » - « الإسلام الحى » .
- (١٥٠) سفر الشنيدة الإصلاحان ١٩ ، ٢٠ : لا تفرض أخاك بربا . للأجنبي تفرض بربا ولكن لأنك لا تفرض بربا لكنك يباركك الله .
- (١٥١) يقول البعض بالسماح بها يعيش التضخم [ولكن الفائدة أحد أسباب التضخم] ، منهم يوسف على في ترجمته للقرآن ، اقرأ الهاشم ٣٢٤ على الآية ٢٧٥ سورة البقرة ، ومحمد أسد في رسالة القرآن الهاشم ٣٥ للأية ٣٩ سورة الروم .
- (١٥٢) هذه تجربة أمينة جادة لاتباع النهي عن الفائدة الربوية ، بدلاً من أسلوب التحايل . انظر « يوسف شاخت » « مقدمة للقانون الإسلامي » أكسفورد ١٩٦٤ صفحة ٧٩ .
- (١٥٣) « البنوك الإسلامية والعربية » كولون ١٩٨٤ .

الفصل الثاني عشر

الإِسْلَامُ وَالبَيْتَةُ

لن يجرؤ مسلم على الزعم بأن أحداً في العالم الإسلامي نبه العالم لمشاكل البيئة المعاصرة ، وإنما يعود الفضل في ذلك - بلا شك - لنادي روما ، والذى وقع تقريره عام ١٩٧٢ عن «حدود النمو» على أوروبا وقع القنبلة . وأنذر جيداً كيف عهدت الحكومة لمكتب تخطيط السياسة في وزارة الخارجية بتحليلات التقرير للإفادة في السياسة الخارجية .

بل لا يمكن حتى الزعم أن للبلاد الإسلامية اهتماماً خاصاً بالبيئة ، بل على العكس وينطبق عليهم - كغيرهم - ما قاله جينشر وزير خارجية ألمانيا في اجتماع الجمعية العمومية ٢٥ سبتمبر ١٩٩١ : ما زال الإنسان يشن الحرب على كلخلق . وبما إن الدول الإسلامية تتسمى للعالم النامي ، فليس بقدوروها اتباع قوانين الدول الصناعية الغنية في ذلك المجال .

(لا يخلو هذا القول من الصحة ، وليس من المقبول أن يتصرف الأوروبيون كدعاة حماية البيئة ، وما قد يتبع ذلك من استعمار جديد من الأبواب الخلفية) .

على أية حال ، عكف الألمان المسلمون - خاصة أحمد فون دنفر^(١٥٤) وهارون بهر^(١٥٥) وأكسل كوهлер^(١٥٦) ، منذ قنبلة نادي روما على تأسيس ميثاق إسلامي لحماية البيئة ، وكان الموضوع الرئيسي في الاحتفال بمرور ربع قرن على المركز الإسلامي بأخن - في ١٧ مايو ١٩٨٩ - هو البيئة والإسلام ، وكانت النقطة الرئيسية التي تناولها الميثاق :

١ - السبب الحقيقي لكوارث تدمير البيئة هو تفرد الإنسان الذي تخيل نفسه سيداً للكون وصاحب للطبيعة بدلاً من الله ، فانطلق وراء ذاته ونهمه الاستهلاكي ، غير مبال بما يسببه ذلك من أضرار .

ومن الناحية الأخرى ، فإن المسلم الحقيقي يعرف أنه لا يملك شيئاً في هذا الكون ، وإنما هو مستخلف عليه^(١٥٧) ، له حق الانتفاع ، بشروط ونظام إلهين ، فهو لم يرث الأرض ليمارس سيادته عليها بالمعنى الموجود في العهد القديم .

٢ - أمر الله المسلمين بالاعتدال والوسطية في كل شيء ، ونهى عن الفساد

والإسراف: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها...» (الأعراف-٥٦)، «... ولا تسرفوا إنك لا يحب المسرفين» (الأنعام-١٤١) «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين...» (الإسراء-٢٧) «وكلوا وشربوا ولا تسرفوا إنك لا يحب المسرفين» (الأعراف-٣١) «... وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفهون تسبيحهم...» (٤٤- الإسراء). فالمسلم ينظر للكون كله مخلوقاً لله مثله ، وإنما ميزة الله بمسئوليته وتكاليف الخلافة على كل ذلك ، حتى قبل أن تلوح في الأفق كوارث البيئة (*).

٣- تفيض آيات القرآن بوصف الطبيعة والكون لتعرس في النفس التفكير والتدبر في آيات الله ، ويتخيل قدرته وحكمته وصيته ، ومن ثم الإيمان به والتسليم له . فالكون عند المسلم منظومة من المخلوقات متحدة في تمجيد الله وعبادته .

وعلى المستوى الظاهري ، في القرآن سور عديدة لها أسماء حيوانات أو ظواهر طبيعية (١٥٨) ، وفي هذا يقول القرآن «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أسم أمثالكم» (الأنعام-٣٨) .

فالحيوانات والطيور والأسماك أم من المخلوقات مثل أمة البشر ، وجاء في الحديث النبوى أن رجلاً دخل الجنة لأنّه سقى كلباً عطشاناً ، بينما دخلت امرأة النار بسبب قطة عذبتها منعت عنها الأكل والشرب . وكثيراً ما تدخل الرسول لحماية الحيوانات والطيور .

وهذا لا ينافي الاستفادة المشروعة للإنسان من الحيوان .

٤- ليس هم القرآن كشف الغيب ، ولا تقديم موسوعة علمية ، ولكنه ينبه ويُبشر وينذر من خلالها . وفي ذلك أشار أحمد فون دنفر لظاهرة الماء العذب «أَفَرَأَيْتُمِ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرِبُونَ . أَلَّتَمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَنَنِ أَمْ نَحْنُ الْمَنَّازُونَ * لَوْنَشَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشَكَّرُونَ» (الواقعة-٦٨-٧٠) .

٥- وعلى نفس مستوى الأهمية ، يجيء قول الرسول: الوضوء شطر الإيمان ، والنظافة - أحد مقاصد الوضوء - بينما تبدأ كوارث البيئة بالتلوث .

(*) أقرأ في «رسائل إخوان الصفا» المناورة الفلسفية بين الإنسان والحيوان ، وتدور حول لماذا يخضع العالم للإنسان ، يُبطل بها الحيوان كل حجج الإنسان ، وتبقى في النهاية للإنسان حجة واحدة ، وهي أنه مؤهل للقيام بدور الخليفة أكثر من الحيوان .

من يستوعب ما سبق ، لن يجد حل مشاكل البيئة في نداءات مثل فول هو بجز
شلائل «العودة للطبيعة» وكأنه دين جديد ، ولا في رومانسيات حزب الخضر .
فتبعت إنكار الله لا يمكن علاجها بعبادة الطبيعة [إحدى مخلوقاته] .

وأصاب فرد ينادى فيلمان الحقيقة ، عندما حذر من الخيالات والأوهام العاطفية
لفلسفة طبيعية جديدة ، وعندما قال إن ما نتج من كوارث البيئة ليس فلسفة طبيعية
جديدة ، وإنما فلسفة تكنولوجية جديدة . وما نحتاجه ليس نظرية جديدة لوحدة
الوجود ، وإنما إعادة تأسيس عقلانية التكنولوجيا وأهدافها ، وكبح استقلاليتها^(١٥٩)
وياختصار ، نحن بحاجة إلى أسلوب جديد لإشباع ضرورياتنا الاقتصادية .

تحقق كثير من شباب الخضر أن تحديد الاستهلاك لن يكفي لإنقاذ الطبيعة من نظرة
الإنسان سيد الكون وصاحبه ، والتي يقتضيها يحق له الاستهلاك والتدمير . فقط
عندما يعرف الإنسان أنه عبد لله (مُكْلَف بالخلافة) كما يرى المسلم ، يمكن تحقيق تلك
الثورة للمحافظة على البيئة .

وهكذا وجد كثير من الخضر طريقهم إلى الإسلام بعدما اتبعوا بدلاً زائفاً ، فإذا
كانت مخاوفهم هي أعراض لأزمة القيم في الغرب ، فتلك المخاوف نفسها تصبح
القوة الدافعة في الغرب للبحث عن سلام النفس في التسليم لله ، حرفيًا: «الإسلام» .

هوامش الفصل الثاني عشر

- (١٥٤) «أحمد فون دنفر» مقالة القرآن والبيئة والإسلام، العددان الخامس والسادس ١٩٨٣ ، ومقالة البيئة والإسلام ، العدد الثاني ١٩٨٩ ، مجلة الإسلام .
- (١٥٥) «هارون بهر» مقالة «العودة إلى دين الطبيعة» مجلة الإسلام ، ١٩٨٥ .
- (١٥٦) «أكسل كوهلر»- «البيئة الإسلامية» في الكتاب التذكاري «للهمشراق والمغرب» تكريماً للفلاحتورى ، كولون ١٩٩١ صصفحة ٥٤ .
- (١٥٧) الآية السابعة سورة الحديد .
- (١٥٨) البقرة- الأنعام- الرعد- النحل- النور- النمل- العنکبوت- الطور- النجم- القمر- البروج- الطارق- الفجر- الشمس- الليل- التين- الفيل.
- (١٥٩) جريدة فرانكفورت الجماينه ١٨ / ٢ / ١٩٨٧ .

الفصل الثالث عشر

الفن ومنع التماثيل

لم يبر الإسلام بظاهره إقامة التماثيل للأولياء وتقديسها ، ثم رفض البعض لها كدعوة إصلاحية ، كما مرت المسيحية في عوالم البيزنطيين والكاثوليك واللوثريين والكلفانيين . فقد حرم الإسلام تحريرًا تاماً إشراك أحد مع الله في العبادة أو الصلاة أو الدعاء (**) ، وحرمت أحاديث كثيرة (١٦٠) صناعة التماثيل ، قالها الرسول وفي ذهنه ما أكدته وكررته سورة النساء « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » الآية ٤٨ ، الآية ١١٦ ، ولكن لم يحرمها القرآن .

نهت السنة عن صناعة التماثيل والصور للمخلوقات الحية ، خشية عبادتها (١٦١) فكما قال الرسول لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وقد انتهى الأمر بالعرب قبل الرسالة لعبادة التماثيل [والتي كانت في الأصل لأولياء صالحين ، أو أحجاراً أخذوها في أسفارهم من الكعبة] . وكم بلغ الغضب بالرسول عندما وجد داخل الكعبة تماثيل لإبراهيم وإسماعيل ومريم .

فإذا كان القصد من وراء النهي ، الخوف من عبادة التماثيل أو من السحر (***) ، فيستثنى منه عرائس الأطفال . فقد كانت عائشة تلعب بالعرائس أول زواجهما ، ولم ينهها الرسول . كذلك الصور الفوتوغرافية للبطاقات الشخصية وجوازات السفر (****) ، وصور الأشعة التعليمية (*****) وكل الصور التي لا تقدس

(*) في واقع اليوم ، مازال أكثر من نصف العالم يصنع تماثيل لعبادتها والتوصل بها أو إليها ، فالغالبية العظمى من آسيا ، باستثناء الدول الإسلامية فقط تعبد التماثيل سواء كانوا يورذين أم هندوساً ، بل وتقديم الطعام والشراب لتلك الآلهة ، وتضيئ الظلام حولها بالشموع ، بل وتغسلها بالبن في العيد ! أما إذا كنت تكلم عن عقيدة التوحيد الصافية ، فسوف نجد أنفسنا مضطرين لاستبعاد أكثر المسيحيين بتماثيلهم الكثيرة التي يصلون لها ويتوصلون بها ، وفي الحقيقة ، لن يبقى إلا المسلمين واليهود وقلة قليلة من المسيحيين .

(**) يسمى الفقهاء مثل هذا النهي سداً للذرائع أي منع الوسائل التي تؤدي للحرام .

(***) وهي في الواقع ليست تصويراً بمعنى الكلمة الأصلي وإنما هي إسقاط لانعكاس الأشعة على الفيلم .

(****) يقول علماء الأصول من المحنفية إنه إذا دخل التخصيص ، أي الاستثناء ، على العام ، أصبح بعده ظني الدلالة . أما علماء الأصول من المالكية والشافعية والحنابلة ، فقالوا إن دلالة العام ظنية لا قطعية .

واما تهن بالسير أو الجلوس عليها ، ولكن بلا خلاف ، يحرم أي تصوير لله ، وتحرم اليوم أي صور داخل المساجد . وتحريم الصور داخل المساجد أمر لافت ، فبعض المساجد القديمة في دمشق والمدينة لا تخلي من رسومات للنباتات والمناظر الطبيعية أو التقوش المذهبة .

لم يكن المنع قديما بصرامة اليوم ، ويكتفينا في ذلك أن نشاهد المنمنمات الفارسية التي انتشرت منذ القرن الثالث عشر ، وبعد ذلك رسم السلاطين العثمانيين . وقد بُررت المنمنمات بأنها أعمال تجريدية لا تطابق الواقع بسبب صغرها المتناهي ، أما تبرير لوحات السلاطين بأنها إذا أغفلت ولو شعرة واحدة ما أصبحت صورة - كما زعم سلطان المغول أكبر ١٥٥٦-١٤٠٦ فهو سفسطة تامة .

ويتذر اليوم أن تجد حاكما إسلاميا يستحب من تعليق صوره في الأماكن العامة وعلى طوابع البريد تشريفا له ، وذلك هو تماما ما جاء النهي الإسلامي بخصوصه (**).

لم يضر ذلك المنع الفن الإسلامي ، بل على العكس أدى إلى تطور وتميز فن الخط والزخرفة ، وفن العمارة .

يؤدي بنا ما سبق إلى موضوع أكثر أهمية : ما هو موقف الإسلام من الفن ؟
ككل الأديان التي تهتم بالأخرة ، لا يشجع الإسلام مبدأ الفن للفن ، فالحياة أثمن من أن يضيعها الإنسان [الخليفة الله على الأرض] في صغار الأشياء ، خاصة إذا كانت لمتع الدنيا متناهية الصغر كما وكيفا بالنسبة للأخرة « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو بليل الآخرة خير للذين يتقوون أفالاً تعقلون » (الأنعام - ٣٢) ، « ... أرضيتهم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الدنيا في الآخرة إلا قليل » (التوبية - ٣٨) أضف لما سبق تحفظ القرآن على الشعر « والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ... » (الشعراء . ٢٢٤-٢٢٧) .

كذلك لم ترتفع الموسيقى والرقص فوق مستوى الشبهات ، لما يصاحبها كثيرا من خلاعة وفسق ، وليس في هذا افتراء كبير على الواقع .

(**) بل إن معظم بلاد العالم ، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، تخلت عن تأليف الحاكم ، إلا البلاد الإسلامية ، خاصة العربية منها ، فهل هذا من الأسباب الرئيسية لتأخّلها؟

ولكن لم ينس العالم الإسلامي - الذي اعتنى كثيراً بالسعادة - أن القرآن دعا للتتمع بالبهج واللذات الدنيوية الطيبة المشروعة «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» (الأعراف - ٣٢) ومن هنا يدعوا المسلم قائلاً «.. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (البقرة - ٢٠١) .

ويحب المسلم الكمال والحسن والجمال ، فللله المثل الأعلى كما جاء في القرآن ، وإن الله جميل يحب الجمال (١٦٢) ، كما جاء في الحديث . ويالجمال الذي أنتجه الفن الإسلامي ! خاصة في مجال الأدب وصناعة الكتاب (*) ، والخط ، والمنمنمات ، والعمارة الإسلامية ، وترتيب القرآن !

عكف مؤرخو الفن الأوروبيون منذ أقيم أول معرض للفن الإسلامي في فيينا عام ١٩١٢ على دراسته بطريقتهم العلمية التفصيلية الدقيقة ، وأرادوا تحديد الصفات المميزة والمشتركة فيه (١٦٣) .

اقتراح أوليغ جرابار - بعد دراساته الرائدة - أن الفن الإسلامي هو ما يحمل نصوصاً باللغة العربية ، ولكن ذلك التعريف لا يرضي الكثيرين . وقال جون هوج إن الفن الإسلامي هو ما ابتدعه المسلمون (١٦٤) ، وكأنه فسر الماء بعد الجهد بماء . أما ريتشارد انجهاوس فقد ركز على التناسق العام ، وتوازن الأجزاء المختلفة ، والتكون النموذجي ، فقال إنها دائماً متوفرة في الفن الإسلامي ، فهي الصفات المتميزة له (١٦٥) . وبالطبع يمكن قول مثل ذلك على أساليب فنية أخرى .

المشكلة [أو السبب في الغنى والخصوصية] أن الفن الإسلامي لم يبدأ من فراغ ، ولكنه صهر وصيغ فنون الأجناس المختلفة التي دخلت الإسلام ، فهو ليس نتاج جنس أو منطقة ، ولكنه نتاج دين احتوى الأجناس والمناطق .

ويوسع أي ناشئ أن يرى كيف أثر الفن الإسلامي بقانونه الخاص على العالم الغربي وخاصة بين القرنين العاشر والرابع عشر (١٦٦) .

يعبر الفن الإسلامي عن شعور ديني وأسلوب حياة يقدر ما يعبر عن عقيدة دينية ، وهذا مؤكد .

فمثلاً في العمارة الإسلامية ، نجد مبدأ المضمون لا الشكل ، أو الباطن لا الظاهر ، ليس فقط في المنازل ، بل حتى القصور . فكلما يحفظ الجوهر في الداخل ، كما تخفي المرأة المسلمة جواهرها تحت العباءة .

(*) حررت مكتبة دار الحكمة في القاهرة - منذ حوالي ألف عام أيام الملك العزيز الفاطمي - مليونا وستمائة ألف كتاب ، كذلك أحسن من بعده الحاكم بأمر الله قصر المعرفة حوى ستمائة ألف كتاب .

وتباع طريقة بناء المساجد . مساحاتها المربعة أو المستطيلة وخلوها من التدرج الهرمي . نقاء الإسلام من الطبقية والهرمية الدينية ، كذلك تتبع ألوانها وإضاءتها نقاء الإسلام من الأسرار والكهنوت والسحر .

إما المنمنمات ، فصغرها المتناهى ينبع الحالات الفاسدة ، وتستحضر الحدائق الغناء بترتيبها وتنسيقها ورذاذ نافوراتها ، في الذهن جنات عدن (**) .

أيستعصى علينا فهم هذه الظاهرة وتعريفها ؟ إن لمسألة التعريف أهميتها العظيمة ، فهي تكشف عما إذا كان للمؤرخ حاسة استقبال خلفية الفن الإسلامي الرمزية المركبة . وإنه لما يُحسب للذين ذكرناهم من قبل ، أنهم تيقنوا أنهم أمام عالم متراصط متماسك في الفن الإسلامي : فللدين تأثيره النافذ . وقد ساهم في تحليل ذلك المستشرق رودي بارت في كتابه (الرمزية في الإسلام) (١٩٨٥) .

منذ ذلك ، تزايد تركيز الدارسين لتاريخ الفن الإسلامي (١٦٧) على مسائل المعنى والمضمون والجوهر . ويبلغ ذلك ذروته الآن في دراسة ما وراء المادة والتتصوف في الفن الإسلامي ، واقرأ لذلك عمل الكسندر بابا دوبيلو - البروفيسور بالسوريون - « الإسلام والفن الإسلامي » ، وعمل المسلم السويسري نيتوش بوركاردت « الفن في الإسلام » نعرف الآن أن الزخارف الإسلامية تقوم على سبع عشرة مجموعة أصلية ، تكون أشكالا لا حصر لها (١٦٨) . ومن خلال البحث عن عناصر تكوين الفن الإسلامي ، تبدو لي علاقة مؤكدة بين مبدأ التكرار الجمالي (في القرآن ، والأدب العربي ، الموسيقى العربية ، الذكر) الذي يبعث في النفس حالة من النشوة والوجود ، وبين محاولة الإحاطة باللانهائيات الإلهية . ويرمز لذلك الأرابيسك والزخارف الإسلامية اللانهائية (١٦٩) الأخرى . واقتراح البعض علاقة مماثلة بين زخرفة الفسيفساء والمحض أو النحت أو التلوين الزخرفي ، مع محاولة الإحاطة بالذات الإلهية [كما بيتهما أسماؤه] ، وقد جاء في الحديث لله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة] ليست تلك محاولات لتصوير الله رمزيًا ولكن لتصوير وجوده .

أوجز ذلك جيه . سى . بورجيل في نظريته القائلة : يتحدى في الزخارف الإسلامية اللانهائية ، النظام الإلهي من ناحية ، والتكرار اللانهائي الذي يرمز للإنجذاب إليه من ناحية أخرى (١٧٠) .

وعلى هذا تنطبق مقوله : ليس كل ماتراه العين تدركه !

(*) أعتقد أن المؤلف يتحدث هنا عن حدائق غرنطة التي شيدها المسلمين في الأندلس ، وسموها جنة العارف ، والتي ترى السائرين فيها مشدوهين مذهولين من الإبداع والجمال .

هوامش الفصل الثالث عشر

- (١٦٠) رواها البخاري ومسلم ومالك.
- (١٦١) انظر «المعجم الصغير للإسلام» لأحمد فون دنفر ، لوتزلياخ ١٩٨٦ صفحة ٣١ ، ولمحمد حميد الله «مقدمة في الإسلام» الطبعة الخامسة لوتون ١٩٨٠ صفحة ٤٨٢ .
- (١٦٢) صحيح مسلم والترمذى .
- (١٦٣) إذا أردت انتقاء عدد قليل من الكتب لطالعتها ، فإنى أنسى : «الفن في الإسلام». «ارنست كوهنل» شتوتجارت ١٩٦٢ ، «فن الإسلام» - «كاترينا أوتو-دورن» الطبعة الثانية بادن بادن ١٩٦٦ ، «تاريخ ومدن الإسلام» - «ألفريد رينز» ميونيخ ١٩٧٧ ، «عالم الإسلام» - «إرنست جروب» جوترسلاو ١٩٧٤ ، «مساجد استانبول» هـ . جيه . سورموست / فى . كريستيان فون دير موليه ، ميونيخ ١٩٨١ .
- (١٦٤) «جون د. هوج». «العمارة الإسلامية» لندن ١٩٨٧ .
- (١٦٥) «ريتشارد اتنجهاؤس». «الفنون التطبيقية والفن» .
- (١٦٦) انظر كتاب «متاحف الفن الإسلامي» «كلاوس بريش» برلين الطبعة الثانية ١٩٨٠ صفحة ٩ ، كتاب «أوروبا والشرق ١٩٠٠-٨٠٠» فى برلين ٥/٢٥ . ١٩٨٩/٨/٢٧ .
- (١٦٧) انظر روجيه جارودى «المساجد» : مرايا الإسلام باريس ١٩٨٥ - «نادر أردىان» - «شعر ووحدة : التقاليد الصوفية في العمارة الفارسية» شيكاجو ١٩٧٣ .
- (١٦٨) تم اكتشاف مبدأ التكوين الذي يسمح بأكثر ما يمكن من الزخارف في مدرسة في فاس-المغرب انظر جريدة زود دويتش ١٩٨٧/٦/١٥ صفحة ١٢ .
- (١٦٩) انظر «لويس لماء الفاروقى» - «الفن الإسلامي في الإسلام العالمي» ميونيخ ١٩٨٨ .
- (١٧٠) جريدة زيوريخ الجديدة ١٩٩١/٤/٥ صفحة ٣٩ .

الفصل الرابع عشر

الفقه الإسلامي

اتفق خبراء الطعام على أنه توجد ثلاث مدارس رئيسية : الصينية والفرنسية والتركية . ولن يكون الأمر أكثر صعوبة على خبراء القانون في أن يتتفقوا على أهم الأنظمة القانونية : الروماني ، والأنجلو ساسكوني ، والإسلامي ، ومراكيزها بولونيا ، أكسفورد ، القاهرة .

وفي القاهرة عاش محمد بن إدريس الشافعي - أكثر الفقهاء موهبة وعيقرية - آخر سنواته ، ومات ودفن (٧٦٧-٨٢٠) ، وكتابه المشهور الرسالة وضع أساس علم أصول الفقه [قال أحمد بن حنبل عنه إنه فتح ما استغلق] ، وهو مع تفسير الطبرى (٩٢٣-٨٣٩) بثابة مجموعة قوانين جوستينيان (٥٣٤) .

تشابه الأنظمة الثلاث في أنها تأثرت في تطورها بفكر القانونيين أكثر من القانون الأصلي نفسه . وكان كل من النظام القانوني الروماني والنظام القانوني الإسلامي مجالا خصيا لـ عمالة الفكر ، بينما القانون العام مجال للقضاء ! (١٧١) .

ولكن يختلف القانون الإسلامي عن الغربي منذ البداية - باستثناء القانون الكنسي - حيث إن القانون الإسلامي مصدره الوحي ، فهو لذلك الطريق أو الشريعة التي يجب على المسلم سلوكها ليفوز بالفلاح . وأصبحت كلمات القانون الإسلامي [الأحكام] الشرع أو الشريعة الإسلامية ، الفقه الإسلامي (المعنى الحرفي للفقه : الفهم) متراادات لنفس المعنى ، وحتى اليوم . ولكن منذ مطلع القرن ، بدأت محاولات تخصيص تعريف للشريعة مختلف عن تعريف الفقه ، فالشريعة هي ما أتى به الوحي والفقه هو ما فهمه الفقهاء من الشريعة وقالوا به وما أضافوه من اجتهادهم وأفكارهم (١٧٢) .

لا ينحصر اختلاف القانون الإسلامي (الشرع أو الأحكام) عن قانون الغرب في أن الأول مصدره إلهي والثانى مصدره فكر بشرى ، بل أيضا - وبصفة أساسية - في أن الشرع الإسلامي يشمل كل مجالات الحياة الإنسانية ، ولا يشبهه في ذلك إلا الشرع الموسوى ، حتى آداب الطعام والزيارة تجد لهما نصيبا في الشرع الإسلامي (١٧٣) .

ولذلك لا يكتمل التمييز بين رجال القانون الإسلامي (الفقهاء) وبين المفكرين الإسلاميين ، فلن يتيسر لأحد أن يصبح صاحب فكر إسلامي قبل أن يحيط بالقانون أو الشرع الإسلامي .

هناك كثير من أعمال الفقهاء (مختصرات و مطولات و حواش) (*) تشمل و تشرح القانون أو الشرع أو الأحكام ، وأكثرها يبدأ بالصلة .

لا يشبه القانون الإسلامي قوانين الغرب في تفريقيها بين :

* القانون ، العدالة والعادات والعرف .

* القانون العام والقانون الخاص .

* قانون الإجراءات والقانون الأساسي .

* القانون الجنائي والقانون المدني .

* قانون الصراعات والحروب ، قانون الأجانب والقانون المدني .

ولذلك وصف البعض - ببساطة - القانون الإسلامي بالقصور .

بالطبع القرآن هو المصدر الأول والرئيسي للقانون الإسلامي . ولكن القرآن لا يفصح إلا عن عدد محدود من الأوامر الصريحة كمنع أكل الخنزير وشرب الخمر ولعب القمار . وبعض الأوامر مجملة تحتاج شرحها وتفصيلاً كتحريم الربا ، فما هو الربا ؟

(*) مثال لذلك كتاب «الأم» للشافعى ، فقد صدر في عدة طبعات من سبعة إلى تسعه أجزاء من القطع الكبير . واختصر المزنى - أحد أئب تلاميذ الشافعى - الأم في مجلد واحد سماه مختصر الأم . ثم شرح الماوردي مختصر المزنى فيما سماه الحاوى الكبير ويقع في تسعه عشر جزءاً .

وقد يكون أصغر مرجع فقهي يجمع مذاهب السنة ، العمل الفلا لابن رشد «بداية المجتهد ونهاية المقتضى» مكون من جزأين ، وعلى الناحية الأخرى هناك المسوط للسرخسى الحنفى في ثلاثة جزءاً والمغنى الكبير لابن قدامة المقدسى الحنبلى ، وهو يجمع أيضاً آراء مذاهب السنة ، ويقع في عشرة أجزاء ، ثم هناك الفتوى الكبرى لابن تيمية في سبعة وثلاثين جزءاً .

وقد يكون أيسر وأشهر كتب الفقه في النصف الثاني من قرننا الحالى فقه السنة ، ثلاثة أجزاء - سيد سابق . وأوسط كل ما سبق ، ما كتبه العلامة الشوكانى - المفسر والمحدث والفقىه والأصولى - نيل الأوطار ، في ثمانية أجزاء . وأكثر الأعمال جرأة وتفرداً - مع كثير من الذكاء ووحدة المسان - «المحلى بالأثار» لابن حزم الأندلسى ، ويقع في اثنى عشر جزءاً .

وكثير من الأوامر مُغلفة في شكل توصيات بالفعل أو الامتناع عن الفعل ، دون تهديد بعقاب دنيوي (الشذوذ الجنسي مثل ذلك) (١٧٤) (*).

وإذا كان من الطبيعي أن يختلف فهم الناس وتأويلهم لبعض آيات القرآن (بل وللكلام العادى) فالمرجع هنا لما قاله وبينه الرسول .

وهنا يأتي دور السنة ، المصدر الثانى للشرع بعد القرآن ، فهى تفسر وتفصىل القرآن (١٧٥) ، وقد أمر القرآن فى عدة مواضع بِإطاعة الرسول (١٧٦) (**). وقال للMuslimين كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة [وقال له : إنك لعلى خلق عظيم ، وإنك بأعيننا].

واجهت الأجيال التالية لعصر الرسالة ، مسائل ومشاكل جديدة لم يجدوا فى القرآن ولا السنة نصوصا صريحة لها ، فاجتهدوا يصلوا لحكم الشرع فيها . بدأ الاجتهداد منذ عصر الصحابة ، ومن ثم أخذ الفقهاء بإجماع الصحابة ، ثم بالقياس على نصوص القرآن والستة وإجماع الصحابة ، ثم بإجماع الفقهاء . (أضافت المذاهب السنوية بعد ذلك المصالح والاستصحاب والعرف ، فأصبحت مصادر الأحكام كالتالى : القرآن ، السنة ، الاجتهداد، ويشمل : إجماع الصحابة ، القياس ، المصالح ، الاستصحاب ، العرف

(*) يرى بعض المفسرين - قدامي ومعاصريـن - أن آيتى سورة النساء « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهم أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهم سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فإذا هما فإن تبا وأصلحا فأعرضوا عنهم إن الله كان توابا رحيمـا » (١٥) ، (١٦) يختصـان بـ فعل الشـواذ ، كذلك أمرـتـ السنـة بـ عـقـابـ الشـواذ .

(**) من أوضح الأمثلة لما جاء مجملـا في القرآن وبيتهـ السنـة وفـصلـه ، الصـلاـةـ والـزـكـاةـ والـحـجـ . فـماـ أـكـثـرـ ماـ أمرـ القرآنـ بـإـقـامـةـ الصـلاـةـ وـإـيـتـاءـ الزـكـاةـ ، وـلـكـنـ لـمـ يـبـيـنـ كـيـفـيـةـ الصـلاـةـ وـلـاـ عـدـ الصـلـوـاتـ المـفـروـضـةـ فـيـ الـيـوـمـ وـلـاـ أـوـقـاتـهاـ ، كذلكـ لـمـ يـبـيـنـ أـنـصـبـةـ الزـكـاةـ وـكـيـفـيـةـ أـدـائـهاـ ، وـلـاـ مـنـاسـكـ الحـجـ . بلـ إنـ كـلـمـةـ صـلـاـةـ تعـنىـ دـعـاءـ ، وـكـلـمـةـ زـكـاةـ تعـنىـ ثـمـاءـ وـكـلـمـةـ حـجـ تعـنىـ قـصـدـ . كذلكـ خـصـصـتـ السنـةـ عـمـومـ القرآنـ كـمـاـ جـاءـ فـيـ حـدـيـثـ لاـ وـصـيـةـ لـوـارـثـ ، وـحـدـيـثـ لـاـ مـيرـاثـ لـقـاتـلـ ، وـحـدـيـثـ لـاـ تـنـكـحـ الـمـرـأـةـ عـلـىـ خـالـتـهـ ، وـقـيـدـتـ السنـةـ مـطـلـقـ القرآنـ كـمـاـ فـيـ حـدـيـثـ لـاـ نـكـاحـ إـلـاـ بـولـىـ ، وـكـمـاـ فـيـ قـيـدـ الدـخـولـ قـبـلـ الطـلاقـ لـتـرـجـعـ الـمـرـأـةـ مـلـنـ طـلـقـهـ تـلـاثـاـ .

وـكـلـمـةـ سنـةـ تعـنىـ طـرـيـقـ أوـ منـهـجاـ ، وـإـذـاـ كـانـ تـكـلـمـ فـيـ أـصـوـلـ الـفـقـهـ ، فالـسـنـةـ هـىـ الـمـرـجـعـ الثـانـىـ لـلـمـسـلـمـ بـعـدـ القرآنـ ، وـهـىـ أـفـعـالـ وـأـقـوـالـ الرـسـولـ ، وـمـوـافـقـتـهـ عـلـىـ أـفـعـالـ وـأـقـوـالـ الـمـسـلـمـينـ . أـمـاـ إـذـاـ كـانـ تـكـلـمـ فـيـ الـفـقـهـ ، فالـسـنـةـ عـنـ الـمـعـاصـرـينـ هـىـ مـاـ لـيـسـ بـفـرـضـ مـنـ فـعـلـهـ أـثـيـبـ عـلـيـهـ ، وـمـنـ تـرـكـهـ فـلـاـ يـأـمـ .

وـلـاحـظـ معـ كـثـيرـ مـنـ الـغـرـابـةـ وـالـدـهـشـةـ . الـمـفـارـقـةـ الـهـائـلـةـ فـيـ التـعـرـيفـ السـابـقـ لـلـسـنـةـ ، مـعـ مـاـ قـالـهـ صـاحـبـ السـنـةـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ «ـ مـنـ رـغـبـ عـنـ سـتـىـ فـلـيـسـ مـنـىـ »ـ وـالـاـخـتـلـافـ هـنـاـ فـيـ مـاـ قـصـدـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ بـكـلـمـةـ سـنـةـ ، وـمـاـ دـرـجـ عـلـيـهـ عـلـمـاءـ الـفـقـهـ الـيـوـمـ ، وـمـعـ أـنـهـ كـمـاـ يـقـالـ لـاـ مـشـاـحةـ فـيـ الـاـصـطـلـاحـ ، فـقـدـ كـانـ الـأـجـرـ بـهـمـ أـنـ يـحـتـفـظـواـ بـمـصـطـلـحـاتـ الـتـطـوعـ وـالـمـنـدـوبـ وـالـمـسـتـحـبـ وـمـاـ إـلـىـ ذـلـكـ .

إجماع الفقهاء . والعرف هنا هم مالم يخالف أياً ماسبق) وطمأن الفقهاء في
اجتهادهم الحديث القائل لاتجتمع أمتي على ضلاله .

واضح أن القانون الإسلامي من بنى بما يكفي لاستيعاب المصالح الشرعية في كل
مكان وزمان [لذلك انتشرت مقوله : إن كان هناك مصلحة حقيقة فثم شرع الله] .

ويرفض الشرع الإسلامي مبدأ القانون الطبيعي والعدالة اللذين يأخذ بهما الغرب .

لما كان الشرع الإسلامي يشمل كل مجالات الحياة البشرية ، وكان الفقهاء هم
المنوط بهم استخراج أحكام الشرع في كل مسألة ومشكلة مستجدة ، فلا غرابة أن
أصبحت عليهم مسؤولية كبيرة ، وبالتالي تأثير ونفوذ هائلان يفوقان بكثير ما للقضاء
ورجال القانون الغربيين ، ولا يمكن أن يقارن ذلك إلا بقاضي المحكمة العليا في أمريكا .

ومازال للعلماء الكبار ، تأثيرهم الهائل على المسلمين ، ويظهر ذلك - على سبيل
المثال - في آراء شيخ الأزهر في القضايا المعاصرة ، أو فتاوى المفتى .

وأدلت خطورة دورهم ، لتعرضهم بدورهم للخطر ، ولذلك حفل تاريخهم
بسجن والاضطهاد ، مثلما كان مع أحمد بن حنبل (**) .

وتقليداً للعالم الغربي ، بدأت الإمبراطورية العثمانية إدخال نظامه القانوني عام
١٨٧٧ ، وتلتها أكثر البلاد الإسلامية ، عدا السعودية ، مع تأكيد الحكومات الإسلامية
على إلغاء ما يعارض الشريعة .

لم يجرؤ أحد من المسلمين على جعل كل أحكام الشرع قانوناً مفصلاً مدوناً (***) إلا
في مجال الأحوال الشخصية الخاصة بالزواج والطلاق والمواريث ، ويتجنب علماء
القانون المسلمين - بوعى - ما فعله علماء القانون في أمريكا من تجميع للأحكام القضائية
وتقنيتها ، ثم إعادة تقنيتها ، ما دامت أكثر أحكام الشريعة هي قواعد كثيرة عامة لا
تتطرق للتفاصيل ، حتى يكون لها صفة الدوام زماناً ومكاناً ، وسن قانون ليقابل حالة
زمانية ومكانية واحدة لا يمكن أن يحيط بكل القاعدة الشرعية في ذلك الخصوص ، إلا
إذا تم اقتناص بعض من القاعدة بأخذ جزء من آياتها وفصلها عن الباقي (****) .

(**) سُجن أحمد بن حنبل وضرب بالسياط لرفضه رأي المعتزلة بخلق القرآن ، وسُجن معه كثيرون ، ومن قبل
عُذب أبو حنيفة وضرب بالسياط ، وقيل إنه مات في السجن لعارضته العباسين وتأييده أهل البيت ،
وسُجن ابن تيمية ، واضطهد الأفغاني وشقيقه ، وحُتل القرن العشرون بالعلماء المضطهدين والمعتقلين
والمهاجرين .

(****) جرت محاولات نادرة مثل « مجلة الأحكام العدلية » ، « الفتواوى الهندية »

وإذا كانت موسوعات ومؤلفات العلماء الشرعية تحظى بالشهرة والاحترام عند الشعوب ، فإنها تمثل الانقسام الذي يعيشه العالم الإسلامي بين علماء القانون وعالم القانون . فقد بدأت الفجوة تظهر وتتسع بين ما يقوله العلماء وما يفعله السلاطين والأمراء والوزراء من بعد الخلفاء الراشدين ، حتى وصلنا للانقسام الراسخ اليوم ، حيث أصبح القانون الإسلامي هو الواجهة التي تحب أن تظهرها الحكومات ، وليس القواعد التي تحب أن تسير عليها . وللأسف شارك بعض العلماء في ذلك ، ودعوا إلى الطاعة الكاملة العميا ، حتى لحكام السوء ، وعلى هذا نجحت كثير من الحكومات الإسلامية في صبغ القانون الإسلامي وفق ما ت يريد ، بدلاً من تتبع صبغة الله ، « ومن أحسن من الله صبغة » ، ولا عجب إذن في أن تطالب الشعوب الإسلامية بحكم الشرع ، من إندونيسيا شرقاً حتى المغرب .

ولكن ماذا عن المذاهب الفقهية في الإسلام؟ عاش كثير من الصحابة حتى أواخر القرن الأول الهجري ، فكان الناس يلجئون إليهم ويتناقلون أقوالهم واجتهاداتهم ، ثم حمل علمهم التابعون وبدأت تظهر على أيديهم أواخر القرن الهجري الأول معالم مدارس الفقة الإسلامي ، حتى أسس أبو حنيفة في العراق (١٥٠ هـ ، ٧٦٧ م) وممالك في المدينة (٩٣ هـ ٧٩٥ م) ، والشافعى الذى بدأ فى الحجاز ، ثم انتقل إلى اليمن ثم العراق ، ثم أخيراً مصر (٢٠٤ - ١٥٠ هـ) وأحمد فى العراق (١٦٤ - ٢٤١ هـ) المذاهب الفقهية السنوية .

وعاصر أبو حنيفة زيد بن على زين العابدين ، وأيده ضد الأمويين ، كذلك أخذ أبو حنيفة من جعفر الصادق حفيده على زين العابدين . وزيد هو عمدة المذهب الشيعي الزيدى ، وجعفر الصادق هو عمدة الشيعة الاثنى عشرية . والزيدية والاثنى عشرية هما أقرب فرق الشيعة للسنة . وقبل كل هؤلاء عاش عبد الله بن إياض عمدة المذهب الإباشى ، وهو من أقرب المخوارج لأهل السنة .

لم يخطر ببال أبي حنيفة وممالك والشافعى وأحمد نشأة مذاهب فقهية طبقاً لأعمالهم (*) ، وأكثر اختلافاتهم هي في الفروع وليس الأصول ، وتلك المذاهب مع

(*) بل إن الأريعة نهوا عن تقليدهم ، واقرأ للشوكتانى كتابه الصغير حجماً والكبير فائدة « القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ».

وقد انفتقت المذاهب السنوية الأريعة على مصادر الشريع الأساسية : القرآن ، السنة ، إجماع الصحابة ، القياس . توقف المذهب الشافعى على ما سبق ، بينما أضافت المذاهب الأخرى المصالح والعرف ، مع تقدير المذهب الحنفى للقياس ليحصر في أضيق المحدود ، وأضاف المذهب المالكى عمل أهل المدينة . ووضع الحنفية شرطاً في الأخذ بأحاديث الأئم ، بينما تسامل فيها الحنابلة وضيقوا وشددوا =

مذاهب الشيعة والإباضية دليل على ثراء وتنوع الفكر الإسلامي وتعدديته منذ فجر الإسلام.

وقد أجمع كل المذاهب السابقة أن القرآن - المصدر الأول للشرع - كله قطعى الثبوت ، يليه السنة - المصدر الثاني - ، ومنها ما هو قطعى الثبوت : الأحاديث المتواترة ، ومنها ما هو ظنى الثبوت : أحاديث الأحاداد . ثم قسمت النصوص بعد ذلك - القرآن والسنة - إلى ما هو قطعى الدلالة (واضح وقاطع المعنى) ، ومنها ما هو ظنى الدلالة (يحتمل الظن) ثم رتب المذاهب السنوية - عدا الحنفي - أحكام الشرع كالتالى :

* فرض : جاء به أمر بالفعل ، ووعيد بالعقاب لعدم الفعل ، من لا يؤديه يأثم .

* مندوب : ما طلب الشارع فعله طلباً غير لازم ، يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه ، ويُسمى أيضاً النافلة والتطوع والمستحب والسنة .

* مباح : لم يأت بخصوصه أمر بالفعل أو النهي .

* مكروه : جاء به نهى ، ووعد بالثواب للترك ، ولا وعيد بالعقاب للفعل ، فمن يتركه يُثاب ، ومن يفعله لا يأثم .

* حرام : طلب الشارع الكف عنه على وجه الحتم واللزم ، فمن يفعله يأثم .
أما الحنفية ، فشرطوا للفرض أن يكون نصه قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، وإن أصبح واجباً ، ثم شرطوا للحرام أيضاً أن يكون نصه قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، وإن أصبح تحريم كراهة .

كذلك أجمع العلماء على :

* الأصل في الأشياء الجواز أو الإباحة (١٧٨) .

= في القياس ، ولذلك شاع القول - الذي إن لم يصبح تماماً ، ففيه جزء من الصحة - إن الحنفية في العراق مثلوا مدرسة أهل الرأي ، والحنابلة بالحجاج مثلوا مدرسة أهل النقل ، ويقع في الوسط منها كل من المذهبين المالكي والشافعى . ولا يغوتنا أن نبين أنه بسبب تضييق الحنابلة في القياس وتوسيعهم في المصالح ، تميز المذهب الحنبلى - على عكس المشهور - ببروتئه وسعته في المعاملات المستحدثة ، أخذًا بأن الأصل هو الجواز أو الإباحة ، ولأحمد بن حنبل قول مشهور : لا عبادة إلا بنص ، ولا تحريم إلا بنص .

* النية شرط في كل العبادات بناء على الحديث المشهور : إنما الأعمال بالنيات ولكل أمرٍ مانوي .

* لا يمكن الأمر بالمستحيل (١٧٩) .

* في حالة الشك والالتباس : اترك ما يربيك لما لا يربيك .

وأدى تفاعل المذاهب مع بعضها إلى أن دعا الملك الحسن الثاني علماء السنة والشيعة ل لتحقيق التقارب . [يأخذ قانون الأحوال الشخصية في مصر بعض آراء مذهب الشيعة الإمامية ، ويُدرس المذهب في جامعة الأزهر] .

ظهر قدِياً وحدِيثاً اتجاه عند البعض من إباضية وحنابلة ووهابيين إلى تحويل المندوب لما يشبه الفرض ، والمكرور إلى ما يشبه الحرام ، واعتبار ذلك من قبيل البدعة الحسنة ، والقصد والمبرر هما محاولة التأسی التام بما فعله الرسول ، ولكن هذا الاتجاه الصارم نحو القداسة يزحزح الإسلام عن وسطيته و يجعله للصفوة والزهاد ، وليس لعامة البشر وأواسطهم ، الذين ليسوا بفاسقين ، ولكن ليسوا أيضاً بتصوفين .

نشأت حركات من هذا القبيل على مدى التاريخ الإسلامي ، الحنابلة في العراق ، والمرابطون والموحدون في الجزائر ، واليوم جبهة الإنقاذ في الجزائر . واصطدمت تلك الحركات بواقع الحياة ، وعادته بشدتها . فالقرآن يلهم المسلم الدعاء للدنيا وليس الآخرة فقط «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» (البقرة-٢٠١) وكذلك فيجب علينا التمسك بشدة بالقاعدة الأصيلة التي تقول بنص القرآن « هو الذي خلق لكم مائة الأرض جميعاً» (البقرة-٢٩) ، « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض...» (لقمان-٢٠) . فالالأصل في كل الأشياء أنها جائزه ومحبحة إلا أن يأتي أمر من الشرع بخصوصها . ويجب ألا يجرؤ أحد على التحرير من نفسه ، وفي ذلك يقول القرآن « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم...» (المائدـة-٨٧) « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ...» (الأعراف-٣٢) « ولا تقولوا لما تصرف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ...» (النحل-١١٦) .

وماذا - بعد الخلفية السابقة - تعنى الدعوة لتطبيق الشرع في البلاد الإسلامية - إذا كانت أكثر من شعار؟

يعنى هذا بمعناه المباشر [وهو في الحقيقة معناه الواسع المرن الشامل] أن يكون القرآن

الدستور الأعلى للدولة (*)، لا يمكن أن تصدر قوانين تعارضه ، بل حتى الدساتير الموجودة تراجع عليه ، وقد تكشف تلك المراجعة أن بعض القوانين الدستورية (القديمة) هي غير دستورية (بعد مراجعاتها مع القرآن) . هذا ما يطالب به حتى المسلمين المعتدلين .

ويعني البعض الآخر بتطبيق الشريعة ، الاقتصار على ما فيها من أحكام ، مع اجتهادات وآراء الفقهاء ، دون تحديد في أي فترة من فترات التاريخ الإسلامي (**)، وقد يمكننا الافتراض بأنهم يريدون القرن الخامس عشر ، والتقليد وقفل باب الاجتهاد ، فإذا كان الأمر كذلك فستكون أصولية جامدة قاصرة عن أن تضع أساسا لأمة المستقبل .

(*) يعني أن يكون القرآن والشرع هما الدستور الأساسي ، هو ألا تعارض قوانين الدولة القواعد الكلية ، أو الأحكام التفصيلية في الشرع ، وقد ترك الشرع بحكمة إلهية مجالا كبيرا واسعا للعقل البشري لتفصيل القوانين اللازمة لمصالح الأمة في كل مكان وزمان ، على ضوء تلك القواعد الكلية . ونكرر هنا ما أكدده المؤلف أن الأصل في الأشياء الإباحة وأن المقاصد الرئيسية للشرع هي حماية : الدين ، النفس ، العقل ، المال ، النسل .

(**) وهم بهذا يرتكبون الأخطاء الآتية :

- ١- يقلدون بعضا من أتباع - أو حتى مجتهدي - المذاهب التي نهى مؤسسوها عن تقليلهم هم أنفسهم ، فيما بالك باتباعهم .
- ٢- الأخطر من هذا ، أنهم ينصبون - دون أن يدروا - أولئك الأتباع أو المجتهدين بمنزلة القرآن والسنة .
- ٣- أنهم يعيشون حالة فكرية على غير هم .

هوامش الفصل الرابع عشر

- (١٧١) أصبح تصنیف القوانین من الأهمية بمكان ، ليس فقط في الفقه الإسلامي ، ولكن أيضاً في القانون الأنجلو-ساکسوني .
- (١٧٢) «قانوننا» محمد أسد ، جبل طارق ١٩٨٧ .
- (١٧٣) اقرأ يوسف القرضاوي «الحلال والحرام» ، وانظر لـ «إرنست كلنجمولر» - «القانون والدين» في كتاب تكرييم الفلاطوري . كولون ١٩٩٠ صفحة ٤٧ .
- (١٧٤) قدم عبد الجماد الفلاطوري دراسة متقدمة للقيم القرآنية الدقيقة في مقاله «الشريعة - النظام - القانوني الإسلامي» في «الإسلام قوة عالمية» ميونيخ ١٩٨٨ .
- (١٧٥) أصبح كتب الحديث هي صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، موطأ مالك .
- (١٧٦) آل عمران ، ٥٩-٦٥ - النساء وغيرها .
- (١٧٧) مراد هو فمان «الإسلام» العدد السادس صفحة ٩ ، ميونيخ .
- (١٧٨) ٢٩ سورة البقرة ، ٢٠ سورة لقمان الآية ٨٧ سورة المائدة ، الآية ١١٦ سورة النحل .
- (١٧٩) ٢٨٦ سورة البقرة ، ١٥٢ سورة الأنعام ، ٤٢ سورة الأعراف ، ٦٢ سورة المؤمنون .

الفصل الخامس عشر

حقوق الإنسان

يحق للعالم الغربي أن يفخر بتاريخه في حقوق الإنسان ، فمنذ الفلسفه الرواقيين [في اليونان القديمة ، قبل الميلاد بثلاثة قرون] (*) وصاعدا ، بدا كمالاً وانحصرت تلك الحقوق في الثقافة المسيحية . ومرت تلك الحقوق بالأحداث التاريخية الآتية :

* الماجنا كارتا عام ١٢١٥ (**) .

* قانون الأمر بالمثل أمام القضاء قبل إصدار الأحكام عام ١٦٧٩ .

* إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ .

* إعلان حقوق الإنسان والحقوق المدنية الفرنسي عام ١٧٨٩ (***). وهذا ما يعلمه حتى أنصاف المتعلمين .

لهذه المعرفة السائدة آثارها النفسية البعيدة [في الغرب والشرق على السواء!] . فمن ناحية ، يعتبر الغرب إنما يجاز في هذا المجال ثنوذجاً يجدر بالعالم احتذاؤه ، ومن

(*) كذلك يفخر الغرب ، وتحدث أكثر كتب السياسة الأكاديمية عن ديمقراطية أثينا القديمة ، مع أن تلك الديقراطية استبعدت سبعة أضعاف عدد السكان الأحرار بأثينا ، لأنهم عبيد وأجراء .

(**) وقع جون ملك إنجلترا وثيقة الماجنا كارتا عندما تقابل عليه أعداؤه داخل وخارج إنجلترا ، وخاصة البابا أنوسنت وأشراف إنجلترا وكنيستها ، وأهم بنودها كما ذكرها ول ديورانت ص ١٩٩ الجزء الخامس عشر من قصة الحضارة :

١- كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شيء من حقوقها وحرياتها .

٢- إننا نمنع جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحرريات المدونة فيما بعد .

٣- لا يفرض بدل خدمة أو معونة إلا المجلس العام .

٤- لكي يجتمع المجلس العام .. سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وحملة ألقاب إيرل وكبار البارونات .

(***) رفعت الثورة الفرنسية شعار حرية ، إخاء ، مساواة ، وبعد ذلك بسنوات قليلة ، خرجت جيوش نابليون لخدمة المصالح الفرنسية ، واستعمرت فرنسا كثيراً من بلدان آسيا وإفريقيا ، وفي الجزائر وحدها مساحت قرى بأكملها من فوق الأرض ، وقتلت مليون جزائري بعد فترة احتلال قاربت قرنها ونصفها .

الناحية الأخرى ، من المأثور أن نقابل في الغرب خبراء هذا المجال الذين يرون لبقية العالم - خاصة المسلمين - تاريخاً بريرياً في ذلك ، برغم حقيقة أن هؤلاء الخبراء لا يعرفون شيئاً عما يتكلمون عنه .

ما سبق يبرر ظاهرات الأمم المتحدة بالظفر بإعلان حقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ ، ثم في ١٩ ديسمبر ١٩٦٦ : أـ ميثاق الحقوق المدنية والسياسية ، بـ ميثاق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهي في الحقيقة غير ملزمة ، وقد صدقت عليها كثير من الدول الإسلامية .

ولكن ..

هل لهذا البناء أساس متين ؟

كثيراً ما يتم التغافل عن هذا ، برغم حقيقة أن هذا البناء معرض للانهيار الكامل . رأى آباء الثورة الأمريكية أن حقوق الإنسان مصدرها الله ، ثم جاء بعدهم يعاقبة الثورة الفرنسية فقالوا إن مصدرها الطبيعة ! وكان هذا أول معاول الهدم في أساس البناء .

لا يصلح مزاج الإنسان - وإن سماه الحق الطبيعي [أو ما شاء من الأسماء الرنانة الفارغة] - من أن يقيم أساساً لحقوق الإنسان في كل مكان وزمان .

بل لا يصلح لذلك على الإطلاق إلا أساس إلهي شامل كما جاء في الإسلام ، يتعلمها أو يتعرف عليه أو يكتشفه الإنسان . والخلاصة في حقوق الإنسان أنها تتوقف على الإيمان الصحيح بالله ، فمن ينكر وجود الله يُعلّق حقوق الإنسان على هواه ، مهما خدع نفسه بالرجوع للحق الطبيعي أو القانون الطبيعي ، فلم يستطع أحد في أي وقت أن يستخرج نظاماً قانونياً عاماً شاملًا من إمعان النظر أو التأمل في الطبيعة ! (*) .

وتحدث النتائج عن نفسها ، فالدول الملحدة لا تقيم وزناً لحقوق الإنسان ، وهذا واضح في العالم الشيوعي (**).

(*) ففي الحقيقة يستطيع الإنسان بالتأمل في الطبيعة ، وفي عالم الحيوان في الغابة ، أن يخرج بقانون البقاء للأصلح ، وهو إن كان لا أخلاقياً ، فهو عملي ، وهو أحد القوانين التي رسخت في عالم الغرب بعد النهضة .

(**) وفي العالم الغربي الذي يحلوه أن يتكلم عن حقوق الأقليات ، نجد في أمريكا وحتى القرن العشرين ، =

وجاء معمول الهدم الثاني من تطور حقوق الإنسان إلى جعلها مسؤوليات على الدولة . فكما هو معروف ، عن特 حقوق الإنسان في القرون الماضية بتحديد وتقليل دور الدولة في حرية المواطن ، وذلك بقمع يدها في : الضرائب ، احتجاز الأشخاص ، نقل الملكيات ، ، تنفيذ الأحكام على هواها . فكانت النغمة في ذلك الوقت ما لا يجب على الحكومة عمله وليس ما يجب عليها عمله .

أما الآن ، فمن حقوق المواطن أن يجد فرصته للعمل ، والسكن ، والعلاج ، بل حتى الاستمتاع بالطبيعة وحق السعادة الشخصية (**).

أدى هذا التضخم حقوق الإنسان ، وارتفاع نطاق الدولة ، والاثنان خطر على حقوق الإنسان ، مثل الإلحاد .

ويشهو التشدق بالحقوق الأساسية - مثل حق الخوف ، أو حق التمتع بنشوة الغياب عن الوعي تحت تأثير المخدر [ويالله من مصطلح!] - مفهوم حقوق الإنسان ، ومن يدرى ماذا يستجد من تلك الحقوق الأساسية !

لايسير الإسلام وراء تلك الأفكار الحمقاء ، فهو يكفل أقدم وأشمل نظام لحقوق الإنسان في العالم . عند المسلم ، تلك الحقوق هي التي بينها القرآن والسنة ، ويجزم الفقهاء أن تلك الحقوق لا يجوز أن يضعها الإنسان ، هو فقط يستطيع أن يتعرف عليها أو يكتشفها من مصادرها ، وبهذا تجد حقوق الإنسان أصلب وأمن قاعدة في النظام القانوني الإسلامي .

ولما كانت لكل أحكام القرآن نفس المرجعية ، وبصفة مبدئية نفس الإلزام القانوني ، جاءت الأحكام والوصايا الخاصة بحقوق الإنسان موزعة في القرآن ، في مجالاتها المختلفة : الأحوال الشخصية ، الأحكام الجنائية ، الأحكام الاقتصادية .. وهكذا ،

= مدارس خاصة للزوج ، ووسائل نقل عامة خاصة بهم ، بل وحتى اليوم أحياه خاصة وأيضاً كنائس خاصة للزوج ، والاتجاه العنصري للرجل الآبيض لا يخفى على العين البصرية ، سواء كان ذلك لم أمريكا ، أو أوروبا الغربية ، أو في آخر العالم جنوباً وشرقاً ، في أستراليا الآسيوية ، التي تحدد هجرة الآسيويين لها وتحتفظ بمساحة قارة ، مع عدد سكان أقل من القارة ، وتتكلم عن الخوف من أن تصبح أستراليا - خوفاً من المهاجرين الآسيويين - آسيوية ! .

(*) يتحدث المؤلف عن ألمانيا حيث تكفل الدولة التعليم والعلاج والسكن لكل مواطن ، وتندفع إعانة بطالة تكفي للمعيشة الكافية ، وأكثر من ذلك كما قال ، فمن حق المواطن أن يطلب اجازة نفسية لأنه غير سعيد ، أو يحتاج لرعاية صحية خاصة لإزالة بعض السمنة ! وهذا - في جزءه الأول على الأقل - حد الكفاية الذي قال الفقهاء بوجوب توفيره في الدولة الإسلامية .

فهى ليست مجموعة فى موضع واحد ، وعلى هذاتم وضعها فى كتب الفقه ، ولم تظهر كموضوع واحد ، حتى الأعمال المعاصرة لم تبرزها وتنيزها كثيراً^(١٨٠) ، ومن هنا يخطئ البعض فىظن أن القرآن لم يكترث لهذا المجال كثيراً . وقد يكون أقرب ما فى ذلك لتفكير الغرب النمطى ، ما جاء بخصوص حقوق الأجانب .

يكفل الإسلام حقوق الإنسان من خلال نظام قانوني شامل يحقق العدالة الاجتماعية ، ومن وجهة النظر الغربية لحقوق الإنسان ، نجد الإسلام يضمن أهم ما فيها ، ومنذ ألف وأربعين سنة^(١٨١) :

- * حماية النفس والجسد .
- * حرية الاعتقاد والعمل .
- * المساواة بين الناس وعدم التفرقة العنصرية .
- * حماية المال الخاص .
- * حرية الزواج .
- * حق الدفاع القانوني عن النفس .
- * البراءة هي الأصل حتى تثبت الإدانة .
- * لا تطبق عقوبة قبل الإعلان عنها .
- * الحماية من التعذيب .
- * حق اللجوء السياسي .

أما أهم الاختلافات ، فيمكن حصرها فى التالي :

١- تتضمن المواثيق الأوروبية لحقوق الإنسان بما فى ذلك الصادرة في ٤ نوفمبر ١٩٥٠ المماثلة التامة بين الرجل والمرأة ، وبالتالي المماثلة التامة بين حقوقها أمام القانون وفي الزواج .

بينما يرى الإسلام أن هناك فروقاً بين الرجل والمرأة ، وبالتالي لكل منها دوره ومسؤولياته المختلفة والمتكاملة مع الآخر ، ويرفض اتباع ذلك الفكر الخيالي القائل بتماثلهم (*). (انظر الفصل التالي) .

٢- طبقاً للقانون الإسلامي إذا غير المسلم دينه فإنه لا يرث أقاربه المسلمين ، ويفسخ زواجه من المسلمة وليس هناك نص قرآنى بقتل المرتد (**).

(*) عندما يقبل الفكر الإنساني المماثلة التامة بين الرجل والمرأة ، قبل وبالتالي - بنفس المنطق - الفكر الشلودوى فى زواج الرجال وزواج النساء ، واعترفت به كثير من الدول وأصبح يتم فى الكنائس .

(**) عندما يخرج المسلم من دينه ، فهو وبالتالي يخرج من الأمة الإسلامية ، فتنتقطع الروابط التى تجمعه مع الأمة بكل من صلاحياتها ومسؤولياتها ، أي حقوقه وواجباته . وهذا مثل ما يغير أحد جنسيته ، فإنه يفقد حقوق وواجبات الجنسية . ومسألة قتل المرتد مسألة خلافية ، وهناك فرق بين من ارتد وعادى الإسلام ، وذلك الذى لم يعاده .

٣- ليس لغير المسلم فرصة متساوية مع المسلم في المجال السياسي ، ولكن ذلك في حالة واحدة فقط : أن يكون هدفه رئاسة الدولة (**).

وهو هنا ليس في وضع أسوأ من الأمريكي الذي ولد خارج أمريكا .

٤- بعض أخطاء العدالة لا يمكن تصحيحها ، مثل عقوبة الإعدام مثلا ، ولذلك ترحب بعض الدول في إلغائها تماما ، خاصة بعد أن أساء استخدام تلك العقوبة مئات الآلاف من المرات خلال فترة حكم النازى والحكم الشيوعى . ولكن لا ينضم إليهم العالم الإسلامي في ذلك ، فالقصاص بالقتل ثابت في القرآن لثلاث جرائم : الخيانة العظمى ، القتل ، ومحاربة الله ورسوله والفساد في الأرض « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ... » (المائدة - ٣٣) .

ولكن لكل هذه الجرائم حالات استثنائية يمكن العفو فيها عن عقوبة الإعدام ، طبقا للظروف (**).

٥- مشكلة أخرى - فات وقتها والحمد لله - وهي الرق . فالذين حاربوا الجيوش الإسلامية ووقعوا تحت الأسر ثم الرق ، كفل لهم الإسلام حقوقا وليسوا متاعا كما نص القانون الروماني . وقد دعت نصوص كثيرة في القرآن والسنّة إلى حسن معاملتهم ، إن لم يكن اعتاقهم .

وتطفو على السطح بقايا للرق في موريتانيا وأجزاء أخرى من العالم ، ولكن لا يوجد مسلم جاد يريد عودة الرق ، ولا يوجد ما يمنع الدول الإسلامية من شجب الرق نهائيا كما جاء في المادة الثامنة من إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، والمادة الرابعة من الميثاق الدولي للحقوق المدنية والسياسية .

نخلص من كل ما سبق بأنه لا توجد متناقضات أساسية في حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب ، بل يمكن القول بأن الإسلام مكمل للنظام الغربي في ذلك الخصوص .

(*) وهل هناك فرصة لمسلم أن يصبح رئيسا لأمريكا أو فرنسا ، أو دولة الفاتيكان أو دولة إسرائيل ؟ أو أن يحكم البلاد الرأسمالية شيوعي ، أو البلاد الشيوعية رأسمالي ؟

(**) وضع الإسلام ضوابط كثيرة للحكم بالقتل ، ليس هنا مجالها ، ولكن ذكر هنا ثلاثة منها : حق أهل الفتيل في العفو - ادرءوا الحدود بالشبهات - لمن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يخطئ في العقاب .

هوامش الفصل الخامس عشر

- (١٨٠) لم يحظ الإعلان عن حقوق الإنسان في الإسلام بنجاح قاطع في الوقت الحاضر ، انظر على سبيل المثال «موجز الميثاق الإسلامي» إسلام أباد ١٠/١٢/١٩٨٣ ، «الإعلان العام لحقوق الإنسان» الصادر عن «المجلس الإسلامي في أوروبا» ١٩٨١ ، «إعلان حقوق الإنسان في الإسلام» الصادر عن «منظمة الدول الإسلامية» القاهرة ٥/٤/١٩٩٠ ، وانظر أيضاً ليوسف شاخت «مقدمة للقانون الإسلامي» أكسفورد ١٩٦٤ ، سعيد رمضان «القانون الإسلامي» فيسبادن ١٩٧٩ ، عبد الرحمن أ. ضوى - «الشريعة- القانون الإسلامي» لندن ١٩٨٤ ، عصام ك. سالم - «الإسلام والقانون العالمي» برلين ، هانز كروس «القانون العالمي الإسلامي» الطبعة الثانية بون خوم ١٩٧٩ .
- (١٨١) من أكثر ما يذهل المستشرق في القرآن ، تفصيله الدقيق لحماية الأقليات من أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي ، وفي ذلك الدليل الساطع على سعة هذا الدين وتسامحه .
- (١٨٢) كان المرتدون في العصور الوسطى يعاملون معاملة الخونة ، ويتم إعدامهم طبقاً للأية ٣٣ سورة المائدة .

الفصل السادس عشر

المَرْأَةُ فِي الْمَجَامِعِ

في تاريخه الشاعري الرقيق لـ «حياة محمد» ، وصف «فيرجيل جيورجيو» مكانة المرأة عند عرب الصحراء :

للمرأة عند العربي مكانة لا يحظى بها أى شئ آخر في الوجود .. فهى النعومة الوحيدة في خشونة الصحراء ... هي البساتين والأزهار ، والفواكه والأنهار .. هي ينابيع الربيع وعطر الأعطار .

المرأة عند العربي في الصحراء هي كل جمال وروائع الكون !

هل يمكن لمثل هؤلاء الناس - قبل أن يصبحوا مسلمين - أن يحتقروا المرأة ؟

يتألف القرآن من مائة وأربع عشرة سورة ، الرابعة منه هي سورة النساء ، وليس هناك سورة للرجال . تبين تلك السورة حقوق النساء . تبين أول آيات السورة أن البشر كلهم مخلوقون من نفس واحدة ، فلا مجال لتمييز الرجال على النساء ولا النساء على الرجال . ﴿يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رِبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَبِثَتْ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رِحْمًا﴾ .

نزلت الشريعة الإسلامية للعالم كله ، بأجناسه المختلفة ، رجالاً ونساءً . فطبقاً للقرآن خُلق الرجال والنساء لنفس الغرض ، اشتراكاً في التكاليف ، التي تأهلوا لها ، يتعرضون لنفس السنن الكونية ، وسيحاسبون في الآخرة بنفس المقاييس .

هل يمكن القول بأن مثل هذه الشريعة تعادي المرأة ؟

بلا شك ، لعبت المرأة دوراً هاماً في حياة رسول الإسلام ، ورفعها لأعلى مواضع التقدير ، ولا يعارض في ذلك حتى أشد أنصار المرأة تحمساً ، كفاطمة المرنيسي (١٨٣) ويعرف الجميع كيف كان يعيش زوجته الصغيرة الذكية عائشة . ولكن ما لا يعرفه الكثيرون أنه أحب زوجته الأولى خديجة حباً كبيراً ظل يلاً قلبه بعد وفاتها ، حتى إن عائشة - التي تزوجها بعد وفاة خديجة بسنوات ، والتي لم تر خديجة في حياتها - كانت

تغار منها . وإنه لم يتزوج امرأة أخرى مع خديجة ، التي عاشت معه ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . ومن السهل على المرأة أن يستنتج بعد ذلك أن زواج محمد في آخر حياته كان له الكثير من الدوافع الدينية والإنسانية والسياسية (١٨٤) ، خاصة أن تلك الزيجات تمت وهو بين الثالثة والخمسين والثالثة والستين .

هل يمكن تخيل أن مثل هذا الرجل صبغ رسالته بكراهية النساء ؟
ومع هذا فالكليسيه المروع في الغرب أن المرأة في الإسلام مستبعدة مستدلة ، لا يُسمح لها بممارسة طاقاتها ومواهبها ، فهي مُسلسلة لخوض المطبخ . وذلك الفهم الخطاطي هو العقبة الكبرى لانتشار الإسلام في العالم الغربي .

ولكن لا دخان بلا نار .. فلا ينكر أحد تسلل كثير من العادات والأعراف والأفكار والمفاهيم الدخيلة - فيما يخص المرأة - إلى الإسلام . ولا عجب في تنبه العلماء لذلك ونشرهم فيضاً من المؤلفات لتوضيح المسألة . (١٨٥) وعلينا التنبه للفروق بين :
* الإسلام والعادات والأعراف .

* الإسلام كدين إلهي والإسلام كحضارة تفاعل فيها البشر مع الإسلام .
* الإسلام كنظرية ، والإسلام كتطبيق بشري .

ومنقطة بداية ، يجب أن نعترف بواقع تمييز الرجل عن المرأة في العالم كله . أكدت سيلفيا آن هيلوليت في كتابها «الحياة الأدنى - حرافة تحرير المرأة في أمريكا» (١٩٨٦) . إن النساء في أمريكا مازلن يكسبن ٦٤٪ مما يكسبه الرجال ، وحتى السويد فالنسبة ٨١٪ .

ومازال تفضيل المواليد الذكور عن الإناث في كثير من أنحاء العالم - مثل الصين وأمريكا اللاتينية - وليس العالم العربي فقط . الأمر الذي أنكره القرآن الآية ٥٨ سورة النحل وأتي به بين آيات تصف أعمال الكافرين .

وي يكن بسهولة رؤية اختلاف مظهر ودور المرأة داخل العالم الإسلامي نفسه . انظر فقط للحجاب وزي المرأة لترى الاختلاف من بلد إلى بلد ، بل من القرية إلى المدينة في نفس البلد . وبعد فجر الإسلام ، سرعان ما توالى القيود - اللا إسلامية (١٨٦) . على المرأة ، وما تزال حتى اليوم ترى كثيراً منها ، ولذلك يجب فصل ما هو إسلامي عما هو غير إسلامي في حالة المرأة المسلمة ، وستتناول مسائل : الزواج - الحياة العائلية - الطلاق - الملبس - قانون المواريث - الشهادة في المحكمة .

قد تواافق الشابة المسلمة على الزواج بالصمت عند سؤالها ، وذلك دفعاً للحاجة عند بعض الفتيات الصغيرات ، رغم أن القانون الإسلامي - مثله مثل القانون الروماني - لا يعتبر السكوت موافقة . وبالطبع لا يعني هذا الحفظ للحياة أن الإسلام يقر زواج الفتاة ضد رغبتها (*) .

يجوز للرجل المسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، ولكن لا يجوز للمرأة المسلمة أن تتزوج إلا مسلما ، الحكمة بسيطة واضحة ، ففي الإسلام ، الزوج هو رب العائلة ، ويكتنفه تربية أولاده تربية إسلامية ، ويحيى وأسرته كلها حياة إسلامية ، الأمر غير المضمون إذا لم يكن الأب مسلما .

تتزوج المسلمة زوجاً واحداً ، والمنطق في ذلك متعدد الجوانب ، منها حفظ الأبوة [منع اختلاط الأنساب] وعدم موافقة تعدد الأزواج لدور المرأة وطبيعتها النفسية والعضوية] ، ويجوز للمسلم أن يتزوج حتى أربع زوجات بشروط معينة .

وربما الصعوبة هذه الشروط ، اختلفت تقريباً تعدد الزوجات من عالم اليوم . والمنطق في ذلك أيضاً متعدد الجوانب ، منها أن تكون الزوجة مريضة نفسياً أو عضوياً ومنها انخفاض نسبة الرجال للنساء بسبب الحروب أو غيرها .

وي يكن القول بالليل الباطني في القرآن للزوجة الواحدة (١٨٧) « وإن خفتم ألا تقطعوا في اليتامي فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعذلوا واحدة... » (٣- النساء) .

إذن يجوز التعدد تحت شرطين :

* إن استطاع المرء أن يعدل بين اليتامي مادياً ونفسياً ، على سبيل المثال بأن يتزوج أرملة ذات أطفال .

* إن استطاع أن يعدل بين زوجاته ، ليس فقط مادياً [وينشئ الأسرة الإسلامية الراضية السعيدة] .

وبالطبع لن يتحقق ذلك إذا رفضت زواجه ثانية الزوجة الأولى ، سواء بشرطها ذلك عند الزواج أو عند إقدام الزوج على الزواج الثاني .

(*) بل إنه يجوز للمرأة المتزوجة برضاهما أن تطلب الطلاق من زوجها حتى لو لم يكن به ما يطيب ، ولم يكن يسع معاملتها ، مجرد أنها لا تسعد بعشرته ، وقد طلق الرسول إحدى الصحابيات لذلك ، وكذلك فعل عمر .

ويقول القرآن بوضوح في الآية ١٢٩ من نفس السورة « ولن تستطعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .. ». ﴿١٢٩﴾

ويحذر مراراً وتكراراً من خداع النفس ، مع تأكيد « .. واعلموا أن الله بما تعملون بصير » (١٨٨).

من يعى ما سبق ، يستنتج أن تعدد الزوجات كما مارسه كثيرون من السلاطين والأمراء ، العظماء منهم والصغراء ، لم يكن من المسائل التي أقرها القرآن ، بل كثيرا ما كان هوائيا اعتباطيا ، لا إنسانيا ولا إسلاميا . بل إنه لا يمكننا إلا التأكيد على أن تعدد الزوجات يمكن تبريره فقط عند الحاجة الحقيقة إليه ، وعندما تقبله الزوجة نفسياً . وفي تلك الحالات الضرورية ، تجد في الواقع نساء عصريات مثقفات - نشأن وتربين في الغرب - يقبلن هذا التعدد برحابة نفسى ، منهن الأمريكية مريم جميلة التي اعتنقت الإسلام بعد اليهودية .

وعلى أي حال ، كما تغيرت النظرة للتعدد بين المسلمين ، تغيرت عند الغرب ، فلم يعد ذلك الأمر اللا أخلاقي ، حتى أمام القانون الألماني ، فقد قالت المحكمة الفيدرالية العليا في القضية رقم (Azic, 33.81) : ليس اتخاذ زوجة ثانية عملاً لا أخلاقياً . ونشرت ذلك جريدة فرانكفورت الجماينه في عدد ٣ مايو ١٩٨٥ صفحة ٧ . وباختصار ، لن يكون التخلص الكامل عن تعدد الزوجات أمراً غير مقبول فقط ، بل هو أيضاً قصيراً النظر (*).

تقابل الحياة الزوجية في كل العالم مشكلة : ما العمل إذا اختلف الزوجان في مسألة معينة ؟ لن يمكن أخذ القرار بأغلبية الأصوات ، هناك حلان ممكنان : إما أن يكون

(*) في استطلاع حقائق ميداني نشرته مجلة نيوزويك الأمريكية في عددها الصادر في ٤/٢٦ /١٩٩٣ ، أنه لكل رجل شمله الاستطلاع علاقة غير شرعية بـ ٧٣ امرأة في المتوسط ، وكثير من البلاد الأوروبية تنشر بيانات مشابهة .

ومنذ سنوات قليلة ، أذاع التليفزيون الأسترالي حلقة - مسلية حقاً - عن استرالي (مسيحي أيض) له أكثر من عشر عشيقات يعيش معهن في منزل واحد ، وأضعاها هذا العدد من الأبناء ، طالب فيها الرجل الحكومة الاسترالية بزيادة إعانته !

وعلى غير الشائع ، الإسلام هو الدين الوحيد الذي حدد عدد الزوجات ، فلا حد لهن في اليهودية وفي المسيحية ، ولا يوجد نص واحد صريح بتحديد عدد الزوجات لا في العهد القديم ، ولا في الأنجليل الأربع التي بين أيدي المسيحيين .

لأحد الطرفين صلاحية القرار ، عموماً ، أو في مجالات خاصة ، أو ما يشبه حق الفيتو . وهذا هو الحل الإسلامي . والحل الثاني أن تنقل مشكلة الزوجين العائلية برمتها إلى مجلس العائلة الكبيرة ، أو موظفي السجل المدني ، أو حتى المحكمة .

واستخدم الغرب الحل الثاني ، مع ما فيه من مهانة وسخافة ، حتى وصل الأمر لأن يلقى موظف السجل المدني الزهر لكي يقرر اسم العائلة الذي تحمله العروسة بعد الزواج .

اختار الإسلام بوضوح أن يُبقي حل المشكلة داخل العائلة ، ويجعل للزوج صلاحية القرار «... ولهم مثل الذي عليهم بالمعروف وللرجال عليهم درجة ..» . البقرة ، «.. الرجال قوامون على النساء ..» ، النساء .

لا ينطبق هذا على تربية الزوجة لأطفالها الصغار ، أو رعاية أموالها ومتلكاتها الخاصة . وقد تمنت المرأة المسلمة بملكيتها الخاصة منذ ١٤٠٠ سنة ، بينما لم تحصل المرأة الأوروبية على ذلك . إن كانت قد حصلت عليه . إلا في منتصف القرن العشرين .

يعتبر الإسلام الأمومة وتربية الطفل أ Nigel وأكرم أدوار المرأة ، وترفعها قدرتها على حمل الحياة في بطنها لمقام سام ، فقال الرسول عن الأم «الزمها فإن الجنة تحت قدميها». أليس من الأهمية بمكان أن تأمر الشريعة بجلد من يقذف المحسنات الغافلات ثمانين جلد؟ - الآية الرابعة - سورة النور .

يقرر المسلمون بأن حياة الجنين ليست ملكاً لأمه . حتى لو كان بطنها ملكاً لها . كما تقول نساء الغرب . لا يرفض الإسلام تنظيم المواليد لأسباب عائلية أو ضرورات اجتماعية قومية ، ولكنه يرفض الإجهاض «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ..» . ٣٣ - الإسراء .

لا يفرق الإسلام بين الدين والدنيا ، فالزواج مسألة دنيوية أمر بها الدين لكل قادر عليه ، ولذلك يرفض الإسلام العزوبيه والرهبانية ، ويراهما المسلمون تأويلاً خاطئاً للشريعة السابقة .

عقد الزواج غير محدد بعده عند المسلمين [باستثناء الشيعة في زواج المتعة] ، ويحرص الشرع على حمايته واستمرار نجاحه واستقراره . ومن الناحية الأخرى ، يحرم الإسلام تحريراً تماماً أي علاقات جنسية خارج الزواج «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وسوء سبيلاً» . ٣٢ - الإسراء ، وكذلك الشذوذ الجنسي «ولوطاً إذ قال لقومه

لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل
أنتم قوم مسرفون » ٨١ - ٨٠ الأعراف ، « أنتكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل
أنتم قوم تجهملون » ٥٥ - النمل كذلك كره الشرع الطلاق إلا في حالات الضرورة .
وسيتحدث الفصل التالي عن ملابس الرجال والنساء .

ويُسألهُ لهم الاحتياط الأخير الذي أوجده القرآن لحماية الزواج ، فيقول -
بطلاق - إن القرآن يأمر بضرب الزوجات » ... واللاتي تخافون نشوذهن
فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .. » ٣٤
- النساء .

يوافق الشرع على ذلك إذا كان فيه إنقاذ للزواج إذا هدده نشوذه غير محله
للزوجة ، وإطفاء لغضب الزوج بدلاً من أن يطلق زوجته ، فالطلاق - كما هو مشهور -
أبغض الحلال عند الله . وقيد الرسول الضرب بأن يكون غير مبرح ، أي غير مؤلم ،
 فهو أشبه بالضرب الرمزي ، وغضب غضباً بالغاً لما اشتكت له بعض نساء المدينة ضرب
أزواجهن لهن (١٨٩) . واتفق المفسرون أن ذلك يشبه ضربة خفيفة بمنشفة أو مروحة يد
أو مثل ذلك [ولا ننسى حديث الرسول المشهور : خياركم خياركم لأهله] (*).

ولكن يبقى الطلاق آخر الحلول إذا استحالات العشرة ، وهو متاح لكل من الزوج
والزوجة ، مع فارق في الإجراءات القانونية . فإذا عزم الرجل الطلاق ، فما عليه إلا

(*) ما أشبه التأويل الفاسد لما نص عليه القرآن بشأن ضرب الزوجات بالقول إن دولة ما - وهذا ينطبق على كل
الدول تقريباً - تبني الجيوش وتسلحها لقتل الناس ، أو إنها تسلّح رجال الشرطة لقتل المواطنين ، أو إنها
تبني السجون لتعذيب المواطنين . فالإطلاق والتعيم في كل تلك الحالات يؤديان لفهم خاطئ .
والزوجة التي أمر القرآن بضربيها هي تلك التي تتمرد على زوجها بدون وجه حق والتي من صالحها
استمرارها مع زوجها ، والتي يؤدي ضربها - بالشكل الهين اللين الذي أمرت به السنة - لرجوعها لرشدها ،
فلم يضرب زيد بن حارثة زوجته زينب بنت جحش ، ولا أمره الرسول بضربيها ، وقربهما من بيت الرسالة
المعروف .

ومن ناحية أخرى ، لا يقبل كل فرد في كل دولة أن تحاسبه الدولة وتحاكمه وتعاقبه على سوء أفعاله ،
أنيقبل الفرد ذلك من الدولة والمجتمع ، ثم يأتي ذلك الحق والسلطان على كبير العائلة في عائلته ؟
وفي دراسة أمريكية طرفة نشرتها أخبار اليوم في شهر ٦/١٩٩٤ عن مراسلتها في أمريكا منها عبد الفتاح :
الإحصائيات الرسمية تقول إنه كل ٣٦ ثانية تقتل امرأة على يد رجل تربطها به علاقة ما ، وكل ١٥ ثانية
هناك امرأة في مكان ما في أمريكا تناول علقة على يد رجل ، ويصل أمرها إلى البوليس أو إلى المستشفى ،
غير ما يصل ٢٠ مليون حالة ضرب مبرح من رجال لنسائهم في العام تصل فيها ٢٥٠٠٠ حالة
للمستشفى ، منها ٣٠٠٠ رأساً للعناية المركزة .

أن يقول ذلك لزوجته (**)، ولا يسترد شيئاً من المهر . أما إذا أرادت المرأة الطلاق ، فهى تطلب ذلك من زوجها ، فإذا رفض فمن حقها أن تذهب للقضاء (***) ، وعليها التنازل عن مهرها .

ينظم القرآن المواريث ، فيirth الابن ضعف ما ترثه الابنة [ليس في كتب اليهود ولا المسيحيين ما يكفل للأبنة ميراثاً] والمنطق في ذلك واضح ، فالشقيق مسئول عن شقيقته بعد وفاة والدهما . فاختلاف المسؤوليات يستوجب اختلاف الصالحات والسلطات .

وأخيراً ، فى قضايا الديون أمام المحاكم ، تصح الشهادة إما برجلين ، أو رجل وامرأتين ، وقد علل ذلك بعض الفقهاء بأن المرأة معرضة فى أيام معينة من الشهر للاضطراب (****) .

هذه هي الأحوال الخاصة لتطور المرأة في الإسلام ، لم تُعرِّق تلك الأحوال - بأى شكل - دور المرأة في الإسلام ، هذا الدور - الذى لم يُكتب كما ينبغي ، برغم محاولات فاطمة المرنيسي - يمكن له أن يبدأ بعائشة حافظة القرآن ورواية الحديث الحصيفة [ومن أفقه وأذكى الصحابة] والتي كان لها دور فعال في الأزمة بعد عثمان . ويُفصّل مثل هذا التاريخ حياة رابعة العدوية زاهدة البصرة الشهيرة (٧١٣-٨٠١) ، وبعض زوجات الخلفاء مثل الخزيران وشجرة الدر اللتين قامتا بأعباء الحكم (١٩٠) .

أخشى ألا يلقى هذا الفصل تفهماماً كاملاً من القراء الغربيين ، فهو لا يواافق العصرية . فأى دور يمكن أن يلعبه نظام أخلاقي لممارسة الجنس في عالم أنكر كل مقدس ، تتزايد فيه يوماً بعد يوم الماسونية السادية والاعتداء الجنسي على الأطفال .

(*) عند الشيعة الإمامية ، يجب أن يتم الطلاق في حضور اثنين من الشهود العدول « .. وأشهدوا ذوى عدل منكم » (٢ - الطلاق) ، وبهذا يمتنع طلاق الغضبان ويقل طلاق الطاش المتھور ، فإن حضار الشاهدين العدليين يستغرق وقتاً ، بالإضافة لما يمكنهما فعله من وساطة وشفاعة .

(**) في هذا أيضاً إعطاء مهلة من الوقت للمرأة حتى تتروى ، وتزول عنها فورة الغضب والانفعال والعاطفية ، فإذا أصرت ، كان في ذلك دافع للزوج أن يطلقها فهي تلجمأ لولي الأمر في صورة القضاء لتفارق زوجها ، وجاء في الشريعة نصوص كثيرة بمعنى « .. فامسکوهن بمعرفه أو سرحون بمعرفه » (٢٣١ - البقرة) وقال الرسول لا ضرر ولا ضرار .

(***) وفي النهاية - بل في البداية - من ذا الذي يريد أن يزوج بزوجته أو ابنته أو أخته في المشاكل المالية وخلافاتها وتعانها ، ومن الذي يريد لها الذهاب للمحكمة ؟ وفي غير تلك المسائل ، يأخذ الإسلام بشهادة النساء فقط فيما هو أهم من المال ، ففي النسب يكتفى بشهادة النساء .

ما جدوى تكريم الزواج فى وقت يتزايد فيه عدد النساء اللاتى يقررن الانفصال عن أزواجهن والانفراد بتريرية أولادهن ؟ ما تأثير منع الإسلام للإجهاض فى وقت أصبح فيه الإجهاض مباحا حتى فى أى شهر من شهور الحمل ؟ وما فائدة الكلام عن الزى الإسلامى فى الوقت الذى تعرض فيه شاشات التليفزيون مسلسلات العرى والإثارة الرخيبة البلياء ؟

بالطبع تبدو الحياة الإسلامية اليوم كما لو كانت من كوكب آخر .. حياة تصطدم بما يسمى العالم الحديث ، لا أدريته .. قيمه .. كل شيء يجوز .. وما إلى ذلك .. ولكنها الحياة البديلة .. بديلة مشروع أبدى لا يلى ولا تنقضى صلاحيته ، وإذا رأه البعض قدیماً ، فهو أيضاً حديث ومستقبلی فلا يحده زمان ولا مكان .

وفيمما يخص هذا الفصل ، فحقائق هذا المشروع الحالى :

* المرأة مختلفة عن الرجل بيولوجياً وجسدياً ومن ثم نفسياً .

* تكمن سعادة الرجل والمرأة في اختلافهما .

* يوجد الحب الحقيقي بين الرجل والمرأة ، ثم بينهما وأطفالهما ، المجال الصادق في الزواج .

* فكرة الجنس بلا قيود ، التي سادت وتسلطت ، تدمر الفرد وتدمير المجتمع .

وعلى أي حال ، فإننا الآن نشاهد بوادر الشك في الثورة الجنسية والنسائية ، وأجبر الآيذر الناس على إعادة التفكير في الجنس بلا قيود . وتعبر كثيرات من الجيل الأول للمديرات في أمريكا عنأسفهن لتفضيلهن العمل على العائلة وإنجاح الأطفال ، واستبدالهن الأخوة النسائية بالأمومة . وبذلت المناقشات والجدل فيما إذا كان تقليد الرجل يؤدى لتحرير المرأة ١

وعادت بين الطلبة في أوروبا العلاقات الهدئة بين الطلاب والطالبات (١٩٦١) .

وفي كتابه « الانحراف الجنسي » أطلق فانسى باكارد الأمريكي عام ١٩٦٨ مصطلح غابة الجنس على الثورة الجنسية في أمريكا . وعندى أن البندول عائد لا محالة للوسط ، والتساؤل الوحيد هو متى ؟

وباختصار ، الإسلام يتمسك بالزواج ، يؤسسه ويحافظ عليه ، وبينى ذلك على

الفرق الذى لا يُنكر بين الرجل والمرأة . كل منهم له تكوينه وإمكانياته وله دوره المتمم للأخر . هما متساويان أمام الله ولكن ليسا متماثلين .

هل هذا يوافق العصرية أو الحداثة ؟

ليس هذا بالسؤال المناسب .. فالإسلام ليس موجة فكرية ولا موضة ، ويكتبه الانتظار .

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق .. ﴾ (٥٣ - فصلت).

هوامش الفصل السادس عشر

- (١٨٣) فاطمة المرنيسي. «النساء في الإسلام» أكسفورد ١٩٩١.
- (١٨٤) طبقاً للقرآن ، كان للرسول أكثر من أربع زوجات [والزواج في الإسلام ليس قصة حب فقط ولكنه نواة المجتمع ، وهو نسب وصهر بالمعنى الكاملة لكلمتين كما جاء في القرآن الآية ٥٤ سورة الفرقان] .
- (١٨٥) انظر أولاً فهرست الأعمال الإسلامية للمؤسسة الإسلامية في لستر- بريطانيا ، والذي ينشر ٤ مرات في السنة مع نشرة كتاب العالم الإسلامي ، ومن الأعمال الألمانية ، نذكر هنا فقط ما جاء في مجلة الإسلام- ميونيخ : عائشة ليمو : «النساء في الإسلام» ٣، ٤، ٥ / ١٩٨٨ .
- فاطمة جريم : «حياة النساء في الإسلام» ١٩٨٩/٣ ، آسية ظليل أو جلو. كورهـلر » : «فرصة للنساء» ١٩٨٦/٤ .
- وباللغة الإنجليزية :
- عبد الرحمن ضوى. «النساء في الشريعة» نيجيريا ١٩٨٣ ، فتحى عثمان. «المسلمون وقانون الأحوال الشخصية في الهند» . مجلة عربية ، لندن مارس ١٩٨٦ أتون. «الحقوق القدية للمرأة المسلمة» . مجلة عربية ، لندن يوليه ١٩٨٥ .
- وباللغة الفرنسية :
- رباح إسلامبولي. «المرأة في الإسلام» ، مجلة المجاهد الجزائرية ٢، ٣ / ١٩٩٠ ، «المرأة في القرآن» ، هوريزون ٩/١٠ مارس ١٩٩٠ .
- (١٨٦) انظر مرجع فاطمة المرنيسي السابق ذكره.
- (١٨٧) محمد أيوب مولباور. «الرجل والمرأة في الإسلام» ، مجلة الإسلام العدد ١٩٨٩/٢ صفحة ١-٩ .
- (١٨٨) ٢٣٧، ٢٣٣ سورة البقرة ، ٢٩ ، ١٨٠ ، آل عمران ، ١ ، ١٢٧ ، ٥٨ ، ١٢٨ ، ١٣٥ . النساء ، ٧ المائدة ، ٥ هود ، ٧ الزمر ، ٦ الحديد ١٣ الملك .
- (١٨٩) انظر ما كتبه محمد أسد في «رسالة القرآن» بتفصيل دقيق في الهاشم ٤٥ للآية ٣٤ سورة النساء .
- (١٩٠) فاطمة المرنيسي. الدار البيضاء ١٩٩٠ .
- (١٩١) انظر «هيلتون كرامر» . «الخوف من الجنس» فرانكفورت الجماينه ١٩٨٦/٩/٣ ، «جون ليو» . «الأمومة ضد الأخوة النسائية» تايم الأمريكية ، نيويورك ١٩٨٦/٣/٣١ صفحة ٤٣ . تسيلفيانا آن هيوليت. «الحياة الأدنى : خرافات تحرير المرأة في أمريكا» نيويورك ١٩٨٦ .

الفصل السابع عشر

الشّرق المُحتجب

برغم الحروب التي خاضها الغرب - خلال قرون عديدة - ضد العالم الإسلامي ، في الشرق الأوسط ، البلقان ، الأندلس ، شمال إفريقيا ، الهند ، واستعماره لكثير من البلاد الإسلامية ، فإنه لم يحاول معرفة الإسلام إلا على فترات متقطعة ، وبطريقة انتقائية منحازة . ويشهد على ذلك التاريخ المؤسف للترجمات الأوروبيية للقرآن .

جرت محاولات فردية جادة لفهم أو تبني العالم الآخر للفكر ، قام بها فرانسيس الأسيسي ، ريموند لولو ، ولكن لم تثمر مع التجسيد الشائع المسوخ ط الذي نحته الغرب للإسلام حتى القرن التاسع عشر .

وظل الشرق محتاجاً غامضاً !

ثم جاء العصر العظيم للمستشرقين ، الذين عكفوا منذ القرن الماضي على بحث الإسلام بطريقة علمية أقرب للتعاطف منها للعداء ، وساهم فيها بالنصيب الأعلى العلماء الألمان أمثال كارل بروكلمان ، هايز هالم ، ألفريد فون كرير ، ف. أوغست مولر ، يتلمان ناجل ، رودى بارييت ، جوستاف فايل ، وفهرس ثيودور نولدكه القرآن ، وفريدرش روكيت الذي ترجم القرآن إلى قصيدة شعرية ، ويوهانس فيلهاؤس .

كذلك قدم المستشرقون الفرنسيون أبحاثاً ممتازة ، يكفي أن نذكر منهم جاك بيرك ، ريجى بلاشير ، كلود كاهن ، هنرى كوربين ، لويس جارديت وهنرى لاوست .

وساهم من البلاد الأخرى تور آندراء ، ريتشارد بل ، فرانتس بول ، ايجناس جولديزير ، جوستاف فون جرونباوم ، فيليب حتى ، مارشال جي . اس هودجيسيون ، سى . سنوك هرجوفيچ ، بي . جه فانيكيوتيس ، ولIAM مونتجومري وات .

وضَّحت - بصورة ملموسة - تلك البحوث صورة الإسلام عند الغرب ، بل وأمدت العالم الإسلامي بمعلومات هامة . ولكن مازال هناك - مثل سير هاميلتون جيب - من يرى الإسلام بمنظار بعثات التبشير المسيحي ، ومثل ماكسيم رودينسون يرى الإسلام

بنظار ماركسي ، بينما يجري البعض الآخر أبحاثه في ازدراء الإسلام ، وفي عجلة قبل أن ينقرض الإسلام وأتباعه .

مارس أكثر العلماء أبحاثهم لخدمة المصالح الاستعمارية وإخضاع العالم الإسلامي للغرب ، سواء كان ذلك بوعى أو بدون وعى ، وعمل قليل منهم عملاً سريراً بكل معانى الكلمة ، مثلما كان ت . إى . لورانس .

جذب إدوارد سعيد - البروفيسور الأمريكي الفلسطيني الأصل - الانتباه عام ١٩٧٨ في كتابه الأعلى مبيعاً «الاستشراق»^(١٩٢) لهذه الظاهرة . حتى إنه قارن عداوة الاستشراق للغرب بعداوة الغرب [الظاهرة القديمة ، أو الظاهرة قدّيماً] للسامية . وعنده أن الاستشراق اختراع أوروبي لخدمة وحماية مصالح أوروبا وتطلعاتها لاحكام سيطرتها على الشرق ، بإسقاط وجهات نظرها على الشرق . حتى الباحث الدقيق لويس ماسنيون أشاد بالحلاج لما تخيله فيه من مسحة مسيحية .

بكل تأكيد ، كشف إدوارد سعيد عن جزء ليس صغيراً من الحقيقة ، ولكنه ركز بحدة على شخصيات سلبية مثل ريتشارد بيرتون ، فهناك في القرن العشرين دراسات استشرافية لا تنظر للشرق باستعلاء ، ولا تستبعد أن يُعاد الشرقي قيادة العالم حضارياً ، فما زالت مقوله « يأتي النور من الشرق » صالحة .

وراء تلك الدراسات - التي صحت صورة الإسلام في الغرب - علماء مسلمون أمثال : ليوبولد فايس (محمد أسد) ، فيتوس بوركاردت ، أحمد فون دنفر ، مارتن لنجز ، روجيه دوباسكويه ، محمد بكتال ، وأيضاً علماء متعاطفون مثل : مارسيل بويسارد ، هنري حسين ، دانييل - جيمازت ، جيل كيبيل وأنما ماريا شمل . بل إنهم أفادوا في ذلك أكثر من بعض المسلمين الرحالة بين عالم الإسلام وعالم الغرب ، والذين اختاروا لهم مكاناً لامع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، ولكن في المتصف ، مثل محمد أركون وبسام طيبي .

ومازالت الحاجة ماسة لأن تؤلف زيجريد هونكه كتاباً مثل « الله ليس كذلك »^(*) لتزييل لكثير من الأوروبيين عقدهم الاستعلائية تجاه العالمين العربي والإسلامي برغم معارض ممتازة مثل « أوروبا والشرق » في برلين عام ١٩٨٩^(١٩٣) ، وتخليصهم من

(*) نشرته دار الشروق مرتين ، آخرهما ١٩٩٦ .

أفكار أفلام ألف ليلة وليلة ، وإن الناس هناك قساة متعصبون ، غامضون لا يمكن فهمهم ولا توقع ماذا يفعلون ، فوق كل ذلك فساق شهوانيون .

ولكن لا يتافق الحجاب الذى ترتديه معظم النساء فى الشرق مع تلك الصورة الشهوانية التى يريدها الغرب للشرق ، بل هو رمز للعفة والاستقامة وأخلاقيات الشرق ، تلك التى لم يفهمها الغرب ، ولا يريد أبداً أن يقر بها للشرق . والحقيقة باختصار أن الشرق يُذكر الغرب بحشمة العصر الفيكتورى أكثر من ألف ليلة وليلة :

* لا يمارس الجنس فى طرقات الشوارع .

* لا يسمع بالفن الإباحى .

* نادراً ما تكون هناك علاقات جنسية قبل الزواج أو خارجه .

* نسبة الأولاد غير الشرعيين منخفضة تماماً بالنسبة للغرب .

* الغالية العظمى من العروسات أبكار .

* لا تجد إعلانات تبادل الزوجات ، ولا نوادى العراة ، ولا زواج الشواذ ، ولا السكن المشترك بين الطلبة .

هذا هو الإسلام غير العصرى ..

وهذا ما يفخر به ، وعن حق .

يرتدى الرجال والنساء فى الإسلام زيا لا يثير ما لا يجب إثارته .

يرفض الشرق والغرب أن ييشى الناس عراة فى حياتهم اليومية . ويختلفان فى المدى الذى يجب تغطيته من الجسد .

وتختلف أزياء النساء فى العالم الإسلامي ، من جاكارتا شرقاً ، حتى المغرب .

ففى المغرب ، لا تغطى نصف النساء شعورهن ، ونصف ذلك فى المدن . وفي الجزائر ، منذ ١٩٩٠ تغطى أكثر النساء شعورهن ، وتغطى بعضهن أجزاء من وجوههن ، وبعضهن لا يترکن ظاهراً إلا عينا واحدة . تضع الفلاحة التركية . مثلها مثل أختها الفلاحة المسيحية فى حوض البحر المتوسط . غطاء رأس ، ولكنها لا تفك فى تغطية وجهها كما تفعل المرأة فى السعودية . على الأقل قبل حرب الخليج - تغطية

مضاعفة أو أكثر . أما في إندونيسيا فقد يصعب عليك معرفة المرأة المسلمة وسط نساء بالي (*) .

لعله من المفيد - خاصة بعد حرب غطاء الرأس في فرنسا (١٩٤) - أن نبحث عما ينص عليه القرآن في هذا الخصوص : « .. وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب... » (٥٣ - الأحزاب) .

« يأيها النبي قل لآزواجهك وبناتك ونساء المؤمنين يددين عليهمن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيمًا » (٥٩ - الأحزاب) « وقل للمؤمنات يغضبن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يدرين زيتنهن إلا ما ظهر منها ولispersin بخمرهن على جيوبهن ولا يدرين زيتنهن إلا لبعولتهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهم أو نسائهن أو ملكت أيمانهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإرية من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضرن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زيتنهن .. » (٣١ - النور) .

تختص الآية ٥٣ من سورة الأحزاب - آية الحجاب - بنساء النبي . ، والمناسبة التاريخية واضحة ، فيعدما أصبح الرسول رئيس الدولة [يأتيه أفراد الأمة لشئونهم المختلفة] ، فنشأت الحاجة للحجاب للفصل (**) بين شئون الدولة وبين خصوصية وحرمة عائلته ، الأمر الذي هو الآن روتين في حياة كل سفير ، فمقر إقامته هو حرم خاص ، [وكل رئيس دولة] .

وقد تطور هذا الأمر في بعض فترات التاريخ الإسلامي لمسافة ، حين فاضت قصور السلاطين بالحرير .

أما النصان الآخران ، اللذان يتعلقان بلباس النساء ، فمن الأهمية بمكان التنبه لأن النصين لا يأمران بأن تلبس المرأة أولاً غطاء للرأس أو حجابا ، ثم ثانياً تجذبه لأسفل ليغطي صدرها ، فالقرآن يفترض أن تلبس النساء من الأصل ما يغطي صدورهن .

(*) تجد في إندونيسيا وماليزيا كثیرات من النساء والفتیات يلبسن غطاء الرأس أو الحجاب ، ويكشفن عن أجزاء من أذرعهن وأجزاء من سيقانهن .

(**) المقصود بالحجاب هنا الساتر أو الفاصل وليس الحجاب الذي يُرتدى ، وكما قال المؤلف فهذه خاصة بزوجات النبي ﷺ ، كما أنهن لا يتزوجن أحداً بعده .

في الأزمنة القديمة ، كان يتم ارتداء ذلك من أعلى ، على الأقل في البلاد الحارة المترية ، ولم ينشأ ذلك تنفيذاً لأمر قرآنى . وتبين الآية ٣١ من سورة التور - والآية ٣٠ قبلها - الأمر بغض البصر ، فلا ينظر أى من الجنسين للأخر بطريقة إيحائية أو خارجة ، ويغطى كل جنس أعضاءه الخاصة .

كذلك بينت الآية أن على النساء ألا يكشفن إلا ما ظهر من زيتهن . ويفيدوا لى أن هذا التشريع معقول جداً ، فهو يأخذ في الحسبان الاختلافات الكبيرة من عصر لعصر ومن ثقافة إلى ثقافة ، فيما هو مثير في المرأة - باستثناء العورة والصدر - قد يكون هذا شعرها ، ولكن ليس حتماً شعرها ، فليس بين الرجال والنساء فرق جوهري في ذلك .

ويكلمات أخرى ، بخصوص حجاب المرأة ، يتبع القرآن في كل حضارة ما يثير الرجل في المرأة ، ويأمر بسترها ، ولذلك جاءت - عمداً - عبارة «إلا ما ظهر منها» غامضة ، ذات دلالة متغيرة ، لتلائم التغيرات الأخلاقية والاجتماعية^(١٩٥) .

صاغ هذا إمام جامع باريس ، الشيخ تيجانى هدام في حديث مع لوند بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٨٩ : يوصى الإسلام أن ترتدى المرأة زياً محتشماً أولاً لائقاً [الكلمة في الأصل الإنجليزى Decent] والأهم أن تغطي ما قد يكون أكثر جاذبية فيها ، شعرها .. ويعتمد ذلك على المحيط الاجتماعي .

طبقاً للأقلية من العلماء ، يمكن تطبيق معنى التشريع في الآية ٣١ من سورة النساء بدون تغطية الشعر ، كما في شمال أوروبا وأمريكا ، حيث لا يمثل شعر المرأة إثارة خاصة للرجال . ولكن بالطبع لا يوافق الإسلام التقليدي على التجاوزات أو التسهيلات لمقابلة الأحوال الخاصة في حضارات إسلامية إقليمية^(١٩٦) .

وعلى أي حال ، لا يمكن التخلص عن تغطية شعر المرأة في أي مكان يكون لذلك الشعر تأثيره على الرجل ، وقد يكون سبب ذلك التأثير الممارسة التي لم تقطع لتغطية شعر المرأة ، كما هو الحال في مناطق مسيحية وإسلامية حول البحر المتوسط ، بحيث أصبح ذلك تقليداً دينياً منذ قرون .

تعتقد هذه المسألة عندما تصطدم الحضارات ، مثلما حدث في فرنسا ، فقد عاشت عائشة وفاطمة وسميرة في مجتمع إسلامي يرى بوجوب تغطية المرأة لشعرها منعاً للفتنة ، وهذا المجتمع الإسلامي داخل مجتمع لا يرى ذلك .

هذا هو الأساس العقidi لظاهرة الحجاب ، والتزام بعض المسلمات به ، وتخلى

البعض الآخر (*). للاسف ، ساعدت مشكلة الحجاب على تدمير الإسلام في الغرب ، فقد بنى [الإعلام] عليها انطباع أن الإسلام ديانة قانونية جامدة لا فكاك لها عن السياسة ، مع تسييس الأمور ، أو أن المسلمين يخلطون الشكل بالمضمون ، الغاية بالوسيلة ، روحياً وطقوسياً .

بل إن مسألة الحجاب أثرت داخل المجتمع الإسلامي نفسه ، حيث يميل الناس للحكم على المرأة كمسلمة بناء على ارتدائها أو تخليها عن الحجاب .

لعله من المناسب أن نختتم هذا الفصل بالتذكير بأن الحجاب ظهر قبل الإسلام في مصر القديمة وبيزنطة وإيران بين سيدات الطبقة الأرستقراطية ، وحتى قريباً ارتدت الأوروبيات نوعاً من الحجاب (**). بل إنه قريباً - حتى بداية القرن العشرين - سببت راقصة الباليه ماري تاجيليوني فضيحة عندما جرأت على الظهور على المنصة في أوبرا باريس وحاشية ردائها الرومانسي قصيرة بوصات قليلة .

ولكنه من الأهمية يمكن أن نستمع لما تقوله الأوروبيات المسلمات اللاتي اخترن التحجب . تُجمع تلك السيدات أن السيدة الغربية أصبحت غرضاً جنسياً من خلال عمليات مستمرة من تقليل ملابسها ، وهي تحت ضغط مستمر لترتدي ما يجذب .

تريد تلك المسلمة الغربية المحجبة السلامة والطمأنينة في الشارع . تحاول إرضاء ربها ، وتحاول في نفس الوقت الخروج من حلقة الجنس المفرغة ، وتعيد كرامتها كامرأة تحافظ على نفسها لمن تتزوجه ، بدلاً من أن تظهر كامرأة توجه الدعوات للرجال . إنها باختصار تقول للمجتمع : انظروا لوجهى وليس لساقيَّ !

بناء على ما سبق ، لا يمثل ارتداء الحجاب رجعة للبلودية القديمة ، بل هو رمز لاحتجاج اجتماعي على أسلوب الحياة المعاصرة في الغرب .

(*) أضاف لما ذكره المؤلف من آيات القرآن المجملة الخاصة بالحجاب - والتي فسرها بطريقة جديدة جريئة ذكية لكنها لا تسلم من النقد الجاد - أنه جاء في سنن أبي داود حديث . إن المرأة إذا بلغت الحميض ، فلا يجوز أن يرى منها سوى الوجه والكفين ، والعالم الآن قد أصبح كما يقولون قرية واحدة ، فتجد في أكثر البلاد كثيراً من الجنسيات المختلفة بحضارتهم وثقافتهم .

(**) وترتدى الراهبات المسيحيات الحجاب ، بل إن بعضها من اليهوديات الملتمرات يرتديه ، وعلى مدخل أحد أحياه بيت المقدس القديمة لافتة تطلب من السائحات تغطية شعورهن وأذرعهن وسيقانهن ، ولن ترى صورة تخيلها فنان عربي أو شرقي للسيدة مريم إلا وهي محجبة . ويرتدى الهنودس عمامة خاصة . وارتدىت كثير من نساء العالم البطلون القصير الساخن والملابس الميكرو ، وارتدى النساء ملابس الرجال ، ولم يتزعج أحد ، ولكن لم يستطع العالم الغربي الديمقراطي الليبرالي أن يتتجاوز في مسألة الحجاب الإسلامي ، واعتبر الفرنسيون ذلك خطراً يهدد الشخصية الفرنسية .

هوامش الفصل السابع عشر

- (١٩٢) «إدوارد سعيد». «الاستشراف» نيويورك ١٩٧٨ ، وانظر أيضاً «كارل أولريخن سيندرام». في «أوروبا والشرق» ١٩٠٠ - ٨٠٠ ، جوترسلاه ١٩٨٩ ، صفحة ٣٢٤.
- (١٩٣) بيّنت التسعينات وثلاثة وعشرون صفحة من دليل المعرض الذي أقيم من ٥ / ٢٨ إلى ٢٧ / ١٩٨٩ تأثير الإسلام في تطور الفن الأوروبي ، ذلك التأثير المغفل ذكره.
- (١٩٤) في سنة ١٩٨٩ [على مشارف القرن الواحد والعشرين ، وفي فرنسا التي يُطلق عليها بلد التور والحريرات ومثل ذلك . . .] ممّعت ثلاث فتيات مسلمات من دخول Gabriel - Hafez College في سريل ، في بداية العام الدراسي بسبب الحجاب ، وتلا ذلك نقاش قومي فرنسي في تلك القضية على مستوى الرأي العام : هل تسمع العلمانية بالتجاوز في أن تلبس تلك الفتيات الحجاب في المدرسة أم قمع ؟ تدخلت في القضية زوجة رئيس الدولة الفرنسي ، وملك المغرب ورئيس المجموعة الأوروبية وكاردينال باريس . وأخيراً سمع وزير التعليم الفرنسي لعائشة فاطمة وسميرة أن يرتدين الحجاب في الفصل ، ولكن لا يرتدينه في صالة الألعاب (الجمنازيوم).
- [ومن ضمن ما قيل في هذه الحرب ، أن الحجاب يمثل خطاً على الشخصية الفرنسية].
- (١٩٥) أقرَّ المحمد أسد «رسالة القرآن» ، الهاامش رقم ٣٧ على الآية ٣١ سورة التور . وللبروفيسور رياح الاسلامي - جامعة الجزائر - نفس الرأي في هوريزن ٩ ، ١٠ / ٣ / ١٩٩٠ .
- (١٩٦) يعتبرون «إلا ما ظهر منها» الوجه والقدمين فقط.
- (١٩٧) انظر - من بين مراجع أخرى - رأى جزائرية من جيل المقاومة «نور يا علمي» «محجبات وسافرات» باريس ١٩٨٩ .

الفصل الثامن عشر

القانون الجنائي أو "رجم أميرة"

لم تكن هناك حاجة في هذا الكتاب لفصل عن مسائل القانون الجنائي ، لو لم تنشر القوى المعادية للإسلام قصص الرعب التي تنسبها للإسلام الذي يتمتع بقطع الأيدي ورجم النساء .

مثل أي دولة أخرى ، للدولة الإسلامية الحق في سن القوانين وعقوبة المجرمين - سواء كانت جريتهم ضد الله أو المجتمع أو الفرد . مع الفارق الوحيد وهو أنه على قوانين الدولة الإسلامية أن تتفق مع الشرع الإسلامي .

يمكن تغيير القوانين التي يسنها البشر مع الزمان ، ولكن ليس من الضروري أن يتافق ذلك مع موجة العصر (١٩٨) .

يضع القرآن الحدود الرئيسية التي تلتزم بها تلك القوانين البشرية ، وغنى عن القول إن ما تناوله القرآن بالتفصيل لا يجوز أن تُسن القوانين البشرية ما يخالفه . يعني هذا أيضاً أنه إذا نص القرآن على عقوبة ، فلا يجوز أن يزيدها القانون ، وإنما كان تصحيحاً بشرياً لكلمات الله (ولكن واحسرتاه ! فقد حدث هذا فعلاً) .

فرض القرآن عقوبات دنيوية على ست جرائم ، مع أنه أدان كثيراً من الأفعال السيئة من القمار إلى أكل الحنзير . ولكنه توعد بالعقوبة عليها في الآخرة .

والجرائم الست :

القتل (١٩٩) . قطع الطريق والسلب والنهب بالقوة (*) . الخيانة العظمى (٢٠٠) . قذف المحسنات (٢٠١) . الزنا (٢٠٢) . السرقة (٢٠٣) .

يُعاقب الشرع على الجرائم الثلاث الأولى بالقتل [والدية والعفو مشروعاً] .

(*) ﴿إِنَّمَا جَزَاءَ الَّذِينَ يَحْرَبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُصْلَبُوا أَوْ تُقطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خَزْنٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٤-٣٣ المائدة) .

وجاء الحديث بعقوبة الرجم للجريمة الخامسة ، تحت شروط معينة . وتعاقب السرقة بقطع اليد اليمنى [بشروط معينة ، والتعزير والعفو جائزان] .

النصوص القرآنية قليلة فيما يتعلق بقانون العقوبات ، ونصوص الإجراءات فيه أقل ، سمع هذا للتشريع الإسلامي الذي تقبل بروح إنسانية حقائق الحياة البشرية بالحرية الكافية لأن يتضمن التأثير الصارم للقانون بواسطة نظام متشدد في الإجراءات مع فترات قصيرة جداً له للعمل . وهذا أحد أسباب الاختلاف بين النظرية والتطبيق في الحياة القانونية للمسلم ، بين القرآن أن الشهادة هي الأدلة التي يعتمد عليها القانون الجنائي (اثنان في مسائل المال وأربعة في مسألة الزنا) .

وفيما يخص الزنا ، فقد طلب القرآن ما هو أقرب للمستحيل ، أربعة شهادة حسنى السمعة ، مع مخاطرهم بأن يجعلوا إذا لم يؤخذ بشهادة أحدهم ، بل وعقوبة الموت في رأى قلة قليلة من الفقهاء (٢٠٤) .

بدهى أن يكون الاتهام بالزنا نادراً ، أضف لذلك أنه حتى لو اعترف الزانى يمكن أن يسقط اعترافه إذا عدل عنه بناء على نصيحة القاضى ، والذى عليه أن يقنعه بذلك .

وعلى ذلك ، فقبل رجم أميرة . كما حدث في الثمانينات . لابد وأنها مع قرينهما استشاراً إدانتهما بتحديهما الصارخ شكلاً ومضموناً للنسيج الاجتماعي في الإسلام بارتکابهما تلك الجريمة باستهتار وعناد ، على العلن .

ويقول القرآن في هذا « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١٩ - النور) .

فكما ترى ، رجم الزانى ، هو أبعد ما يكون عن أن يعتبر ظاهرة إسلامية . ولكن القرآن أمر بجلد الزانى وليس رجمه « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلد... » (٢ - النور) .

ومع هذا ، أخذ الفقهاء بالحديث ، واعتبروا أن آيات سورة النور خاصة بغير المحسنين (٢٠٥) .

وقال فقهاء آخرون إن الرجم كان هو الحكم الأصلى ، وهو في شريعة موسى (سفر التثنية ، الإصلاح الثاني والعشرون : ٢٠ - ٢٢) ، ثم جاءت آية سورة النور بنسخه إلى الجلد . الأمر الذي فات على فقهاء الرجم .

وإذا تكلم القرآن في مسألة ، فلا يجوز مخالفته سواء بفهم خاطئ أو برواية أحاديث غير صحيحة ، فلا صوت يعلو على القرآن ، وعلى جميع المسلمين ، وفي مقدمتهم العلماء أن يصمتوا وينصتوا له .

وفي مسألة قطع الأيدي ، جاء في الآية ٣٨ من سورة المائدة « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ». .

يبدو من هذا أن المسافر في البلاد الإسلامية سيتعجب عندما لا يجد أحداً مقطوع اليدين ، مع أن السارقين موجودون في كل أنحاء العمورة ، فهنا أيضاً نجد التباين بين النظام القانوني وحقائق الحياة .

بادىء ذي بدء ، جريمة السرقة لها أركان محددة حيث يكون الشيء المسروق محفوظاً محرزاً وله قيمة .

وليس للسارق أي شبهة حق فيه ، ولدى السارق ما يكفيه ، وهو مسامحة الفقهاء حد الكفاية ، وليس هناك ضائقـة اقتصادية ولا حالة حرب و. . . ، وليس الصدقة هي التي ساقت رجلاً لأخذ ما ليس له . وقد أسقط عمر الاتهام بالسرقة في حالة الفاقة . وقد أدى هذا إلى تطور النظرية السائدة الآن ، والتي تكررت همزة السرقة إذا كان هناك مبرر لاتهام الدولة بالقصصـير في حق المواطنين والتسبب في سوء الحالـتين الاقتصادية والاجتماعية .

وقد خصص محمد أسد صفحة كاملة في شرحه للأية ٣٨ من سورة المائدة : تُطبق العقوبة فقط عندما يكتمل النظام الاجتماعي ، وليس تحت أي ظروف أخرى (*).

حتى يتيسر علينا فهم عقوبة السرقة ، علينا أن نربطها بقانون المواريث والزواج والطلاق ، حيث كثيراً ما تدخل المرأة المسلمة مالها ومهـرها تأميناً لها . في آخر العمر ، فالإسلام لا يجبر الزوج على نفقات مطلقته ، والسرقة هنا تعصف بمالـيه المرأة ، خصوصاً في الأرياف . وبصفة عامة ، فالسرقة تهدـيد وإضرار بالملكـية الخاصة ، وهي إحدى عمـدة النـظامـين الاقتصادـيـ والاجتماعـيـ الإسلاميـين .

عقاب قطع يد السارق له تأثير رادع ، كما يظهر في السعودية ، ولكن يبقى السؤال : هل هو عـقـاب إنسـانـي ؟

من وجهـةـ النظرـ الإسلاميـ ، السـجنـ - خـاصـةـ مـدىـ الحـيـاةـ . هوـ أـيـضاـ لاـ إـنسـانـيـ . ويرـىـ المـسـلـمـونـ أنـ الأـحـكـامـ الإـلهـيـةـ واجـبـةـ التـنـفـيـذـ حتـىـ لوـ جـاؤـتـ مـفـاهـيمـهـمـ ، وهـيـ أـوـامـرـ وـلـيـسـتـ مـجـرـدـ توـصـيـاتـ .

(*) هذا النظام الاجتماعي الذي يكفل التعليم والعلاج والسكن ونفقات المعيشة الكريمة لكل مواطن ، هذا النظام موجود في آسيا غرباً ، موجود في ماليزيا شرقاً ، ولا ننسى أن الشريعة تدعـو المسلمين دائمـاً إلى العـفوـ ، فـحتـىـ القـتـلـ ، شـرـعـتـ عـفـوـ أـهـلـ القـاتـلـ عنـ القـاتـلـ ، أوـ أـخـذـهـ الـدـيـةـ ، ومـثـلـ ذـلـكـ فـيـ السـرـقةـ ، يـجـوزـ العـفـوـ مـنـ صـاحـبـ الـمـالـ أوـ القـاضـيـ ، وـقـالـ كـثـيرـ مـنـ الـفـقـهـاءـ ، قـدـامـيـ وـمـعاـصـرـيـنـ ، بـأنـ التـوـبـةـ تـسـقـطـ الـحـدـ . .

هوامش الفصل الثامن عشر

- (١٩٨) في القانون الجنائي الإسلامي - بصفة عامة . يمكنك أن تقرأ لـ « كوزار ديلجر » في « الإسلام قوة عالمية » ميونيخ ١٩٨٨ ، « جوزيف شاخت ». « مقدمة للقانون الإسلامي » أكسفورد ١٩٨٤ ، « منهاج الطالبين » للنووى .
- (١٩٩) ١٧٨ البقرة ، ٩٢ النساء ، ٣٢ ، ٤٥ المائدة ، ١٥١ الأنعام ، وفي قتل الطاغية ، انظر الآيات ٤١-٣٩ سورة الشورى .
- (٢٠٠) انظر الآية ٣٣ سورة المائدة ، وفي حالة الارتداد فقط ، انظر فصل التسامح أم العنف .
- (٢٠١) الآية الرابعة سورة النور .
- (٢٠٢) ١٥ ، ١٦ سور النساء ، ٣٢ سورة الإسراء ، ٢ النور .
- (٢٠٣) ١٨٨ البقرة ، ٢٩ النساء ، ٣٨ المائدة .
- (٢٠٤) الآية الرابعة سورة النور ، وقد نزل هذا التشريع بعد حديث الإفك عن أم المؤمنين عائشة الصديقة [وقد غالى قلة قليلة من الفقهاء وقالوا بقتل شهود الزيف على الزنا ، مستندين على أنهم شرعاً في جريمة قتل ، ولكن هذا رأي ليس له أي وزن بين العلماء] .
- (٢٠٥) في ترجمتهم للقرآن ، أنكر محمد أسد ويوسف على وحميد الله ، الرجم في الإسلام ، وقالوا إن الآية الثانية في سورة النور نسخت الرجم الذي أمرت به شريعة موسى . ووافقهم في ذلك الشيخ أبو بكر في ترجمته ، وقال إن المدرسة الإباضية قالت بهذا منذ بدايتها ، ومثل ذلك كتبه البروفيسور رياح الاسلامي - جامعة الجزائر - في المجاهد ٢ / ٣ ، ١٩٩٠ / ٢ ، ١٩٩٠ / ٣ ، ٩ .

الفصل التاسع عشر

الحَرْبُ الْمَقْدَسَةُ

يمكنتني الاقتصار في هذا الفصل على القول بأن مفهوم الحرب المقدسة ، حتى المصطلح نفسه ، لا يوجد له في الإسلام .

ولكن لا يمكنني أن أهون من المسألة بهذا الشكل ، لأن المفهوم الذي يصفه المستشرون الغربيون - بطريق الخطأ - حربا مقدسة ، وُجِدَ بِشَكَلٍ مَا في الإسلام : الحرب الدينية ضد معتقدى ديانات أخرى .

كذلك لن أستفيد شيئاً إذا أجبت على السؤال الخطير: هل يدعو الإسلام إلى العداوة والعنف تحت مفهوم الجهاد؟ بأن قلت الجهاد كلمة عامة ، قد يقصد بها جهاد النفس ، أو المجاهدة لتنقية النفس كما يقول الصوفيون . فالجهاد في سبيل الله اتخذ أيضاً في التاريخ الإسلامي شكل المعارك الحرية ، وهذا لا ينكره أحد ، بل إن بعض فقهاء العصور الوسطى اعتبروا القتال في سبيل الله الركن السادس في الإسلام .

ركز النظر - بلا رحمة - الأب الأبيض هان فوكنج على بعض آيات القرآن ليخلص منها « أولئك الذين يَؤْولُونَ الْجَهَادَ عَلَى أَنَّهُ حَرْبٌ دَفَاعِيَّةٌ ، أَوْ جَهَادٌ النَّفْسِ أَخْلَاقِيًّا يَنْكِرُونَ الشَّوَاهِدَ الْقَرآنِيَّةَ ، وَأَيْضًا شَوَاهِدَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ السَّنِيِّ » (٢٠٦) .

وبصيغة أخرى ، إذا تكلم مسلم ضد الحرب العدوانية لنشر الإسلام ، فقد يكون محبا للسلام ولكن ليس مسلماً ، فلو كان مسلماً فعليه الالتزام بالآيات (٢٠٧) التي يرى فوكنج أنها تُشعل الحروب :

﴿فَإِذَا أَنْسَلْخَ الْأَشْهَرَ الْحَرَمَ فَاقْتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . . ﴾ ٥ - التوبة .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشَّ الصَّيْر﴾ ٧٣ التوبة ، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ . . . ﴾ ٤ - محمد .

فصل الآيات القرآنية عن سياقها [وبقية ما أنزل في نفس المسألة] وعن أسباب نزولها لإثبات أن الإسلام دين عدواني هو بمثابة أن نأخذ من كلمات المسيح قوله : لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً ، فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أخيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها . إنجيل متى - الإصلاح العاشر ٣٤ - ٣٥ ، ثم تخلص بأن المسيحية دين قتال وعدوان^(٢٠٨) (بل إن إنجيل متى أهون مما لو استخدمنا كلمات مارتن لوثر) ^(*) .

فما هو الأساس الحقيقى للحرب في الإسلام ^(٢٠٩) ؟ ستجد آيات كثيرة في القرآن تدعو لإرساء السلام ، وتسمح بالحرب الدفاعية : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ^(**) - الحج ^(**) ، ثم الأكثر توضيحاً « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ^(*) - البقرة ١٩٠ - البقرة .

يستمر القرآن بعد هذا « واقتلوهم حيث ثقفتهم وآخر جوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » ^(*) - البقرة ١٩١ - البقرة .

وتعيد الآية التسعون من سورة النساء « . . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقووا إليكم السلم فيما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » وكذلك الآية الثامنة من سورة المتحدة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسروا إليهم إن الله يحب المحسنين » .

فالسلام فرض أساسى في القرآن ، والذى ينهى عن الحرب العدوانية ، والأيات التي يبني عليها الأب فولنج استنتاجه لا تعنى الأمر بشن الحروب العدوانية ، ولكنها تعنى - كما أشار إلى ذلك محمد أسد عام ١٩٨٠ - الحق في خوض الحرب الدفاعية ^(٢١٠) . وإنه لسخف متهافت الزعم بأن بالقرآن أوامر متناقضة فيها ينص الحرب .

وأسخف من ذلك أن القرآن يشجع المسلمين على تبع الكفار في أوقات السلم ، واجتزاز رؤوسهم تعطشاً للدماء .

واسخف من ذلك أيضاً أن الإسلام يرفض إجبار الفرد على الإسلام ، « لا إكراه في الدين » ^(*) - البقرة ، ولكنها يجبر الأمم !

وفي ضوء هذه التعليمات القرآنية الواضحة ، لاحتاج لإلزام أنفسنا بالخوض فيها قاله فقهاء القرون الوسطى .

^(*) أو هو كمن يكتفى بقول لا تقربوا الصلاة .

^(**) وهذه أولى الآيات التي تسمح بالقتال .

وعلى أي حال ، الحرب في عصر السلاح النووي - والبيولوجي والكيماوى ، وเทคโนโลยيا
الأسلحة والحروب المعقدة - أصبحت مختلفة تماماً بدرجة تجعلنا نرى نظريات علماء
الكاثوليكية والإسلام في الحرب العادلة أو الحرب الدفاعية ، قد عفا عليها الزمان (٢١١) .

لا أحد ينكر أنه حدث في التاريخ الإسلامي بعض الحروب البربرية لقهر العالم ، ولكن
هذا أيضاً موجود [مصادفًا] في التاريخ المسيحي ، أما حروب الرسول فكانت دفاعية أو
واقائية لمنع هجوم عليه أو على الإسلام ، فلا خلاف أن مكة بدأت بمعادته واضطهاده
ومحاولة استئصاله ، وتبعتها قبائل الجزيرة العربية ، وعاودوا ذلك .

ويمكن في بقية الفصل تلخيص قانون الإسلام الدفاعي فيما يلي :

* واجب الأمة الإسلامية أن تسلح نفسها في أوقات السلام لتردع أي هجوم عليها .
الآية ستون سورة الأنفال .

* إذا دخلت دولة حليفه في حرب ، فعلى الدولة الإسلامية الالتزام بمعاهداتها حتى لو
كانت مع دولة غير مسلمة ، الآية ٧٢ الأنفال .

وهذا بمثابة تحول ثوري جاء به القرآن في العلاقات الدولية .

* يجب على المسلمين الذكور الاشتراك في الحروب الدفاعية (الآيات ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤)
٢١٦ سورة البقرة ، ٩٥ النساء ، ١٣٩ الحج) .

وبالتالي فهم مطلوبون للخدمة العسكرية بصفة عامة .

* الحرب محظمة تماماً بين المسلمين .

* للحاكم فقط حق إعلان الحرب .

* يجب ألا تتعارض أساليب الحرب مع الغرض منها (الآية ١٩٣ البقرة ، الآية ٦٠
الحج) .

* عدم التعرض للمدنيين في الحرب ، وغير مسموح بالإجهاز على موارد الغذاء
الضروري .

* وإذا جنح العدو للسلم فاجنح له (الآية ٦١ سورة الأنفال) .

* الشهداء جزاؤهم الجنة .

نظرة واحدة لهذا الفصل تسمح للقارئ بأن يحكم على غزو العراق للكويت ١٩٩٠ - ١٩٩١
 بأنه ليس له علاقة بالإسلام ولا الجهاد .

هوماوش الفصل التاسع عشر

- (٢٠٦) « هانز فوكنج » - « الجهاد » Cibedo ، فرانكفورت ١٩٩١ العدد الأول صفحة ١٧ .
- (٢٠٧) أجرت الأكاديمية العلمية الإسلامية في كولون دراسة عن الإسلام في الكتب المدرسية في ألمانيا، تبين منها أن القرآن إنما هو كتاب حرب، انظر الدراسة التي قام بها « فوكنج، زيركر ، تورشك ، الفلاتوري » - « الإسلام في الكتب المدرسية الكاثوليكية » براونشفايج ١٩٨٨ ، وانظر أيضاً مايكل كلوكن » - « الإسلام في مرآة وسائل التعليم الكاثوليكيه »، في كتاب « لله المشرق والمغرب » .
- (٢٠٨) فؤاد قنديل، فرانكفورتر الجماينه ١٠ / ١٠ / ١٩٩٠ - وأيضاً Cibedo العدد الأول صفحة ٢٤ .
- (٢٠٩) أقرأ « عصام كامل سالم » - « الإسلام والقانون الدولي » برلين ١٩٨٤ صفحه ١٠٣ ، « هانز كروس » - « القانون الدولي الإسلامي » الطبعة الثانية ، بوخوم ١٩٧٩ ، صفحه ٤٤ .
- (٢١٠) أقرأ « رسالة القرآن » محمد أسد الهمامش ١٦٧ ، ١٦٨ للأية ١٩٠ سورة البقرة، الهمامش ٧ للأية الخامسة والهمامش ٤ للأية ٢٩ سورة التوبه، والهمامش ٤ للأية الرابعة ، سورة محمد .
- (٢١١) « مراد هوفمان » ، « الإسلام والقبلة » مجلة الإسلام ، العدد الثالث ١٩٨٤ صفحه ١٣ ميونيخ.

الفصل العشرون

القانون الدولي

يجب لا يغيب عننا عند أي مناقشة للقانون الدولي الغربي أنه حديث العهد، فقد وضع أساسه « هوجو جرونيوس» الهولندي من دلفت عام ١٦٠٩ بكتابه « حرب البحار» ، ثم في ١٦٢٥ بكتاب « شرعية الحرب والسلام » (٢١٢).

كان على ساعة ميلاد القانون الدولي في عالم الغرب أن تنتظر ميلاد الدولة ذات السيادة (أوجست فرايد فون دير هايدر ١٩٥٢) وسط انبات نظريات القانون الطبيعي .

قبل هذا ساد المفهوم الروماني (والإسلامي) .

خلط من الأعراف والتقاليد كونت القانون الدولي .

ويقدم القرآن في هذا المجال أساساً طيباً خصوصاً في :

* القانون الدولي لاتفاقيات ومعاهدات .

* حقوق الأقليات ، ويشمل ذلك حق اللجوء .

* القانون الدولي للحروب (انظر الفصل السابق ، ومرجعى عصام كامل سالم ، وهانز كروس المذكوران فيه) .

يؤكد القرآن ويكرر احترام المواثيق والمعاهدات والوفاء بالوعود ، مع المسلمين وغير المسلمين (٢١٣) ، وتبدأ سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعَهْدِ . . .﴾ وضع هذا الأساس الصالح لنمو التجارة ، والتي لم تقطع حتى خلال الحروب الصليبية ، ولا حملات الأتراك العسكرية وسط أوروبا ، ولآخر القراءة المسلمين الذين انطلقوا من صالح والجزائر .

يتمتع غير المسلمين داخل الدولة الإسلامية بحرية العبادة والعمل والملك ، وكان يكفيهم قديماً الأمان من أي مسلم (رجل ، امرأة ، حر ، عبد) ، والآن بالطبع المعاهدات الدولية ، ومن ثم جواز السفر وتأشيره الدخول .

يُعفى غير المسلمين من الخدمة العسكرية ، ويدفعون نظير ذلك ضريبة [ويُمكّن إعفاؤهم من الضريبة إذا أرادوا الخدمة العسكرية ، ومن الناحية الأخرى ، فقد تسمح الدولة بإعفاء المسلمين من الخدمة العسكرية ، وفي هذه الحالة يدفعون أيضاً الضريبة] .

لأنّمارس الدولة ضغطاً على غير المسلمين ليدخلوا الإسلام (**). وقد يفرض عليهم ارتداء زى معين لتمييزهم عن المسلمين (**)(٢١٤) .

كفلت الشريعة للأقليات غير المسلمة حقوقها بدرجات لا تجدها مثيلاً، لا في القرن السابع، ولا حتى بعد ذلك بعشرة قرون، ويكتفينا أن نتذكر مذابح الكاثوليك والبروتستانت لبعضهم البعض (***) ومذابح روسيا لليهود ، ومذابح كاثوليك الأندلس للمسلمين واليهود ، ومذابح الأرثوذكس لمسلمي البوسنة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين .

وإنه ليس أجمل من أن يُصدق ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لليهود خلال حياة الخليفة الإسلامية لهم سواء كان ذلك منذ الدولة العباسية في بغداد شرقاً، إلى دولة الأندلس غرباً، ثم في تركيا عندما فراليهود للخلافة العثمانية ، في آخر القرن الخامس عشر ، هرباً من مذابح كاثوليك الأندلس .

بل حتى الآن ، يعيش اليهود في المغرب في كنف السلاطين ، ويدعو الملك المحسن اليهود المهاجرين لإسرائيل كل عام ليعودوا للمغرب .

لم يؤدّ تطور القانون الدولي عند الغرب إلى تعارض مع الإسلام إلا في مسائلتين :

أولاً: الإسلام ككل الديانات العظمى أو المذاهب – باستثناء اليهودية - عالمي ، فيحمل المسلمين باليوم الذي يصبح فيه العالم كله مسلماً ، رغم أنه لا القرآن ولا الحديث النبوي بشراً بهذا ، بل جاء في الحديث بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً .

(**) وفي الواقع حدث عكس ذلك في مصر، حين لم يشجع السُّولَيْلِيُّ عمر بن عبد العزيز دخول الأقباط في الإسلام، فأرسل له عمر يوبخه على ذلك.

(***) لم تكن هناك وسيلة للتمييز غير ذلك ، أما الآن فيمكن بالبطاقة أو جواز السفر ، كما تميز الدول مواطنها .

(****) في مطلع القرن السابع عشر، كتب الفيلسوف الإنجليزي جون لوك كتابه الشهير، والذي كان علامة على الطريق «رسالة في التسامح» ويقصد في المقام الأول التسامح بين الكاثوليك والبروتستانت !

أدى هذا الأمل لأن قسم بعض الفقهاء العالم إلى دار الإسلام ، والعالم الآخر الذي يُتَّظَر أن يصبح مسلماً ، دار الحرب (**) ، وصاحب هذا التقسيم اختلال في العلاقات بين الدول الإسلامية ، وغيرها ، بل لم يأخذ هذا التقسيم في اعتباره ظهور دول إسلامية ذات سيادة مع إمكان اختلاف سياساتها ، ذلك الأمر الذي تذكرنا به على الدوام القيادة الليبية .

واعتبر الفقهاء بصلاح الحديبية الذي عقده الرسول مع مكة ، ليجيزوا معاهدات على غراره ، فظهرت دار الصلح ، وهي كل دولة غير مسلمة ، تربطها معاهدات سلمية مع الدولة الإسلامية ، ودعم هذا التفكير المعاهدة التي سنها الرسول بعد وصوله المدينة مع أهل المدينة من يهود وغيرهم (٢١٥) .

ويرغم هذا ، رفض السلطان العثماني بوصفه خليفة للمسلمين أن يخضع للقانون الدولي حتى عام ١٨٦٥ ، عندما وقع على اتفاقية باريس التي أنهت حرب القرم ، وانضمت بهذا تركيا إلى منظومة القوى المتكاففة ، والتي اخترعها الأمير مرتزيخ . والمسألة الثانية : إن المسلم عندما يتزلم بمعاهداته ومواثيقه ، يفعل ذلك امثلاً للأمر القرآني (٢١٦) ، وليس لاقتناعه بالقانون الطبيعي أو ما يشبه ذلك ، مما أسس عليه الغرب قانونه الدولي ، ولكن الخلاف هنا نظري وليس له تأثير عملي . ويشبه هذا اختلاف الأساس في حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب ، فهو في الإسلام الشع ، وفي الغرب القانون الطبيعي .

بعد كل هذا ، يجدر التساؤل : هل يمكن الآن الحديث عن قانون دولي إسلامي بمعناه الضيق ؟ هل يمكن تطوير هذا القانون لينظم العلاقات بين الدول الإسلامية القائمة الآن حتى يجيء اليوم الذي تتحد فيه الأمة الإسلامية ؟

حلم ؟ !

(*) ليس لهذا التقسيم أساس صريح صحيح من القرآن ولا السنة .

هوامش الفصل العشرين

- (٢١٢) انظر فردرريك بربير «الكتاب الأساسي في القانون الدولي» - ميونيخ ١٩٦٠ ، الجزء الأول صفحة ١٦-١٦ .
- (٢١٣) انظر أولى آيات سورة المائدة، والأية الرابعة من سورة التوبة، والأية ٧٢ من سورة الأنفال .
- (٢١٤) ارجع لكتابي عصام كامل سالم وهانز كروس. المذكورين في ٢٠٩ .
- (٢١٥) انظر لحميد الله «أول ميثاق مكتوب في العالم» لاهور ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥ .
- (٢١٦) ارجع للهامش (٢١٣) .

الفصل الواحد والعشرون

عندَمَا يُصْبِحُ التّحْرِيفُ تَقْليِدًا

تم في ٣١ / ٥ / ١٩٦٢ إعدام أدolf أيخمان - القائد السابق في قوات العاصفة النازية (SS) - فرام الله بعد أن خطفه العملاء السريون لإسرائيل من الأرجنتين .

عمل أيخمان في تنظيم إرسال اليهود لمعسكرات الإبادة خلال الحرب العالمية الثانية . زعم في دفاعه أنه لم يقتل يهوديا واحدا ، بل لم يلمس واحدا ، ومع هذا حُكم عليه بالإعدام ، فهو المسئول من وراء مكتبه عن جرائم المتفدين ، فهو بين المتفدين ك أصحاب الياقات البيضاء في المصانع ، عقل مدبر ! .

إن أكبر ضحايا التحرير في التاريخ هو رسول الإسلام . وضعه مايكل هارت ١٩٧٨ على رأس قائمة المائة شخصية الأكثر تأثيراً في تاريخ البشرية ، ولأنه الشخصية الوحيدة التي حققت نجاحاً هائلاً دينياً ودنيوياً .

ولكن كما قال مونتجومري وات لا توجد شخصية عظيمة أساء الغرب تقديرها مثل محمد . فمن يوحنا الدمشقي في القرن الثامن حتى فولتير القرن الثامن عشر ، ومروراً بدانى الجيري - الذي تصور محمداً في المستوى التاسع من الجحيم - وانتهاء بسلمان رشدي ، أصبح تشويه محمد تقليداً غريباً .

وكما قالت أنا ماريا شمل : يثير محمد - أكثر من أي شخصية في التاريخ - الذعر ، والكراهية ، والازدراء في العالم المسيحي .

وطبقاً لها ، فمن أسباب ذلك أن العالم المسيحي لا يتخيّل ديانة أخرى بعد المسيحية ، ولا يفهم فعالية تلك الديانة وسر نجاحها وتحول كثير من مناطق البحر المتوسط إليها من المسيحية .

كلنا نعلم تشويه صورة محمد ووصفه بالاحتياط والنصب تارة ، والنفاق تارة أخرى ، بمحنون سلطة ، ومحنون جنس ، مصاب بالصرع .. باختصار نبي زائف وعدو لل المسيح يستحق لقب (Monster) الذي أعاد سلمان رشدي إطلاقه عليه .

ولكننا نعرف من دراسات قام بها غير مسلمين - مثل نورمان دانيل وإيكارت روتر - أن تلك البروباجندا المسيحية المستمرة ضد محمد لا تصمد أمام الحقيقة ، وقد أثبتت الوثائق منذ القرن الثالث عشر وحتى منتصف الرابع عشر تلك الحقيقة المزريّة ، فحتى أساس الإسلام ، الشهادة ، تم تحريفها إلىأشهد أن لا إله إلا محمد !

من هو النصاب ؟

لا أريد الإيماء بأن الوضع لم يتحسن منذ تلك العصور المظلمة ، سواء بالنسبة للإسلام أو شخصية محمد ، ويدل على ذلك أشعار جوته ، وكتابات كارليل وروودي باريت وكاريون أرمسترونج ووليام فيبس وغيرهم .

ولكن بصورة عامة ، ترسخ الشعور المعادى للإسلام عند الغرب ، ولا يمكن فهم ولا تحليل رد فعل الغرب للأحداث السياسية في العالم الإسلامي إلا من منظور الكراهية المغروسة من قرون .

ومن هذه الناحية ، فكل من يوحنا الدمشقى وبيتر المجل وفولتير ، كلهم عقول مدبرة .

مثل حى على ذلك ، مشكلة البوسنة والهرسك . ففى اعتقادى ، سقوط الغرب فى تلك المأساة [وفي الشرق الأوسط] يرجع - لحد كبير - للميراث المشوه والخاطئ تجاه المسلمين . تؤيد حقائق التاريخ هذه النظرة . مع نهاية الحرب الباردة عام ١٩٩٠ ، تحولت بعض البلاد الأوروبية من عصر المذاهب العقائدية إلى عصر القومية الشوفينية .

وانطبق هذا تماما على دول المعسكر السوفيتى ، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، انفصلت دول كثيرة - جمعتها الشيوعية (أو القوة) - على أساس عرقى أو لغوى أو قومى ، منها روسيا البيضاء ، أوكرانيا ، دول البلطيق الثلاث ، مولدافيا ، دول القوقاز .

وبينما رحبت معظم القوى الأوروبية بولادة دول مستقلة عديدة ، فلم تقبل ذلك ليوغسلافيا القديمة ، والتى جمعها تитو (والذى حكم كصربى بينما هو من أصل كرواتى) على مذهب سياسى .

ومن المفارقات ، أنه اتضح بجلاء أن من فيدراليا ت يوغسلافيا السابقة ، فقط صربيا والجبل الإسود ظلا متمسكين بالمذهب الشيوعى ، بينما لفظته تماما في أول فرصة سلوفاكيا ، كرواتيا ، البوسنة والهرسك ، مقدونيا .

كذلك اتضح - لكل من يريد أن يعرف - أن صربيا عازمة على تأسيس التكامل والوحدة القومية الثقافية للصرب ، بصرف النظر عن المنطقة التى يعيشون فيها .

وقد بدأ ميلوسفيتش قائد الحزب الشيوعي الصربى (ولكنه من الجبل الأسود) في اضطهاد المجررين الذين يعيشون في فويفودينا ، والألبان الذين يعيشون في الجبل الأسود ، لاغيا من الواقع العملي ما حصلوا عليه من حكم ذاتى عام ١٩٨٩ . وفي إطار نفس الخطة ، أعلن الصرب الذين يعيشون في كراينيا وفى كرواتيا استقلالهم .

وردا على تلك التطورات المخيفة ، أعلنت كل من سلوفانيا وكرواتيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك انفصالهم عن بلغراد وتأسيسهم دولا مستقلة . ففى سلوفانيا ، صوت حوالي ٥٨٪ من السكان لصالح الاستقلال في ٢٣ / ١٢ / ١٩٩٠ ، وتبعهم الكروات في ٥ / ١٩٩١ وبنسبة ٩٤٪ ، وعلى ذلك أعلنت كل من سلوفانيا وكرواتيا استقلالها في ٨ / ٩ / ١٩٩١ ، وتلتلهم مقدونيا في ٢٠ نوفمبر .

لماذا إذا استمرت إنجلترا وفرنسا في تأييد وحدة يوغسلافيا ؟ لم يكن من حق غير الصرب الانفصال وحماية أنفسهم من الشوفينية الصربية ؟ الإجابة : عار صارخ !

خافت إنجلترا وفرنسا ، ودول أخرى ، من دول أخرى (*) ومن دولة مسلمة في أوروبا . وكرهوا على الخصوص أن تستعيد ألمانيا – التي اتحدت ثانية – وضعها ونفوذها في تلك المنطقة ، وسيطرتها على الأسواق .

وبذا للحلفاء صحة شكهم في ألمانيا عندما اعترفت – وحدها تماما – بالجمهوريات المستقلة . لم ير الألمان استحالة فرض دولة يوغسلافيا القديمة فقط ، بل رأوا أنه لن يوقف اعتمادا صربيا على سلوفانيا وكرواتيا – والذى بدأ فور إعلانهما الاستقلال – اعتبار أن ذلك مسألة داخلية .

كان موقف المانيا منطقيا ، ولكن أضعفه عدم رغبة خلفائها في مساعدة الجمهوريات الجديدة عسكريا . ونتيجة لذلك ، لم ير ميلوسفيتش ما يستوجب القلق على خطته صربيا الكبرى ، وكم كان صائبا في ذلك !

وحين ذلك ، فقد الناتو ، وفقدت دوله الفرصة في وأد حرب البلقان في مهدتها ، فقد كان يكفى هجوم جوى واحد على الأهداف الاستراتيجية الهامة في صربيا ، مع رسالة صريحة واضحة بإمكان تصعيد ذلك حتى يفهم الصرب أن كوارث العدوان ستعود عليهم ، وأنهم لن يتمتعوا بنقل الحرب خارج أراضيهم . وغنى عن القول إمكان إضفاء الشرعية – بالقانون الدولي – لتلك الهجمات .

(*) ربما يعني المؤلف المانيا .

وبضياع تلك الفرصة ، تلاشت احتىالات أن تفلت البوسنة والهرسك من العدون الصربى .

ففى ٢٩ فبراير ١٩٩٣ ، صوت ٩٩٪ من الناخبين في البوسنة للاستقلال ، وقاطعت الأقلية الصربية (٣٪ ذلك الوقت) الاستفتاء . وعندما اعترف الاتحاد الأوروبي في ٧ إبريل بجمهوريّة البوسنة والهرسك دولة مستقلة ، وبعدها بأسابيع اعترفت بها الأمم المتحدة ، رد صرب البوسنة على ذلك بأن أعلنوا استقلالهم ، وهنا ظهرت «بال» لتلعب دور العاصمة ، وظهر الدكتور رادوفان كارا ديتش واللواء مالديك ، المطلوبان الآن ك مجرم حرب .

تابعت المأساة بعد ذلك ، احتلت قوات الصرب الانفصالية بمساعدة جيش صربيا أكثر من ثلث أرض البوسنة ، واشتعلت المذابح الجماعية والتعذيب وأغتصاب النساء والفتيات والعجائز ، وتدمير كل مسجد وكنيسة كاثوليكية .
بدأ تنفيذ خطة التطهير العرقي .

لم تشاهد أوروبا منذ عصرى ستالين وهتلر مثل تلك الجرائم ، ولم تشاهد أوروبا منذ أيام الملك والمملكة الكاثوليكين جداً في إسبانيا القرن السادس عشر حريراً دينية مثل هذه .
ومع هذا ، لم يتدخل العالم - المتحضر - عسكرياً ، ولكن انشغل في المساعدات الإنسانية! وعمل بجد واجتهاد حتى يضمن للمسلمين أن يعيذبوا أو يقتصبوأو يموتوأو هم «سبعون». .

فيبدلاً من أن يشق الناتو طريقه بالقوة لفك حصار سراييفو المستمر لمدة ثلاثة سنوات ، قرر الناتو بكل إنسانية أن يمد سراييفو بكميات جوى من الأطعمة ، وذلك الكوبرى الذى يفتحه الصرب وقتها يشاءون ويصادرون منه ما يريدون .

أما الأمم المتحدة ، فقد أرسلت قوات لحفظ السلام ، فإذا كان السلام مفقوداً فكيف تحافظ عليه تلك القوات ، والتى جاءت بمرسوم لا يسمح لها بالقتال؟ .. بل إنه اتضحت بجلاء مخيف عام ١٩٩٥ أن تلك القوات لا تعتمد حتى حماية المناطق الآمنة التى فى حمايتها ، كما حدث فى سربريتشيا وزبیبا .

ومن الأعاجيب أن عائلة الأمم المتحدة فرضت حظر سلاح على المعتدى والمعتدى عليه من يوليو ١٩٩٢ وحتى نهاية ١٩٩٥ (*).

(*) أدانت ماليزيا بطرس غالى شخصياً في مأساة البوسنة ، وصرحت عدة مرات أن له صلاحيات وإن كانت محدودة، إلا أنه استخدمها بفاعلية في مواقف أخرى وتقاعس عنها تماماً في البوسنة ، وهذا فهو ضد إعادة انتخابه .

أما وسطاء الأمم المتحدة وأوروبا مثل سيروس فانس [أصله يوناني أرثوذكسي] ، ولورد أوين [صرح علنا أنه لن يسمح بقيام دولة مسلمة في أوروبا] ، وستولزيج ويلدت فقد حاولوا تحقيق السلام بتكريس وتقنين مكاسب الصرب من العدوان ، وإعلانهم أنه لا يمكن أن تحل المشكلة إلا حلاً سياسياً . وفي الواقع ، فإن هؤلاء الوسطاء ، ومعهم ما يطلق عليه «جماعة الاتصال بالبوسنة» ضغطوا على البوسنة وكرواتيا ليقبلوا تقسيماً غير عادل للدولة ، يأخذ الصرب ٤٩٪ من المساحة وهم فقط ٣١٪ من السكان .

أخذوا صرب البوسنة في رفضهم نصيحة خبرיהם الاستراتيجيين ميلوسفيتش بـألا يطمعوا في أكثر مما أخذوه ، ولكنهم كانوا يطمعون في سراييفو رغم أنه لم يكن بها قبل الحرب إلا أعداد قليلة من الصرب . قبل العالم الحانق أن تسترد كرواتيا بالقوة كراجينا ، وحركت مشاهد الخوف والموت التي نقلتها شاشات التلفزيون الولايات المتحدة (***) ، فهاجمت طائرات الناتو من ٣٠ أغسطس وحتى ١٤ سبتمبر ١٩٩٥ موقع حرية عسكرية الأمر الذي تأخر فترة طويلة مما أدى إلى ٢٠٠,٠٠٠ قتيل و ٥٠,٠٠٠ اغتصاب ، وأضعاف ذلك من اللاجئين ، وعشرات الآلاف من المباني المهدومة ، وكل ذلك في قلب أوروبا ، وتحت سمع وبصر «القوى المتحضرة» .

اضطررت صربيا وصربيا البوسنة تحت وطأة الهجمات الجوية إلى أن يقبلوا اتفاقية سلام في صالحهم !

فمفاوضات دايتون (أوهايو) من ١-٢١ نوفمبر ١٩٩٥ ، أسفرت عن توقيع اتفاقية باريس ١٤ ديسمبر ١٩٩٥ ، وبمقتضها يتم تقسيم البوسنة ، وإنها لمسألة وقت فقط أن تنفصل جمهورية صرب البوسنة وتتحقق بأمها صربيا ، ولن يكون بمقدور الاتحاد الفيدرالي البوسني الكرواتي أن يؤسس دولة إسلامية ، كما تصور على عزت بيغوفيتش ، فهذا التهديد الإسلامي تم إجهاضه في دايتون . يحتاج انعدام فاعلية القوى العظمى كل تلك المدة إلى توضيح ، فالدولة عادة لا تتصرف بلا عقلانية .

أول تساؤل هنا ، كيف لم تبصر الحكومات الغربية انعدام فرصة استمرار يوغسلافيا القديمة؟ وكيف أخطأوا فهم تلك الحرب؟

لا يصعب على أي من درس مشارع بلجراد أيام تيتو أن يتتبأ بما سيحدث بعد ما يذهب تيتو ونظامه . بل حتى أيام تيتو كانت الكراهية المتبادلة بين الصرب والكروات

(**) بعد أن صمدت سراييفو أكثر من اللازم ، وكشفت أمام العالم حضارة أوروبا وتوافق الأمم المتحدة ، حتى إن كلينتون أذاع على الشعب الأمريكي بعد قراره بإرسال قوات للبوسنة - إننا ذاهبون لنجمل قيمنا

واضحة كضوء النهار، كذلك العداوة القائمة على الاختلاف الثقافي ، رغم اشتراكهما في العرق وأصل اللغة . فالكردات يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ويستخدمون الحروف اللاتينية ، وكانوا حلفاء للنمسا وال مجر ضد الإمبراطورية العثمانية . أما الصرب فهم أرثوذوكس يونانيون (**)، يتبعون كنيسة القسطنطينية ، ثم تحولوا إلى كييف وموسكو، ويستخدمون الحروف السيريليكية . خضع الصرب للأتراك حوالي ٤٥٠ سنة، ومنذ معركة كوسوفو بوجى ١٣٨٩ ، حفظت الذاكرة الصربيّة في الفولكلور الشعبي تلك المفيرة طالبة بالتأرّف منها .

صعد سلوبودان ميلوسفيتش الشوفينية الصربيّة إلى القمة في خطابه السنوي في كوسوفو بوجى في ٢١ يونيو ١٩٨٩ - بعد ستة أشهر على المعركة (**) - ليبدأ في تحطيم التوازن المهزوز داخل يوغسلافيا . كان سلوبودان يفتت يوغسلافيا في وضح النهار . كيف لم تستطع الحكومات الغربية أن تفهم الأحداث التي تتبعها بدقة؟ الرد الوحيد أنها لم تر ما لا تريد أن تراه ، وأملأت في هدوء الجبهة الجنوبيّة الشرقيّة لأوروبا (***).

كذلك أخطأت تلك الحكومات ثانيةً عندما عاملت تلك الحرب على أنها صراع داخل قبلي على الطراز البلقاني المعروف ، حيث الكل يحارب الكل ، والكل غير منطقى ، والمسؤولية على الكل . . . ألسنا كلنا نعرف تلك المنطقة؟!!؟!

حقاً إنها لوجهة نظر ا

في الحقيقة ، بدا بوضوح من خطاب ميلوسفيتش المعادي للأتراك (أى المسلمين) ، أن صربيا على وشك الهجوم على البوسنة في حرب صليبية جديدة .

أعلن المسؤولون الصربيون ، والإعلام الصربي ، والكنيسة الصربيّة ، كذلك الإعلام اليوناني ، بصراحة ووضوح هدف حرب البلقان ١٩٩٢ - ١٩٩٥ : وهو استئصال الجحيب الأخير للمسلمين في أوروبا ، ليس أكثر ولا أقل .

(*) خلال مأساة البوسنة ، تبنى الإعلام اليوناني قضية عدم السماح بإقامة دولة مسلمة في أوروبا ، وبعد أن قتل الصرب مائتي ألف مسلم ، دعت اليونان بطرس غالى لتسليمها جائزة قدرها ٢٠٠٠٠ دولارا

(**) كذلك تحالف فرنسا بمعركة بواتيه التي هزم فيها شارل مارتنل قوات المسلمين المنطلقة من الأندلس ، وكانت تلك المعركة في (١١٤٠ م - ٧٣٢ هـ) . ويرد قادة إسرائيل على من يحتاج على معاناة الفلسطينيين في الأرض المحتلة

بأن أجدادهم تعرضوا لثل تلك المعاناة على يد فرعون منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة !

(***) أو إنها رأت فعلًا ماتريد أن تراه ، ولكن لا تستطيع أن تُظهر ذلك .

وبكلمات أخرى، ما رأيناه على أرض البوسنة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، ويعيون الصرب واليونان، حرب دينية، وهي على هذا حرب ذات وحشية خاصة.

كيف أخفقت الحكومات الغربية في التقاط ذلك؟ لذلك أكثر من سبب. رفض البعض تصديق إمكان عودة المخرب الدينية – فهم أنفسهم لا دينيون – فكيف يحرك الدين السياسة ويُشعّل المخرب؟ لا، لقد تقدمت البشرية ولا يمكن لتخلف وظلام العصور الوسطى أن يعودا.

وإذا وافقنا على ذلك الفهم الخاطئ في البداية، فلماذا لم يتبن للغرب خطأ ذلك عندما تجلّي بوضوح النهار أن الصرب يذبحون المسلمين جماعياً؟

يجب أن نستبعد من البداية عدم كفاءة وقدرة الحكومات الغربية في إدارة الأزمات (*). وبالذات دول الناتو التي طورت إلى مستوى رفع إجراءاتها لإدارة الأزمات، بعمل مناورات شاملة مثل هيلكس، ويتৎکس مما أدى إلى تراكم الخبرات المستفادة. وخبرت حكومات الناتو فنون إنهاء الصراعات العسكرية من خلال التصعيد والتخفيف المعتمدين على توصيل رسائل واضحة النيات للطرف الآخر. ومن الأسس المعروفة في هذا المجال، أن يتأكد الطرف الآخر من أن التهديد بالعمل العسكري إنها هو نصيحة مخلصة لتجنب ويلاته، وفي نفس الوقت هو قصير الأجل، لايعطيه إلا الوقت اللازم للرطوخ.

ولكن يا حسرته! فخلال حرب البوسنة، خالف اللاعبيون الغربيون كل وأى قاعدة تعلموها وحفظوها ورددوها عن ظهر قلب في تدريبياتهم تهديدات مبهمة . . . والأسوأ أنها مرتبطة بآجال طويلة جعلت الصرب يفهمون أنها غير جادة، أو يأخذون احتياطياتهم ضدها.

أما أخطاء سر برنسيا وزبها فكانت علامة على الطريقة!

أولاً، ضد الدلائل الناطقة، كان هناك التساؤل، هل الصرب جادون في التقدم إليهم؟

ثانياً، بعد أن اقترب الصرب منها . . . فات أوان الضربة الجوية!

(*) يكفيانا في ذلك نظرة واحدة للدمار الذي حل بالعراق وإعادته لحياة القرون الوسطى .

ثالثا ، سمحت قوات الأمم المتحدة لقوات الصرب باستعادة الأسلحة الثقيلة التي سلموها من قبل طبقا للقرارات الأممية ! أكان يمكن بهذا السلوك الاستمرار في الوثوق بالأمم المتحدة والحكومات الغربية ؟ وبالطبع لا يمكن لطرف غير موثوق به أن يدبر، ناهيك عن أن يحمل ، أزمة أو مأساة .

الحكومات الغربية المعنية ليست بلهاء ، وليست عاجزة عن التصرف أو حمقاء ، فلماذا بدت كذلك ؟

هناك جواب لطيف كريم وأخر أقل لطفاً وكرماً. الأول ، وهو الأسهل : تصرف الغرب بغزور ، كما يجب أن يتوقع المرء من مجتمعات مادية ، لاتريد التضحية ، خاصة إذا كانت التضحية في سبيل تلك القبائل من البرابرة القابعة في البلقان الكثيف . حقيقة ، تتحقق بعض المتفقين من وجوب عمل شيء ، ولكنهم لم يستطيعوا عمل شيء ، وهذا أحد أعراض التدهور.

ومن الطريف أن رد فعل الغرب هنا يذكر بنفسه رد فعله عندما حاصر السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، فكما وصف « ستيفن رونكلان » ، ناشد الإمبراطور البيزنطي قوى الغرب - كما ناشدتها بيجوفيتش الآن - لتساعده ضد السلطان ، وأجابته قوى ذلك العصر ، البابا ، فينيسيا ، الإمبراطور الألماني ، ملك إنجلترا وفرنسا : يجب البحث عن حل سياسي مع محمد الثاني . ومن ضمن ماتعللوا به : روما الشرقية (القسطنطينية) بعيدة جداً فالتدخل يكلف كثيراً ، وربما فات وقته . وأخيراً عندما اعتزم البابا استئجار مراكب حرية من فينيسيا ، أجابه الفينسيون . أنت لم تدفع حسابك القديم !

ومن المفارقات الطريفة ، أنه يمكن تحريك الملايين في الغرب لقضايا إنسانية كبرى مثل اعتقال الحكومة الصينية لأحد المنشقين ، أو هل هناك خطر من التجارب النووية الفرنسية في المحيط الهادئ على البيئة [أو حتى قضايا حيوانية مثل الرفق بالكلاب أو الخوف من انقراض إحدى فصائل القرود أو الحيوانات] ، ولكن ليس لذبح مائتي ألف مسلم .

لماذا لم تتحرك منظمة العفو الدولية وغيرها من المنظمات غير الحكومية ضد الصرب ؟ هل ذنب البوسنيين أنهم لا بتروليون ، أو أنهم بشر ، وليسوا إحدى الفصائل النادرة للحيتان أو مثل ذلك ؟ أو أنهم مسلمون ؟

ويبقى - بعد كل ذلك - رد فعل ، أو بالأحرى عدم فعل الحكومات الغربية محيراً ، فقد نقل الإعلام الغربي خاصة في ألمانيا وفرنسا مأساة الضحايا إلى غرف المعيشة . يضطربني هذا

لأن أقدم الخل الأقل لطفا وكرماً : الشعور المعادى للإسلام ، والمغروس في الأعماق من الفكر والعاطفة الغربية . لنفهم هذا ، علينا أن نسترجع حصار القدسية عام ١٤٥٣ . ففى هذا الوقت أيضاً ، كان التعصب الدينى وراء امبالاة الغرب بما يحدث في روما الشرقية ، والتي رفضت كنيستها الأرثوذكيسية اليونانية الانضواء تحت كنيسة روما الكاثوليكية ، ومن ثم ، أصبحت كنيسة القدسية من المراطفة الملعونين ، وتستحق العقاب الذى جاء على يد السلطان محمد الفاتح .

ذلك التعصب هو السبب الحقيقى في سقوط الغرب في اختبار البوسنة ، وإليك البرهان : افترض استبدال الصرب الأرثوذكس والبوسنيين المسلمين أدوارهم ، فيقوم البوسنيون بالهجوم على الصرب ، احتلال أراضيهم ، ذبح ٢٠٠٠٠ صرب مسيحي ، واغتصاب عشرات الآلاف من المسيحيات ، هل كان غرب اليوم يلزم الصمت إزاء هؤلاء المسلمين البرابرة ؟ هل يتخيّل أحد أن الغرب سيكافح المسلمين المعذبين بفرض حظر سلاح على الطرفين ؟ الإجابة دائمة لا (*) .

في أعماق كل أوروبي شعور معادٍ للإسلام ، تراكم منذ قرون ، ولا يمكن أن يتغافل أو يقبل إنشاء دولة إسلامية في أوروبا ، بل العكس هو لا يريدها وينفخ منها .

ووصف الناتو لواقع الصرب - التأخر جداً - في خريف ١٩٩٥ ليس دليلاً على العكس ، فلم يحدث هذا تعاطفاً مع المسلمين أو لصالحهم ، وإنما كان ليقبل الصرب [الأغياء العنيدون] تسوية هي في صالحهم في المقام الأول [وخوفاً من انقلاب الموازين العسكرية لصالح البوسنة ، بعد أن ارتفعت كفاءة جيشها وعدده وتسلیحه ، وبعد أن أوقفت تلك الحرب الغرب عارياً تماماً أمام أنظار العالم أجمع] .

بالطبع كان بمقدور العالم الإسلامي والعالم العربي تقديم مساعدة أكبر (**) ، ولكن يجب ألا ننسى أن المقاطعة العسكرية المفروضة على البوسنة جعلت كثيراً من المساعدات في طي الكتان . وفي وقت من الأوقات ، نعمت الصحف التركية وال سعودية قدماء المحاربين الذين ماتوا على أرض البوسنة .

(*) تحدث ضيف الناشر الإنجليزي عن مأساة البوسنة والهرسك ، ثم أضاف : طبعاً لو المسألة بالعكس لكان تصرف الغرب مختلفاً تماماً ، ثم أردف قائلاً : هذه هي حقائق الحياة !

(**) قال أحد المسؤولين البوسنيين : لو لا أربع دول لاختفت البوسنة من الخريطة ، ثم عد أربع دول ليس بينها دولة عربية واحدة .

ولا يستطيع المرء مقاومة الإحساس بأن الكثيرين لم يتقبلوا البوسنيين كمسلمين حقيقيين، فهل كان ذلك لأنهم لا يرددون كلمات إن شاء الله، ماشاء الله، الحمد لله [معلهش [أيشكل كاف؟

ومن يقرأ العمل الرائع لعلى عزت بيجوفيتش «الإسلام بين الشرق والغرب» يقدر ذلك الرئيس المفكر، بل العالم الفيلسوف.

ولايغفني على أحد أن كثيراً من البوسنيين اليوم يهارسون الإسلام بصورة أشمل وأكثر التزاماً من أيام يوغسلافيا السابقة.

طالما ظل الغرب - بسبب تعصبه التاريخي - يُعاني نفسياً وفكرياً من الإسلام، فلن تكون البوسنة هي آخر بوسنة. وفي الواقع فإن في ١٩٩٥ قبل هدنة البوسنة، تعرض شعب مسلم آخر للمذابح الجماعية، وكان في هذه المرة شعب الشيشان^(*).

دافع ذلك الشعب عن إسلامه بقيادة الإمام منصور في القرن الثامن عشر، والإمام شامل في القرن التاسع عشر. ويقاتلاليوم بتصميم مذهل وتضحيات هائلة وحيداً منفرداً تماماً، وياحسراها، لا يقدم أحد لهذا الشعب الجسور العتزة بدينه وكرامته ونفسه، لا يقدم له أحد يد المساعدة سواء كان ذلك في العالم الغربي أو العالم الإسلامي. [تحقق لهذا الشعب النصر في نهاية عام ١٩٩٦، فعقدت روسيا معه معاهدة خمس سنوات، وسحب جحافلها].

تعلل الغرب بأسباب سيادة الدولة^(**) (وحدة الأراضى، النظام العام) [تلك المصطلحات الجوفاء الرنانة التي يتلاعب بها كيف يشاء].

ولكن في عمق الأعماق، هناك الخوف من تطورات تأتى بدولة إسلامية فيدرالية في القوقاز، تجمع الشيشان، داغستان، أنجازيا، كيركاسيا، أنجوشليا، وأوستيا.

تحدث هذه الفظائع عندما يصبح التشويه والتحريف والتزوير تقليداً.

يعرف الفلسطينيون ذلك أكثر من أي مسلم الآخر.

(*) تعدادهم ٢١ مليون نسمة، أرسلت إليهم روسيا مائة ألف جندي وما يقرب من ألفي دبابة والمائتان من الطلعات الجوية، وبعد حرب لامثل لها في التاريخ رضخ العمالق الروسي للشيشان واضطر لعقد معاهدة تحفظ ماء الوجه، وسحب جيشه.

(**) قارن بين مسألة الصين وتايوان ومسألة روسيا والشيشان. يسكن تايوان صينيون، بينما الشيشان جنس مختلف عن الروس، لغة مختلفة، ثقافة مختلفة، دين مختلف. وتهدد أمريكا الصين بإرسال أساطيلها وجبروتها إذا حاولت ضم تايوان لها، ثم تسمع أمريكا تتحل بالصمت الجميل والدب الروسي يقاتل الشيشان، بل ويسميهم إعلامها الانفصاليين.

الفهرس

| | |
|--|-----|
| بين يدي الكتاب | ٥ |
| تمهيد | ٩ |
| مقدمة | ١١ |
| الفصل الأول : الإسلام والغرب | ١٧ |
| الفصل الثاني : الإيمان الكامل | ٢٥ |
| الفصل الثالث : المسيحية والإسلام | ٣٥ |
| الفصل الرابع : الدين والمعরفة | ٤٥ |
| الفصل الخامس : التصوف | ٥٥ |
| الفصل السادس : القدر في الإسلام | ٦١ |
| الفصل السابع : الأصولية | ٦٧ |
| الفصل الثامن : التسامح أم العنف ؟ | ٧٣ |
| الفصل التاسع : جمهورية أم ملكية ؟ | ٧٩ |
| الفصل العاشر : الدولة الإسلامية | ٨٥ |
| الفصل الحادى عشر : اقتصاد السوق في الإسلام | ٩٣ |
| الفصل الثانى عشر : الإسلام والبيئة | ٩٩ |
| الفصل الثالث عشر : الفن ومنع التهليل | ١٠٣ |
| الفصل الرابع عشر : الفقه الإسلامي | ١٠٩ |
| | ١٦٥ |

| | |
|--|------------|
| الفصل الخامس عشر : حقوق الإنسان | ١١٩ |
| الفصل السادس عشر : المرأة في المجتمع | ١٢٥ |
| الفصل السابع عشر : الشرق المحتجب | ١٣٥ |
| الفصل الثامن عشر : القانون الجنائي أو « رجم أميرة » | ١٤٣ |
| الفصل التاسع عشر : الحرب المقدسة | ١٤٧ |
| الفصل العشرون : القانون الدولي | ١٥١ |
| الفصل الواحد والعشرون : عندما يصبح التحرير تقليدا | ١٥٥ |

رقم الاليداع : ٩٧/٤٩٨٧
I.S.B.N. 977 - 09 - 0382 - 5

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيفيه المصرى - ت: ٤٠٢٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧
(٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥
(٠١)

الإسلام كبدائل

هذه هي الطبعة الثانية من «الإسلام كبدائل» والذي أصبح مؤلفه معروفاً للقارئ العربي . . . الدكتور مراد هوفمان ، ألماني الجنسية حاصل على الدكتوراه في القانون من أمريكا ، خبير نووى سابق في حلف الأطلنطي ، وأخيراً ، السفير السابق لألمانيا في الجزائر ثم المغرب .

اهتمى الدكتور هوفمان للإسلام في مطلع الثمانينات ، ونشرت له عدة كتب ومقالات وأبحاث باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية . وهو يتحدثها بطلاقة ، ويدرس العربية والتركية . وترجمت إلى العربية : يوميات ألماني مسلم ، الإسلام عام ٢٠٠٠ ، ويصدر له قريباً عن دار الشرق رحلتي إلى مكة .»

هذه الطبعة منقحة ، وأضاف المؤلف في نهايتها فصلاً فذا مختصراً عن البوسنة والهرسك والشيشان .